

مقصلة الحالم

رواية

جلال برجس

مقصلة الحالم

الكتاب: مقصلة الحالم
المؤلف: جلال برجس
تصميم الغلاف وإخراج الكتاب: مداد للنشر والتوزيع
الرقم الدولي للكتاب: ISBN 978-9948-23-xxx-x
الطبعة الأولى: ٢٠١٨

تمت الموافقة على الكتاب من قِبل المجلس الوطني للإعلام بدولة الإمارات العربية المتحدة.

رقم إذن الطباعة: MC-02-01- xxxxxxx



مداد للنشر والتوزيع
Medad Publishing & Distribution
دولة الإمارات العربية المتحدة - دبي



@medadpublishing
@medadpublishing
medadpublishing1
www.medadpublishing.com
e-mail: info@medadpublishing.com

مقصلة الحالم

رواية

جلال برجس

إلى امرأة بيني وبينها قمر، كلما أطلّ من جبين السماء، نراه بعين القلب فينير عتمة المسافات.

أكتُبُني لعلني أولد مرّة ثانية

سجين الصدى

عندما تكره المرأة رجلاً لدرجة الموت، فاعلموا أنها كانت تحبه لدرجة الموت.

"مارك توين"

1

عندما أغلقتُ باب سيارتي ورائي، كانت آثار الصقيع الذي بدا قاسياً في ذلك الصباح ما تزال على زجاجها، فبقيتُ لدقائق أتأمل وجه الزجاج وقد استحال إلى لوحة بيضاء تتقاطع فيها الخطوط، الوجوه والأجساد موحية بمزاج سوريالي ضارب في المعنى، فالطبيعة يد رسام أولى تمارس هوايتها بلا خوف أو تردد. راح محرك السيارة وأنا أجهزها للانطلاق يئن متأثراً بموجة الصقيع التي عصفت بالقرية. أرخيت رأسي على مسند الكرسي وأخذتني سنة من التفكير:

"ما الذي يحدث لك يا خالد؟ إنه الجنون بعينه أن تذهب إلى معتقل أمضيت فيه عشرين عاماً، ليس ثمناً لموقفك السياسي بل بتهمة لم تقترفها، ستبقى تقلب بصرك بين الوجوه باحثاً عن أي دليل يشير إلى من ألصقها بك. ما أن غابت "سعاد" ذلك الغياب الخاطف المفاجئ حتى رحت تتحسس شكل سجن جديد يشرع أبوابه في صدرك، كأن كل تلك الكلمات والتأوهات والوعود وأنين الجسد في سرير الحب أمست مجرد مشهد في فيلم، تحولت شاشة السينما إلى سوادٍ مخيفٍ بعد انتهائه. حنين جارف لمعتقل ستذهب إليه مدفوعاً بشغف غريب ومَرَضيّ بات يلح عليك منذ أن وجدت نفسك عاجزاً عن فهم ما يجري حولك، حتى أن صديقك الدكتور ويلسون الذي راقت له عوالم الشرق فأقام

في عَمان، لم ينجح بطرده منك رغم شرحه المستفيض لأسبابه وطرق التخلص منه وأنت ممدد على سرير يشبه كرسي اعتراف بكل ما يحدث في داخلك، وتسرد له ما حدث عبر عشرين عاماً صارت آثارها كآثار شوك حوليّ في قدم سقطت فجأة بحقل ملغم بالحشائش الشوكية الضارة".

تلاشت لوحة الصقيع البيضاء وتراجع أنين محرك السيارة فانطلقتُ في الطريق التي تشق القرية إلى نصفين، في صباح ارتفعت فيه أدخنة المدافىء كأنها أياد تتضرع إلى الله، قاصداً الطريق الصحراوية الممتدة كلسان كبير يهزأ بالكائنات. ثلاث ساعات من مسير تحولت حياتي عبره إلى مشاهد تتوالى أمام عيني مشهداً مشهداً، لأجدُني في نهاية الطريق قبالة معتقل جاثماً على صدر الرمال ببدنه الحجري الأصفر، بأسلاكه الشائكة الصدئة، بأسواره العالية كالصرخات وبصوت الرياح وهي تحوم حوله كنادبات استمرأن النواح. أطفأتُ محرك السيارة وأشرعت باب الذاكرة على مصراعيه لأغرق بكل ما حدث منذ الليلة التي اعتقلتُ بها، ليلة كان عليّ أن أؤمن فيها بالإشارات والنذر وهي تخرج لي حتى من الهواء. انتهاء بذلك الصباح الذي غادرتُ فيه المعتقل وأنا أتبين عبر نافذة العربة العسكرية نواح ذئب بقي كحكايات الأمهات قبيل النوم في المعتقل ينحدر إلى مسامعي، برتمه الموسيقي الموحش قادماً من ليل الصحراء، إلى أن تحل سطوة الإغفاء حاملة معها الكوابيس والهلوسات والنوم المتقطع.

بدت لي الصحراء وهي تحاصر المعتقل قد اتسعت أكثر من ذي قبل، فاغرورق البصر ببدن المسافات وهي تركض للبعيد ثم تلتحم بالأفق. فجأة، ثارت عاصفة في المكان جلبت معها ذرات الرمل الدقيقة وبقايا الحشائش اليابسة ومزق أوراق مصفرة ذابلة. إنها مزاجية الصحراء التي مثلما تمنحك المساحة الهادئة في صباحاتها ولياليها الصيفية، تمنحك غضبها دونما مقدمات. ما هي إلا لحظات وكأن المساء قد حلّ حتى طفقت على المكان عتمة حمراء وراحت الرياح تعوي وهي تعزف على وتر موغل بالوحشة.
أغلقت نوافذ السيارة وأرحت بدني على الكرسي مستسلماً لإحساس سادي غريب من التلذذ بالوحشة من مخبئ الذكريات، كان عواء ذئب المعتقل يجيء متقاطعاً مع عواء الرياح في مقطوعة صارت خلفية لمشاهد تطل من عتمة الذاكرة، وقطرات ساخنة تتساقط في مكان خفي في دواخلي، وصوت الدكتور ويلسون يأتيني محرضاً على الرحيل:
"لا تستسلم لهذا الإحساس، إنه إحساس زائف وخطير. خطورته في أن يسيطر عليك الحنين للمعتقل وكأنك ترفع الراية البيضاء أمام خصمك السجين الذي اكتشفت أنك تحمله معك. عليك أن تهزمه يا خالد".
ثمة نقرات ليد جندي كان يغطي وجهه برداء صوفي اتقاء للبرد والعاصفة الرملية على زجاج السيارة أيقظتني من استغراق موحش لطالما استغربته:

- هل تريد شيئاً؟ هذه منطقة عسكرية لا يسمح لك بالاقتراب منها.

لم يكن من السهل أن أقول له أنني جئت إلى هذا المكان على جناحيّ حنين عجيب شدني للمعتقل لكنني رحت أتذرع بالتيه:

- لا، كل ما هناك أنني تهت لأجدُني هنا فتوقفت لأستريح منتظراً تراجع العاصفة فأعود للدرب الصحيحة.

قبل أن أغلق نافذة السيارة اتقاء لرمال بدأت تتدفق للداخل وأتهيأ للانطلاق، سألت الجندي:

- أما من أحد في هذا المعتقل فأنا لا أرى حرّاساً ينتشرون حوله؟

أجابني وفي عينيه نظرات مستغربة:

- لا، تحول هذا المعتقل إلى مخفر في هذه الصحراء التي تخلو حتى من المتخاصمين.

شكرته بعد أن دلني على طريق العودة ثم انطلقت وأنا أقاسي مشاعرَ غرائبية.

* * *

من مرآة السيارة كان المعتقل يتلاشى في جنون العاصفة شيئاً فشيئاً، وأنا أسلك الطريق التي كان علي أن أبدد عبرها ثلاث ساعات من مسير متواصل لأصل القرية، كنت أعي جيداً أنني لم أكن يوماً بحاجة لسعاد كما كنت أحتاجها في ذلك اليوم الذي استشاطت به الرمال تصفع كل شيء فتخلق شعوراً مليئاً بالوحشة. كنت أتبين وجهها عبر عواصف حزن تجتاحني كوجه

طفل يلعب (الاستغماية) يطل مرة ويغيب مرات خلال طريق بدت لي كيدٍ تسحب حبلاً طويلاً لا ينتهي من جوفي. كنت أحتاجها كحاجة يدٍ في طقسٍ باردٍ لجيبٍ تخلد فيه، فلم تكن في حياتي مجرد امرأة تمرّ مروراً عابراً، أبقى بعده أقتات على ذكريات بدت قصيرة الأجل منذ البدء؛ بل أغلقتُ عليها جفنيّ القلب كحياة أبدية، لا يمكنني التنازل عنها بسهولة كما يفعل الرجل الشرقي حين تدير امرأة ظهر قلبها له، مقابل حبه الجارف.

* * *

ما أن وصلت البيت عائداً من مرمى ذلك الحنين السادي، حتى وقفت تحت صنبور الماء في الحمام، لا لأغتسل من تراكم الرمال التي تسللت إلى كل أنحاء جسدي، بل لأتخلص من ذلك الألم الخاطف الذي كان يزداد صحواً بي كلما توغلت فيما حدث.

عندما خرجت من الحمام كانت جدتي تتجاوز باب المطبخ، تتوكأ بيمينها على عصاها وتحمل بيسراها صينية استقر عليها إبريق شاي وكأسان. قالت بصوت متعب:

- تعال يا خويلد اشرب شاي.

أخذتُ الصينية من يدها ودخلنا غرفة المعيشة. أرخت عكازها واستعانت بيديها وراحت على مهل تهبط فوق فرشة صوفية إلى أن جلست متعبة في مكانها وهي تهلل وتبسمل. جلست قريباً منها ثم سكبتُ الشاي ورحت أنفخ فيه أخفف من حرارته ثم أشربه. التفت إليها إذ كانت تسهو بي وكأنها تفتش في وجهي

عن إجابة ما فغادرَت شرودها قائلة:

- وين كنت اليوم؟

قلت دون أن أنظر بعينيها المتسائلتين:

- رحت أزور صاحب.

من كيس بجانبها، تناولت غليونها الذي تمتد من حَجَره عصا دفلى طويلة وراحت تملأه بتبغ (الهيشي):

- ما ظني أنك كنت عند صاحب يا خويلد. إنت مالك خَوي غير رَدَّاد.

بولاعتها التي تعمل بالكاز، أشعلت النار بالتبغ ثم أخذت نفساً عميقاً وتبعته بآخر فارتخت:

- أنت رحت عسجنك يا خويلد؟

- وكيف عرفتِ؟

بمسمار مثبت بحجر الغليون عبر سلسلة معدنية قصيرة، نكشت التبغ وأشعلته مرة أخرى:

- سمعتك تسولف مبارح وانت نايم، مرة تنادي على سعاد، ومرة تنادي على خوياك بالسجن.

ارتشفَت من كأس الشاي ثم وضعت يدها على رأسي وأخذت تحدثني بحنو:

- يا جديدتي أنا دايمن أسمعك وانت نايم تقول منهو اللي اتهمني هالتهمة وراحن عشرين سنه من عمري. يا خويلد لازم تنسى. في شغلات بحياتنا لزوم ماندري بيها، موتها أحسن يا جديدتي.

بقيت جدتي تتحدث إليّ دون أن أنطق بكلمة واحدة إلى أن قررتُ الذهاب إلى غرفتي:

– أنا رايح أنام، تصبحي على خير يا جدة.

* * *

في غرفتي التي تطل نافذتها على سكون قروي غزير وليل لا يأتي من جوفه سوى صوت صرصار الليل ونباح كلاب بعيدة، استلقيت في السرير ألوذ بعزلتي وأحدق بالسقف الذي تراءى لي يهبط ثم يعلو وأنا أفكر محتاراً بحكايتي مع سعاد، كأنها حلماً طويلاً تلاشى مرة واحدة كما تتلاشى قطعة شوكلاتة في فم بقي يتتبع إيقاع السكرّ الذي راح طعمه يرحل شيئاً فشيئاً إلى أن حل الفراغ. كأن غيابها المفاجئ سرّ استعصى على قلبي فهمه دونما تلك المفاتيح، أو الإشارات التي ترميها الحياة عادة في طريقنا لنوغل بالأسئلة وهي تفضي إلى إجابات، مثلما تمنح الواحد منا ذلك السلام الداخلي الذي ننشده دوماً، تمنحه وجعاً ليس لأي مبضع قدرة على استئصاله، فنحن حينما نحبّ نبثُّ الحياة في كل الأشياء لتنهض مرة واحدة من كسلها فحقيقة الأشياء، هي التي تُرى بعينيّ العاشق المطلق إذ أن هنالك فارق بين المطر في الغياب وبينه في الحضور.

ما أن غابت دونما أي مبرر أو عبارة تودع بها كل ذلك الكم الهائل من الذكريات العالقة كصوف برمش العين، حتى بت أسيرَ شكلٍ جديدٍ من أشكال السجن، فوقعتُ صريعاً لمكابدات

حنين غريب يأخذني نحو معتقل أمضيت فيه نصف عمري، تماماً كما يمضي سكين متهرئ بجسد فتي. حنين بقي يستبيحني بعد ليلة أنفقت فيها ساعات كثيرة في محاولات يائسة لسماع صوتها عبر الهاتف، لكنني لم أحظ سوى بصوت إلكتروني يخبرني أن الرقم المطلوب لا يمكن الاتصال به.

في السرير كنت أراقب سقف الغرفة بعينين لا ترمشان ودونما حركة إلا حركة يدي وهي تدفن جثث السجائر واحدة تلو الأخرى في تراب المنفضة مستلق كأي شيء مهمل، وثمة صوت يتساءل في دواخلي التي باتت تشبه كهفاً فعلت به ألسنة النار سواداً لا يغيّر فقط لون الحجارة بنتوءاتها الهندسية العشوائية التي ارتهنت لصدفة الطبيعة، بل يشوّه معنى الدفء الذي يمكن حتى للكهوف الباردة أيضاً أن تحفل به. كيف حدث ما حدث؟ ما الذي كنت أفعله قبل تلك الليلة التي لُفقت لي فيها تهمة لا يمكن تجاوز تطرف وجعها؟ هل من أمَارات كان عليّ أن أتفحصها جيداً لأتوجس من شيء قادم كالذي حدث لي؟ إن وجع عشرين عاماً أكلها غول المعتقل من عمري يبدو أخف وطأة مما اكتشفته في زمن ما عاد بإمكاني فيه أن أتراجع ولو خطوة واحدة إلى الوراء في طريق حب امرأة مسكونة بالأسرار.

بقيت مستلقياً أحدق بالسقف، حيث تتدلى أزمنة تتماهى وتتنافر. زمن المعتقل الصحراوي يتقاطع بسجن عزلتي الجديدة، زمن الحلم في زمن النزق قبل المعتقل ونحن نعتقد بأن بياناً أو

منشوراً أو قصيدة يمكنها أن تغير شكل العالم ليصبح أكثر هدوءاً مما هو عليه، زمن الحلم ذاك يتداخل بزمن حلمي بسعاد فيتماهى الزمنان فأنهض إزاء حلم بوطن حبيبة وبحبيبة وطن إذ لا تختلف الخيبة في الحب عن الخيبة في الوطن فكلاهما وطن وأنت وحدك الشريد بعد خسارة أي منهما.

2

خارج البيت انتشر الضياء يسقي عطش الكائنات للحياة فسقط من بين شقيّ ستارة النافذة خيط ضوء في بؤبؤ عيني وأنا ما أزال في سرير النوم إذ دب بي أول الصحو. تذكرت وقوفي أمام المعتقل يوم أمس كنعجة حزت رقبتها ثم عادت بعد زمن تقف أمام قصابها، لكني رحت أتناسى المشهد فأخذت أستشعر رعشة لذيذة تدغدغ بدني، تذكرت بسببها أنني رأيت سعاد في المنام. وكأن خصلات شعرها متناثرة على خد الوسادة، كنت أمرر يدي على قماشها الناعم. وسادة شهدت في ليلة لقائنا على أرض الشغف للمرة الأولى كثيراً من الكلام الرشيق الذي انساب كنهر في سهل كانت الطبيعة فيه هادئة يوم تشكلت النهنهات الأولى للجغرافيا.

تمطيت في سريري وأنا ما زلت أكابد طعم قبلتها وأغالب صدى اختلاط الرضاب بالرضاب، ذلك الصدى لكيمياء الجسد حين يداهمه حب كحبها الذي رتبّ فوضاي وبعثر ترتيبي، قبلة صنعتها بهجة كونية في حالة عناق بين ذكورة وأنوثة تحلم بأن تنتصر على العطش في زمن يمنحك الجفاف دون أن تعي فداحة ما يحدث. استدرت في سريري وتكورت على نفسي لتصبح النافذة قبالتي ونسمة هواء خفيفة تهز بدن الستارة. ثمة مداعبة كانت تحدث على مهل تفضي إلى عناق حميم بين الستارة والهواء. تسلل طعم

المنام إلى دمي أكثر، فرأيت سعاد تطرد بنعومة كانت تفيض بها، خشونة عمر بأكمله.

* * *

نهضت أمشي متثاقلاً بعد أن رأيت تفاصيل المنام تهرب من النافذة تماماً كخيط دخان أغرته الريح فغادر دونما تلويحة وداع، لأرى غيمة سهو خفيفة تجتاحني فأتساءل كيف أشرعتُ نوافذ القلب أمام رياح حبها، وهل كان علي أن أصمت إزاء برق أضاء سواحل روحي المعتمة يوم ولدت الكلمات الأولى بيننا؟ ربما كان علي أن أتمثل مقولة "برناردشو" وهو يردد أن "الحب يستأذن المرأة في أن يدخل قلبها، وأما الرجل فإنه يقتحم قلبه دون استئذان".

في المرآة التي تنزلق على الجدار كحياة ساكنة تضمر ضجيجاً أخرس، رأيتُني مليئاً بصمت يشبه صمت ثلج صيّرته الريح جليداً في ليال موحشة. تراءت لي قضبان معتقل صدئة تنزلق على مرأى من وجهي في المرآة ورياح صحراوية نائحة لا تتوقف وهي تشج رأس ذلك الصمت. عواء ذئب يكاد يضج من وجه الزجاج وهو يصرخ بالوحشة. سنين السجن تسيل على زجاج المرآة كبخار الماء الذي ما أن نزل منبعثاً من الصبنور حتى تكاثف على الزجاج فأخذت أمسحه بيديّ لعلي أرى صورة غير التي أراها كل صباح، لكنها الصورة ذاتها إلى جانب صورة صديقي "رداد" وهو يوشوشني دون أن يكمل ما قال من وراء قضبان المعتقل يوم جاءني زائراً:

- هنالك من لفق لك التهمة يا خالد فصرت مجرماً سياسياً ينوي الخراب للبلاد في مخيلات الكثيرين.

حينها رحت أنادي من وراء القضبان ورداد يغيب بين الزوار بعد أن انتهى وقت الزيارة:

- من يا رداد من وراء تلك التهمة؟

وكأني غريب عن نفسي، رحت أتحسس شيباً استوطن رأسي على غير موعد وأنا ألوح في المرآة التي ما أن نهضتُ من سريري حتى بدوت لنفسي عبرها وقد كبرت مائة عام إضافية في ذلك الصباح، ليغدو سؤال العمر في هكذا مرحلة طافت الخسارات بها على سطح لهاثنا اليومي نحو الحياة بلا زوجة وأولاد، ولا بيت تحتسي فيه كأس سكينتك؛ سؤال يشبه خنجراً يغرس نفسه في الخاصرة مع كل تكة من تكات عقارب الساعة.

جاءت أصوات طلبة المدارس متقطعة من عمق شارع حاذى بيتنا الذي مرّ عليه زمن حافل بالحركة والأصوات وهم يطلقون عبارات غزلية حارقة صاغتها خيالاتهم الليلية وهي ترسم صوراً شتى للفتيات اللواتي يتغاوين بأنوثتهن القادمة للتو.

تلاشى ضجيج الطلبة شيئاً فشيئاً فاستحال البيت إلى هالة من صمت لم يكن طاغياً حينما كان يحفل بالحياة ذات زمن يبهج القلب. لا شيء سوى هسيس موجوداته وصمتي الذي يشبه حلكة كهف عميق لا يملؤه سوى الاحساس بالظلمة، إحدى هدايا سنين تلاشت في المعتقل وصمت جدتي التي ما عادت

صحتها تسعفها على سرد حكايات يتداخل فيها الخيال بالواقع عبر تقنيات سرد فطرية، تجعل أي مستمع لها يعيش الحكاية كفيلمٍ سينمائي لفرط قدرتها العجيبة على تصوير الواقع. ثمة أصوات أتت من طرف القرية لباعة متجولين يبيعون بضاعة لا رواج لها في المدينة وأصوات لتجار "الخردوات". لاحقني طيف كابوس لم أحاول أن أتذكر من ملامحه شيئاً، فقد تعبت من فرط احتلال الكوابيس لي في تلك الأعوام التي أمضيتها في المعتقل وصولاً إلى السنين التي تلت خروجي منه وأنا أعيش عزلة اختيارية مؤلمة، كوابيس كان الدكتور ويلسون يرى أنها حدث طبيعي رغم بشاعتها، حدث يشي بأن القضبان وهي توغل في صدئها لم تنتصر عليّ كما كانت تتمنى.

في المطبخ بينما كانت غلاية القهوة تمنح اللحظة عبقاً صباحياً يشيع شيئاً من الاسترخاء، أدرت مفتاح المذياع واجتاح صوت (فيروز) المكان فبدت الأشياء مألوفة أكثر فالموسيقى تجعلنا نألف الأشياء ونرى ما وراءها من عوالم حرِية بمراقبتها. إنها عادة الاستماع للراديو التي حملتها معي من زمن معتقلٍ رأيته طيفَ عجوزٍ تائهٍ في صحراء بلا جهات، وكان عليّ أن أراه كطيف وحش يلتهم كل من يقترب منه، لكن الذي حدث عكس ذلك تماماً، ربما هي تلك الألفة التي تحدث للواحد منا حيال أمكنة رغم كرهنا لها، إلا أننا نحس بشيء من حنين قسري نحوها، بل أحياناً ربما نذرف بضع دمعات تنبع من جهة الرحيل الذي يبدو

قاسياً على النفس. هذا ما حدث لي وأنا انظر من نافذة العربة العسكرية وهي تركض بي نحو العاصمة لأركض معها بطيف جديد لسجن تحسست وجوده والعربة تعبّ هواء المسافة نحو زمن مختلف.

عندما أخبرت الدكتور ويلسون الذي أحب عمّان وأقام بها هارباً على حدّ قوله من برد داخلي، عما أحس به، راح يبتسم وعيناه الزرقاوان تتسعان بفعل ابتسامته العريضة:

- ثمة أشياء تنهار في الغياب تفقدنا الثقة بالبيئة التي غبنا عنها طويلاً.

وأنا أمرّ للمرة الثانية بقرب مرآة تتكئ إلى الجدار، تفرّست بوجهي من وراء ضباب يخلفه النوم غير المريح للبصر. ثمة تجاعيد نمت في الجبين، وأخرى تحت العينين وشعر أبيض ضج من منتصف ذقني كأمارةٍ لمنتصف العمر ولمؤشرٍ بات يعود للوراء. إنه الاحساس بالذهاب نحو الموت وبياضه الأبدي. يا إلهي لم أكن أحس بكل تلك الأشياء وسعاد معي! "كأن الحب عقارٌ لا يعالج تجاعيد الوجه فقط، بل يذيب تجاعيد الروح أيضاً"!

ما أن عبرت الممر الذي يفضي إلى الساحة الخارجية للبيت والتي تنتصب فيها شجرة سرو ضخمة ودالية عنب وشجرة فلفل بقطوفها الحمراء الجذّابة وأشجار زيتون معمرة وأشجار لوز ورمان إضافة إلى حظيرة ماعز وقنّ دجاج وحمام، حتى تناهى إلى مسمعيَّ صوت جدتي وهي تجلس عند حفرة نار وُضعت

عليها دلال القهوة، إبريق شاي ووعاء حليب الماعز، كانت تغني أغنية تتعربش بأطرافها اللوعة والحنين لزمن غير هذا الزمن الذي ما عاد يقنعها وهو يتبدل سريعاً غير مستقر على حال واحدة. حين رأتني توقفت عن غنائها وسكبت لي كأساً من حليب الماعز الممزوج بالشاي المطعم بالزعتر البري وهي تستزيد من تحيات الصباح وتهليلاتها الكثار.

- كيف أصبحت اليوم يا وليدي؟

- الحمد لله يا جدة.

رأتني ألوذ بصمتي منذ خرجت من المعتقل، إذ قالت وهي تضغط الجمرة الصغيرة على تبغ الهيشي الذي حشرته في حجر الغليون وتسحب منه نفساً فيجيء دخان التبغ غزيراً:

- وين صاحبك رداد. صارلو وكت ما جاك.

قلت بعد أن أشعلت سيجارة ثم نفثت دخانها في الهواء ومسحت ببصري الجبال الغربية للقرية التي انتشرت فيها بنايات الحجر وارتفعت بها أعمدة إعلانات لمحال تجارية بماركات عالمية:

- مسافر.

اقتربت مني قليلاً وهي تزحف ببطء دون أن تنهض، ثم همست لي بما يشبه التوسل:

- يا جديدتي خليني أشوفلك بنية ثانية من بنات القرية تتجوزها. بلكي ترجع ظحكتك.

بقيت جدتي إلى أن ماتت لا ترى في القرية غير قرية تعيش في

ذاكرتها وكأنها لا تلاحظ ما طرأ عليها من تبدلات، وعلى أناسها من تحولات لا تقبل بتحول صورة القرية من زمن البداوة في حله وترحاله إلى مجتمع فيه يزرع الناس ويحصدون ويذهب أولادهم إلى المدارس، صارت شيئاً آخر. فكيف لها أن تقتنع بحياة جديدة باتت إلكترونية أكثر من اللازم. قلت متعجباً، وأنا أراقب وجهها الذي لم تغير السنين ابتسامته الطفولية:

- بنية؟ كمان مرة ثانية يا جدة؟ ما يكفي البنية اللي خطبتها وأنا طالب بالجامعة، وبعد شهور لقيتها بحظن صاحبي؟ وبعدين يا جدة، أنا جربت حظي بالقرية وما نفع، ولا نسيتي!

التقطت من حفرة النار جمرة ووضعتها في حجر الغليون، فأخذت نفساً عميقاً من التبغ، ورمت ببصرها نحو التلال التي تترامى حول القرية غير فاقدة ذلك البريق من الأمل الذي من شأنه أن يبدد عزلتي التي ترى أن أنجح وسائل مكافحتها هو الزواج.

بدت لي القرية إلى جانب سمائها الموشاة بقليل من غيوم الشتاء المتناقصة في ذلك الصباح، ملفعة بصمت لم تطله الوحشة بهذا الشكل في أيامها العامرة بأصوات تأتي من الحقول والبيادر والمراعي والبيوت والطرقات صيفاً وشتاء. صمت معدني يلفها رغم ملامح الحداثة التي طرأت عليها وكأني لم آلف الجديد. أغنيات لا معنى لها، لحى وجلابيب قصيرة، نساء يمشين في الشارع يقلدن مشية عارضات الأزياء، رجال يعيشون حالة جوع جنسي متوحش، نساء سافرات، نساء بوجوه مغطاة بالأسود، سيارات تطلق

كوابحها صريراً حاداً لاستعراضات في الطرقات، أمزجة متوترة ما أن يولد خلاف بسيط، حتى تنشب معركة ضارية تسيل فيها الدماء وتنوح النائحات، حمى اقتناء كل ما تنتجه الدول الصناعية من آخر صرعات الهواتف والحواسيب النقالة، أجهزة استقبال المحطات الفضائية، ألوان جديدة، موضات ملابس جديدة ولكنات جديدة.

أشعلت سيجارة وجلست متكئاً على الجدار. كانت شجرة الفلفل تضرب جذورها في التراب كأنها كهل صلب يقاوم الريح. الشجرة التي تراءت لي الأرجوحة فيها تهتز أماماً ووراء كما لو أنها تهدهد طفولتي العالقة آثارها بكل ذرة من ذرات تراب القرية. كانت جدتي تتجه إلى قنّ الدجاج تنثر حبات الشعير، تتمتم بكلمات غير مسموعة والشمس تعلو في المدى ترسل أشعتها بخجل. لم يكن ذلك الصباح الشتائي نهاراً لعطلة نهاية الأسبوع، لكنني لم أذهب للعمل. كنت قد هاتفت مديري وتعذرت لغيابي، إذ راح يبدي تعاطفاً معي في الأيام الأخيرة لفرط ما رأى في روحي من قلق لم يستطع وجهي أن يداريه. تذكرت في تلك اللحظة يوم حللت على القرية بعد زمن من الغياب معتقلاً، حينها بدأ الناس يتهافتون على زيارتي في "البيت الكبير" الذي ما تبقى من حجمه إلا اسم اعتاد الناس عليه على رأس التلة، شيّده جدي حين فكر أن الحل والترحال وراء الكلأ والماء لا يجدي نفعاً بما أن هناك بلادا تمنحك شجراً وبيوتاً تستريح

بها من عناء الرحيل وعذاباته. كان بيت جدي أول من ينقل عدوى الاستقرار لباقي العشيرة والتخلي عن مكابدات الترحال التي لا يتخلى عنها البدوي بسهولة. امتلأت المضافة بعدد كبير من الرجال وشبان كان جلهم ينظر إلي باستغراب، وبين الفينة والأخرى كانوا يسألون بخجل تارة، وبخوف تارة أخرى عن سنين المعتقل التي أمضيتها وكلمات تأتي من هنا وهناك:

- بيقولوا انو كان بدو يقلب نظام الحكم.

ثم يقول آخر:

- لا يا عمي ما في من هالحكي بس الحزب تبعو كان قبل الديموقراطية ممنوع.

أتى صوت آخر تخلله شيء من التوتر:

- يا ناس أصلاً ما كان حدا بهذيك الأيام مسموحلو يشتغل بالسياسة غير الإسلاميين اللي كانت الحكومة غاضة الطرف عنهم والآن قاموا عليها.

من زاوية المضافة جاء صوت ضاحك:

- تزرع عود تشلعو. تزرع بني آدم يشلعك.

نغمات مختلفة لهواتف نقالة كانت تخالط الأحاديث التي كانت تجري في المضافة. الهواتف التي كان يمكن للتفكير بشأنها أن يكون ضرباً من الجنون أو الهرطقة حين الحديث عن إمكانية ابتكارها قبل عشرين عاماً. ثمة أحاديث عابرة عن قنوات فضائية تبث برامج تتاجر بعواطف البشر. وأنا أمسح المكان بنظرة

واسعة، تيقنت من أن الوجوه ليست كالوجوه التي غبت عنها في رحم صحراء قادرة على التهام أي شيء. بعد لحظات تحولت دفة الحديث باتجاه انتخابات أجمعت العشيرة قبل موعدها على أن تقوم بترشيح الدكتور عناد، حيث تنادت وهي تشهر بنادقها وعدد أفرادها انتصاراً له. من باب المضافة دخل كهل بخطوات بطيئة، ألقى السلام، ووقف لبرهة أمام صورة والدي بزيه العسكري، ثم عانقني بحرارة وجلس قربي. عرفت فيما بعد أنه "محمود النشمي" أحد أصدقاء والدي أيام كانوا في الجيش. في غيابي سكن القرية قادماً من شمال البلاد. محمود النشمي هذا الاسم الذي أطلقه عليه رفاقه العسكر لبسالته في الحروب، التي خاضها مع الإسرائيلين. بدا غير معني بالحديث الذي كان يدور، فنظر إلى وجهي مبتسماً تلك الابتسامة التي تشي بكثير من الحزن:

– الدنيا خربانة يا وليدي.

أشعلت له سيجارة ورحت أتجاذب معه أطراف الحديث،عبَّ نفساً عميقاً ثم تنهد قائلاً:

– لو ظلينا بدو كل يوم ببلاد أحسن إلنا يا وليدي. اليوم سعر البني آدم صار بالمصاري، اليوم الأخو ما يطل على أخوه، راحن البيادر وموارس القمح والخير راح. النسوان بطلن يخبزن وكل شي صرنا نشتريه من السوق والسوق يوم طالع ويوم نازل وبطلنا نعرف مين الصادق ومين الكذاب. يا وليدي صار الواحد يحس

حاله حاجة تنشرا وتنباع.

كانت المضافة ممتلئة بأحاديث كضجيج ينقر أذن أصم. أخذت أراقبهم واحداً واحداً وأنا أراهم أناساً غير اللذين تركتهم، بينما محمود النشمي يسرد لي أوجاعه الكثيرة. في صباح ذلك اليوم الذي التقيت فيه محمود النشمي، وعندما وقفت في حوش الدار المطلّ على البستان الذي زرعه جدّي، رأيت القرية بوجهٍ شاحبٍ غير ذلك الذي تركته قبل غيابي الطويل. كل شيء تغير سوى عقول أغلب من التقيت بهم. عندما توجهت إلى الداخل بفعل يد خفية كانت تدفعني، سمعت صوت جدتي تولول وهي تنادي عليّ تتجاوز بوابة "الحوش" تتعكز على عصا من شجر التين.

- محمود النشمي مات. جهز حالك علشان تروح تعزي وتوقف مع جماعته.

عبرت إلى الداخل مصاباً بحزن متوازن ثم قلت لها بصوت خفيض:

- ماني رايح. الله يرحمه.

***

ناولتني فنجان قهوة ثم راحت تنادي وأنا شارد الذهن:

- خويلد، يا خويلد، بإيش سرحان يا جديدتي صارلي زمان أنادي عليك؟

- ما في شي يا جدة.

اقتربت مني أكثر وهي تأخذ الفنجان من يدي:

- يا جديدتي كمان مره أقولك، ما ودك تتجوز؟

- لا يا جدتي.

قلت ذلك ثم نهضت عائداً إلى غرفتي التي ولدت بيني وبينها ألفة سببها العزلة. حينها بقي صوت جدتي ورائي يعلو شيئاً فشيئاً وهي تغني إحدى أغنياتها الحزينة التي عادة ما تنتهي ببكاء رآه البعض سبباً في تجاوزها المائة عام من عمرها.

***

قبالة النافذة التي تشرف على "مادبا" وهي جاثمة ببنايات بدت كأطفال يلهون بتسلق المرتفعات، جلست إلى طاولتي أطل على ملامح سنين علقت بتلابيب الذاكرة كما يعلق الشوك بثوب امرأة تمر بحقل يابس. مرت أعوام على عودتي من عشرين عاماً من الاعتقال. حدثت أشياء لم تدر بخلدي ولم تحدث أشياء بقيت في خلد البال عمراً.

رحت أتساءل عن أي الطرق التي علي أن أسلكها لأنسلّ مني فأترك ما شوهته هذه الحياة كما تترك الأفعى ثوبها فتمزقه الريح ليصير نسياً منسيا. وما كان لشيء أن يفعل لي هذا غير الكتابة. حينما نكتب فإننا نخط لنا طريقاً تأخذنا إلى جبل لنراقب ما حدث بحيادية غريبة ثم نهبط بعد آخر الكلمات، لكننا نعود من درب أخرى وأعيننا على مسافة باتت تفصلنا عن ما جرى كأنه ليس لنا. صوَّبت فوهة القلم إلى رأس الصفحة البيضاء وهمست:

- إذن ها أنا أكتبني لأولد مرة ثانية!

الفصل الأول

اعترافات على صدر الورق

سعاد - 1

كان "رداد" صديقي الوحيد والذي أقلع عن السياسة مع أول صفعة على وجهه من المحقق وقت الجامعة وما عاد يحتفي بشيء سوى ولعه بالنساء قد قرع باب البيت ثم عبَره مبدداً بصوته العالي مزاج الصمت. همست له جدتي التي بقيت تضع يدها فوق حاجبيها سنيناً، وهي ترقب طريق عودتي كل يوم إلى أن عدت لها مهزوماً ومنكسراً كولد بقي يطارد شمساً غابت وراء التلال:

- قاعد جوّا، إنت عارف إنو من يوم ما طلع من المعتقل وهو ساجن حالو، يا ميمتي إنتا خَويّه القريب، شوفلك حل معاه.

زارني بعد يومين من عودته من عمله كمهندس للطيران يرافق رحلة إلى فرنسا. كعادته، راح يزمجر ويكيل السباب والكلمات النابية بأسلوب كوميدي ساخر يستهدف تسطيح أي أزمة وعادة ما ينجح أسلوبه هذا. ركن حقيبته جانباً وخلع سترته ثم ترك الغرفة وهو ينادي جدتي:

- والله يا حجة، إني مشتهي كاسة شاي.

بينما رداد يقترب من باب غرفتي، جاء صوت جدتي من الداخل ممزوجاً بحماسة مردها حضور رداد الذي ظنتْ أن بإمكانه فعل شيء يمنحني بعضاً من البهجة:

- ابشر يا ميمتي، هالساع أساويلكو بريق شاي.

ما أن عبر إلى داخل الغرفة وعانقني حتى ارتمى في سريري الذي

تناثرت على أطرافه مجموعة من كتبي القديمة التي كنت قد قلبت عدداً قليلاً من صفحاتها ليلة البارحة. أشعل سيجارة ورمقني بنظرة تختلط فيها الشفقة بالغضب لما وصلت إليه:

- ألا تريد أن تتخلص من هذه الحالة التي تنتابك؟ في الجامعة كانوا يقولون أن خالد صاحب قلب عربي وعقل أوروبي إشارة إلى محبتك للحياة رغم مصاعبها، فلماذا تجلد ذاتك وتسجنها بهذه القسوة؟

- لا شيء أفعله غير الصمت يا رداد.

نهض من مكانه وأزاح ستارة النافذة ثم قال وهو يحاول ابتكار ابتسامة على وجهه:

- تعال وانظر. لك عندي مفاجأة.

راح يصرخ بعد أن رآني متكاسلاً في مكاني. عندما اقتربت من النافذة همس بأذني:

- خالد. هذه السيارة التي تقف بباب البيت لك.

ترك النافذة متجهاً لحقيبة ركنها قرب الجدار ثم فتحها وأخرج منها حاسوباً، هاتفين نقالين، زجاجات عطر، سجائر، وكتب.

قال وأنا ما أزال قرب النافذة أراقبه دون أن أفهم شيئاً:

- هذه الأشياء يمكنها أن تخرجك من عزلتك يا خالد.

كانت كل تلك الأشياء مفاجأة لي، أثارت شكوكي واستغرابي. لقد كانت هدايا ثمينة لم يكن بمقدوري أن أردها، لذا، بقيت

صامتاً لدقائق وأنا أدرك أن رداد ليس ثرياً ليغدق عليّ كل تلك الأشياء، حينها همس لي:

- ذات يوم سأتقاضى ثمنها منك. لا تقلق.

قلت وأنا أدرك أن ما يتقاضاه رداد ينفد في منتصف الشهر لفرط لهوه مع النساء، وتفضيله الفنادق والمرافق ذات النجوم الخمس:

- لا أستطيع أن أقبل هذه الأشياء فأنا أعرف كيف تنفق نقودك.

حدق بوجهي بعينين جادتين:

- لا تستغرب يا صديقي، إنك لا تعلم عن حياتي شيئاً فقد غبتَ لزمن طويل، في غيابك تغير الحال.

بقينا لساعة نتجادل في أمر تلك الأشياء فقبلتها رغم عدم قناعتي بما سمعت. راح رداد يفتعل حركات بهلوانية ثم شرع يحكي لي عن المدن التي يتنقل بينها بسبب عمله الذي يتطلب مرافقته للطائرات، يسرد لي سيرة كل مدينة عبر النساء اللائي عرفهن هناك. في تلك الليلة زل لسانه بكلمة جعلتني أتساءل أكثر من ذي قبل (من كان وراء التهمة التي لا يد لي فيها).

وضع رداد الحاسوب المتنقل على الطاولة وأوصله بالكهرباء ثم ضغط على زر التشغيل فاشتعلت شاشته بعالم بيني وبينه عمري كله. زوده بوصلة قال لي أنها وصلة (إنترنت) تجعل الحاسوب منفتح على الشبكة العنكبوتية ثم راح يعمل على توفير بعض البرامج فيه كما فهمت فيما بعد.

لم أفعل شيئاً حينما غادر رداد بعد أن أنهى عمله على تلك

البرامج ثم أخذ لساعات يعلمني فيها كيفية استخدام الحاسوب، سوى أنني قمت بإغلاقه ونمت غير آبه به. بعد ذلك اليوم أخذ يزورني بانتظام وبقي يجسر الهوة بيني وبين الحاسوب إلى أن بت قادراً على استخدامه. حينما تأكد بعد كل ذلك الوقت من الدروس، اقترب مني وحدق بي قائلاً بصوت من أنهى مهمته:

- اسمعني يا خالد، لا تنسى أنك قبل الاعتقال كنت تكتب. أعرف جيداً ماذا تعني لك الكتابة. هنالك الكثير من المواقع للصحف، بإمكانك أن تكتب لها. وهنالك الـ(فيس بوك) بإمكانك أن تنشر فيه شيئاً من كتابتك، ولك عبره أن تتواصل بالناس. أنا متأكد أنك ستخرج من عزلتك.

في اليوم التالي والذي سافر به رداد صحوت باكراً، حملت فنجان قهوة ورحت أتمشى في البستان، حيث الأشجار التي بدت لي كمذاكرات آدمية تحتفظ بآثار زمن مضى وأصوات قديمة من فضاء القرية تجيء متقاطعة بأصوات من زمن موتي في المعتقل. كانت جدتي ما تزال تحوم حول صغار الماعز وهي تتقافز قرب باب الحظيرة. عندما عدت إلى غرفتي، أغلقت الباب وجلست إلى الطاولة وشغلتُ الحاسوب ثم ربطته بالإنترنت كما علمني رداد. قمت بجولة في عدد من الصحف التي طالعتني بأخبار لم يختلف مزاجها عما كنت أقرأه من أخبار من قبل وكأننا ندور في حلقة مفرغة يدخل إليها ملاكم يبقى يسدد الضربات لنا ثم يغادر. أقفلت نوافذ الصحف وفتحت نافذة لصفحتي في الفيس بوك.

عالم أزرق تعتليه صورة للوحة (سيلفادور دالي) (المخبول الجميل) كصورة رمزية لي وبجانبها اسمي. خانة الأصدقاء فارغة وكذلك خانة منشوراتي أيضاً.

(ما الذي في بالك؟) يسألني الفيس بوك. كأنني طفل على أهبة أن يقول كلمته الأولى وجدت يدي مترددة وهي تضع المؤشر في خانة الكتابة. كان على الفيس بوك أن يسألني (ما الذي ليس في البال). في البال حياة كغيمة أسطورية تخترقها ألف يد ويفجرها ألف صوت.

سهوت وأنا أراقب مؤشر الكتابة وهو ينبض كقلب مصاب بالخوف ثم كتبتُ:

(حتى الهواء قضبان، وفي قلبي طفل ما يزال يرى نفسه في المنام يركض على ظهر السحاب)

رحت كما علمني رداد أفتش عن بعض الأسماء. وجدت صديقاً كان رفيقاً لي في الحزب وهاجر إلى كوبا ولم يعد من ذلك العام، اسمه (عدي محمود). حينما عثرت على صفحته دهشت، دهشت لأني وجدته ما يزال حياً فقد انقطعت أخباره وجزم البعض أنه مات. ما إن طلبت صداقته حتى قُبل الرد سريعاً، فكتبت له عبر خانة الرسائل، لكن المفاجأة كانت أن من يرد علي هو ابنه:

- هذا حساب والدي ووالدي مات منذ سنوات وأنا عبر هذا الحساب أنشر ما كان يكتبه من مقالات. حدثني والدي عنك، لهذا قبلت بصداقتك.

أغلقت تلك النافذة الزرقاء ورحت ببكاء مر. مكثت لأيام لم أستخدم الحاسوب، لكني حينما عدت إليه، وجدت عدداً من الأسماء تطلب صداقتي في الفيس بوك فقبلتها. مضى شهور من علاقتي بذلك العالم الافتراضي، كنت عبرها أقرأ أخباراً ووجهات نظر للبعض في صفحاتهم وأقرأ مقتطفات من بعض الكتابات ورحت أنا بدوري أنشر بعضاً مما أحتفظ به من كتابات قديمة وما يخطر بالبال من عبارات سريعة، كنت عبرها أطير بعضاً من الشوك الذي كان يخدش دواخلي. شهور لم تجعلني أشعر بمحبتي لهذا العالم الذي يجسده أناس يجلسون وراء شاشات حواسيبهم ليل نهار. صار لي من يتابعني، ومن يقتبس كتاباتي وينشرها في صفحته رغم أني لم أكتب سوى ما هو مؤلم إلا أنك تشعر بمن يشاركك أساك حينما تجد كلمات تعبر عما في داخلك

في صباح أحد الأيام وحينما كنت أجلس إلى طاولتي، كان صوت جدتي يصلني من حوش البيت كنسمات متتالية، تردد أغنياتها الحزينة دونما توقف وهي تعلف الدجاجات والماعز وتتبع حركة الظل حول البيت فتغير فراشها تبعاً لحركته. ضغطت على زر الحاسوب ثم أطلقت العنان لموسيقى خفيفة يعزفها إسباني عبر روح غجرية على آلة الغيتار. فتحت صفحتي في "الفيس بوك"، ورحت أقرأ الرسائل التي تردني، وأرد عليها في هذا العالم الذي كنت أعتقد أن رداد دفعني إليه ليؤنس روحي المتعبة كقطعة حلوى انتهكت طزاجتها شموس تموز وهاجمها النمل، وليبدد شيئاً

من عزلة شوكية تتحول الجدران فيها إلى كائنات حية تزحف نحوي وتطبق على جسدي لأشعر بالاختناق. كنت في ذلك الحين أشرع أبواب صفحتي حتى لغير الأصدقاء الافتراضيين فيمكنهم رؤية وقراءة ما أكتب. ما أكتبه خليط من سرد وشعر سال من فم القلب في زمنين يتقاطعان. فيولد الهذيان من فم اللحظة.

جاءني طلب من امرأة لإضافتها كصديقة فقبلته حيث لم أكن أدقق بالأسماء كما ينبغي. يكفي أن أدرك عبر ذلك الرقم الذي يشير إلى عدد الصديقات، أو الأصدقاء المشتركين بيني وبين من يطلب صداقتي لأقبل أي طلب من ذلك النوع وذلك ما حدث بالفعل لأعلم فيما بعد بأنها تقرأ لي بشغف كل يوم وتحفظ عن ظهر قلب ما أكتب إلى أن جاءتني الرسالة الأولى منها:

(أنت رائع يا رجل)

لم أتوقف كثيراً عند رسائل مثل تلك فكمٌّ الرسائل الذي يسقط في بريدي كل يوم يجعلني أمر مرور الكرام متخذاً ردوداً دبلوماسية يمكنها أن تحافظ على تواصلي بقارئات وبقراء معجبين ومعجبات يربطني بهم البوح عبر الكلمات، لكني كتبت لتلك المرأة ردّاً عادياً اعتدت عليه:

(شكراً لمرورك اللطيف)

فرأيتها ترد في اللحظة نفسها:

(كأن الكلام الذي يرشح من أنامل قلبك ماء وقلبي أرض بور يقتلها العطش)

كمن كان يتأمل نجمة فاجأته وهي تتعربش يده، كتبت لها:
(كلماتك أنامل تلامس جبين القلب)

ليتني كنت أمتلك القدرة على استشراف ما يمكن أن يحدث لي في لحظة كانت شحنات ذلك العالم الإلكتروني تهيئني لمصير جديد، مصير فيه من المتعة ما يجعل الواحد منا يصاب بجنون عاطفي من شأنه أن يهشم كل شيء وهو يمضي بكل قواه نحو حب يأتي مصادفة في الغالب لأدرك فيما بعد أن أجمل لحظات الحب هي التي تأتي صادمة، مفاجئة، وغريبة. تأتيك وأنت لم تفكر ولو للحظة واحدة بشأنها كأن تكون في طريقك نحو موعد مع امرأة فتلتقي بامرأة أخرى ليهيئ لكما سرير اللغة عبر كلمة وحيدة برقاً أول فتلوذان بشجرة تطل على البحر وهناك يحدث لكما ما لم تتوقعاه فاللحظات الاستثنائية المفاجئة دوماً هي التي تصنع الحياة بمعزل عما نعمل من أجل الحصول عليه.

كانت الإشارة الإلكترونية تشير إلى أنها تكتب شيئاً فتمهلت قليلاً قبل أن أغادر وإذا بها تقول:

(منذ زمن بعيد اقرأ لك بصمت يتحول أحياناً إلى شوكة تنهر خاصرة البوح، فكتبت عبارة لك وحدك كي لا يقرأها الآخرون فبعض الكلمات تصير مرايا لما نهجس به)

بعد أن فرغت من قراءة الرسالة، أرسلتْ رابطاً إلكترونياً للكونشيرتو الخامس لموزارت وقد ذيّلتْ الإهداء بعبارة تقول:
(لك وحدك، غيمات موسيقى تمسح جبينك بالقبلات)

حينها جاءني صوت الموسيقى الذي يأسرني دوماً، تماماً كغبطتنا

بطلاء أبيض يمحو ما علق بالغرفة من سواد على جدرانها، صوت يفعل بي كما تفعل الريح بأجنحة الطائر حينما يفردها مزهواً في أعالي الهواء. إنها عوالم موزارت ترتقي بك إلى مصاف المجرّة. كتبت دون أن أعي أنني أفسح لي طريقاً بين حشائش يابسة في حقل سوف أرمي عقب سيجارتي فيه دون أن أنتبه حولي:

– الموسيقى تفعل بي ما يفعل الشعر تماماً. لقد عرفتِ أي الهدايا تفرح القلب. عباراتكِ بحق أماطت اللثام عن وجه الفرح فصار لوقتي طعم ارتطام شمس بوجه ليل طويل.

ما هي إلا لحظات حتى جاءني الرد، استثنائياً:

– تماما كحبات مطر تتقاطر من خصلات بنت تعانق المطر؛ أمست وقع كلماتك على قلبي ليلة أن قرأت بوحاً صادقاً في صفحتك في الفيس بوك. في تلك الليلة التي عرفتك فيها عبر حزنك الشفيف وأنت تكتب ذاتك، رحت أحلم بأن أكون غيمة يمكنها أن تمر في سمائك، كما مرت غيمتك في سمائي.

قالت ذلك ثم أنهت حديثنا الذي بدا خاطفاً رغم كل تلك الكلمات:

– يشارف الليل على أن يحتضن الصباح. لنا لقاء آخر.

– سعاد، هل هذا اسمك الحقيقي؟

– نعم، سعاد مروان.

– وهل حقاً تقيمين خارج الأردن؟

– نعم، تفصلني عنك بحار ماء وبحار رمل كثيرة، لكنني قريبة منك كالمسافة بين شفتين تنطقان حرف الباء في كلمة "أحبك".

- تصبحين على وطن.

كانت موسيقى "موزارت" ما تزال تعبث بشعر القلب وأنا أعيد قراءة ما كتبته تلك المرأة بعد أن غادرَت وبعد أن تمنيت لها وطناً رحت أتساءل عما دفعني لقول شيء حياله هذا الخفي المختلف عن البلاد؟ هل هو الإحساس بأننا كائنان بلا ذلك الوطن الذي نحلم به؟

بعد تلك الرسالة غابت سعاد شهوراً وبقيت كما أنا ذلك الكائن الذي يبحث عن لحظة تجعله يسترد ملامحه في حياة لا تمنح الملامح بسهولة كنت أتوقعها وأنا احلم بحزب يأخذ أفكاري على محمل الجد وبوطن عليه أن يمنحني الدفء مثلما أمنحه محبتي ولو أن الوطن لا يمكن اختصاره فقط بالساسة الذين يعبد نصفهم الدولار أكثر مما يعبدون الله.

الغريب أنني خلال تلك الشهور لم أنس رسالتها التي خلطت كل عناصري ثم يسرت لي درباً فيما بعد لكل المتناقضات التي يمكنها أن تقض مضجع أي رجل ذاهب للحب بكل قواه. متناقضات بحجم حب بدا لي كنيزك كوني شق سماء روحي ومنحها الضوء.

(أنت رائع يا رجل)

يا إلهي! ثلاث كلمات جعلت كل حياتي تتبدل كحجر على سفح جبل كانت بحاجة فقط لحركة بسيطة من إصبع لتتدحرج نحو واد سحيق وعبر تلك المسافة ستتهشم، لكنها بناء على مفهوم قانون المادة الشهير لا تفنى، إنما ستتحول إلى شيء، بل أشياء أخرى جديدة.

المعتقل - 1

كان الوقت قريباً من منتصف الليل، حينما كنت في طريق العودة من أمسية مع أصدقاء وصديقات حيث بقينا نشرب الخمر الرخيص ونثرثر بمواضيع كثيرة حتى أصابنا الملل فغادر كل منا إلى حيث يسكن. كنت في تلك الأيام أقيم وحدي قبل أن يغادرني "رداد" في غرفة مستأجرة تطل على قاع المدينة النابض بالحياة آنذاك. تناولت (ساندويشة) زعتر مع كوب من الشاي واستلقيت في سريري أراجع كتبي ومقررات التخرج من الجامعة فقد كنت في السنة الأخيرة آنذاك. ثمة قرعات قوية متتابعة على الباب تناهى صداها إلى مسامعي مشوباً بشيء غامض توقعت حدوثه. ما أن فتحت الباب حتى أطل علي ثلاثة رجال أمن يحملون على خاصراتهم مسدسات وأجهزة لاسلكية. أمسك بي أحدهم وألصقني بالجدار مانعاً أية حركة يمكنني أن أقوم بها ثم قال بصوت أجش:

- أنت خالد؟

قلت وصوتي لا يكاد يخرج من حنجرتي لقبضته المحكمة على رقبتي:

- نعم أنا خالد.

أخذ الرجلان الآخران يفتشان الغرفة وينثران محتوياتها. خَلَطا وحَطَّما كل محتوياتها وهما يبحثان عن شيء معين لم أكن أعرفه.

تفاجأت بأنهما وجدا صندوقاً أسفل السرير، عندما فتحاه رأيته قد ضم أوراقاً وخرائط وصور لشخصيات في الدولة وصوراً لمواقع حكومية وقطعتي سلاح وعتاد لم أرها من قبل. تحفظوا على كتب سياسية وأوراق كنت أدوّن بها وجهة نظري الشخصيّة الصريحة حول ما يحدث في البلاد إضافة إلى بيانات كانت تتطرق لبعض الأحداث وصحف ومجلات.

قيدوني بعد أن أخذوا تلك الأشياء، حشروني في الجزء الخلفي المظلم من العربة التي كانت تقف على باب المنزل وساروا بي مدة ربع ساعة تقريباً، كنت أحاول عبرها أن أرسم شكلاً للمكان الذي أعبره من خلال حركة السيارة. وجدت نفسي أخيراً في قبو مظلم ليس فيه إلا إناء متسخاً لأبول وأتغوط به. مرَّ أسبوع كامل، بعده قال لي الضابط وعلى وجهه علامات استهزاء وغضب:

- بدك تخرب البلد؟

تساءلت بفزع:

- أخرب البلد؟ هذا الشيء أبداً ما حصل!

- والأوراق والمخططات والصور والمتفجرات التي عثرنا عليها في غرفتك؟

- ليست لي أؤكد لك أنها ليست لي. الأوراق التي تخصني لا تشير إلا إلى أنني كنت أحلم بعالم بلا جوع، بلا دم وبلا مهانة، عالم لا اعتبار فيه إلا للإنسانية يا سيدي المحقق.

بكوعه الضخم كجذع شجرة يابسة، لطمني الضابط على فمي فسال الدم بعد أن تهشمت أسناني التي بقيت معلقة فقط بلحم اللثة وأصيبت شفتي بجرح غائر بقي ينز دماً حارّاً لساعات وأنا أمسحه بكمِّ قميصي ثم راح يصرخ بحنق:

- كل هذا المخطط الكامل لتخريب البلاد وبتحكي إنك بتحلم. والله لخليك تشوف كوابيس يا عرص، يا إبن العرص.

- الأشياء هاي مش إلي، والله مش إلي وما بدري عنها.

حينها خط بضع كلمات في ورقة أمامه ثم قال دون أن ينظر بوجهي:

- خذوه.

حملتني العربة بمعية عشرة أشخاص تقريباً نصفهم معتقلون سياسيون. كان التواصل في بداية الطريق ضعيفاً، فلم تكن الوجوه واضحة المعالم لظلمة العربة المحكمة الإغلاق بشادر سميك، لكن مضي الوقت خلق أحاديث خفيفة حول السنين التي ستمضي في المعتقل، تطورت إلى هتافات وضرب على جدران العربة التي ما إن توقفت بعد مسير متواصل امتد لساعات حتى هجمت علينا أشعة الشمس الصحراوية الحادة التي لم يستطع بؤبؤ العين لحظتها أن يتكيف معها بالسرعة المعهودة مع شكل الأشياء فبدا كل شيء ضبابياً. تعثر معظمنا بالسلم المعدني الذي كنا نهبطه ونحن لا نسمع سوى صرخات الجنود الآمرة بالنزول سريعاً فنسقط أرضاً دون قدرة على الرؤية الواضحة. كانت الهتافات وصرخات

الاحتجاج تأتي بوتيرة ترتفع وتهبط. ما هي إلا ثوان، حتى انهالت علينا ضربات الجنود بأسلاك معدنية بغلاف بلاستيكي فدب الصراخ والهلع في المكان، صراخ الجند وشتائمهم تختلط بصراخنا ونحن نتلقى تلك الضربات التي تفسخ الحلم ودماء تسيل حيث تطال الضربات في أجسادنا. ما تلقيناه هو درس أول في الخنوع والترويض. مع كل ضربة متقنة يتم تأديتها بمهارة، يصرخ الضارب بكلمة (خائن) أو (عميل)، ضربة للجسد وضربات للروح. دماء تسيل من اللحم ودماء تسيل من لحم الروح. استمر الضرب إلى أن بدأ المعتقلون يسقطون مغشياً عليهم واحداً تلو الآخر فجاء دور خرطوم الماء ليأخذنا من تلك الغيبوبة إلى مرحلة أخرى حيث يمكن عبر الصحو على إيقاع الآلام وهي تتقاطع بصفعات الماء أن تكتشف أنك لم تعد كائناً يمكنه أن يقف قبالة المرآة ويحلم.

من العنابر، كنت أسمع ضجيجاً وقرعاً على القضبان والأواني المعدنية وخبط الأقدام بالأرض. كان احتجاجاً على ما يحدث لنا. حالة استنفار أعلنت في محيط المعتقل تبعها مداهمات للعنابر استمرت لساعات حتى بدأ الهدوء يعم المكان فانسحب الجنود.

جلسنا القرفصاء في مجموعات أفقية وعامودية، ينادي جندي على أسمائنا واحداً واحداً ويوزعنا إلى مجموعات. عندما جاء دوري، اقتادني أحدهم مشفقاً علي وأنا أترنح بخطواتي وأتلمس مواضع الألم التي عمت جسدي فتمتم متألماً بصوت خفيض:

– يا عيال الحلال، وش ودكو بالسياسة اللي ما هي جايبة غير

هالذل اللي انتو شفتوه قبل شويه. بعدين، والله إنك زغير. بعدك بأول عمرك، يا شين مالك حيلة عليهم.

كنت أردد بصمت وأنا أضغط بإبهامي على جرح في ذراعي:

- يا ريتهم اعتقلوني علشان أفكاري السياسية، لكنهم أخذوني علشان شي والله ما أدري عنه وما إلي ذنب فيه.

أغلق الجندي ورائي باب العنبر الذي انضممت إليه وحدي حيث زُجّ الآخرون بعنابر أخرى مجاورة. ما أن عبرت للداخل حتى اكتشفت للوهلة الأولى أنني أصغر المعتقلين سناً وأنا أمسح المكان بنظرة سريعة دائخة. بقيت مدة أقف في وسط العنبر دون قدرة على الكلام.

جراح عديدة كانت تنبض ألماً في كل أنحاء جسدي. كان الدم ينز من تحت ملابسي الممزقة؛ لفرط ما هوت عليها تلك السياط المعدنية. جرح غائر كان ينز دماً غزيراً قرب جفن عيني اليمنى وكانت روحي في تلك اللحظة الأقسى في حياتي ترْشح نحيباً من هول ما حدث. اقترب مني رجل، راح يمنحني ابتسامة تلوح من ورائها ألف دمعة خفية كالسرّ نصف المفضوح. كان في أواسط الأربعين من العمر. وضع يده على كتفي، بينما كنت أواري رعشة تتلبسني كجنيّ مباغت. عانقني وقد أجهشت بالبكاء الذي فرّ من صدري عنوة وأنا أداريه كأنه فعل مشين. لاذ نزلاء العنبر بصمت مطبق بعد الاحتجاج الذي قاموا به مؤازرة لنا ونحن نرزح تحت ضربات الكوابل وسيل الشتائم التي استقبلنا

بها الجنود. سحابة سوداء من غمٍّ تلف المكان وتفرض سطوتها الواضحة. قال الشخص الذي وقف بقربي وعانقني كأنه صديق لي منذ زمن بعيد:

– اهدأ، اهدأ، الرجال لا يبكون. أنا سالم عبد الحميد، وأنت ما اسمك؟

– خالد.

دلني إلى سريري، ثم اقترح علي أن أجلس بعد أن أشعل لي سيجارة وأمر أحدهم:

– ساوي كاسة شاي يا ناجي.

صرخ سالم عبد الحميد وقد ظهر التوتر واضحاً في صوته:

– ما بكم؟ هل هذه أول مرة نواجه هكذا حالة، عليكم أن تقاوموا، الصمت استسلام.

ثم عاد ينادي آمراً:

– قرب عينه جرح بحاجة لضمادات حتى يتوقف النزف.

قام أحدهم بتضميد الجرح وكتمه بالقطن ثم بلاصق طبي. كان سالم عبد الحميد جالساً قربي وهو يبتسم ابتسامته التي تستهدف دواخلي المهشمة:

– لا عليك، هناك كثير من الوقت لتشفى من هذا الجرح. لا تستغرب من أننا نملك حقيبة إسعافات أولية متواضعة. إنها حصيلة ما يجلبه لنا أصدقاؤنا الأطباء وزملاؤنا من العاصمة بعد

محاولاتنا الاحتجاجية والإضراب عن الطعام. هنا أيضاً يمكننا أن نصنع الحياة حتى يفرج عنا.

بعد لحظات، بدأت الحركة تدب في المكان، صوت رجل يغني، صوت ضحكات حادة، صوت يقرأ شعراً ويحكي نكات سريعة. الصدمة الأولى التي تأتي عادة بفعل مواجهتنا لأحداث لم تكن نتخيلها من قبل، بقيت تهبط وترتفع في دواخلي كأنها مخطط لنبضات القلب. في الوقت الذي كان المعتقلون حولي يحاولون إقحامي بعالم جديد عليّ كي يخلصونني من عذابات كانت واضحة حتى في كلماتي المتلعثمة، وأنا أشاركهم أحاديث سريعة حول حال البلاد ومعيشة الناس فيها. سريعاً التقطت ذاكرتي صوراً شتى للنزلاء واحتفظت بتعريفات سريعة أدركتها عبر الحكايات التي رويت بشكل مقتضب.

ثمة حياة منظمة لمستها داخل العنبر إذ اكتشفت منذ الليلة الأولى أن المهام موزعة بالتساوي بين المعتقلين الذين بدوا لي منسجمين حتى في أفكارهم. بدأ سالم بتقطيع الخضار لطهيها، وهو يطلق نكاتاً أضفت على العنبر شيئاً من المرح بينما صوت (بابور الكاز) يعلو في المكان، صوت قلي البصل بالسمن ورائحتهما تبعث في النفس شيئاً من الألفة كريحٍ حميمية، ليس من السهل أن تولد سريعاً. كان سالم يحدثني بين الفينة والأخرى وهو يطهو:

– هذه الخضار نزرعها هنا، هذا التراب الصحراوي ليس عاقراً كما يشاع يا خالد. إنه يشبه البنت البكر الخصبة التي يمكنها أن

تلد عدداً من الأطفال.

ما هي إلا نصف ساعة، حتى جهز سالم سفرة تضمنت (قلاية البندورة) بالبصل، خضار مقلية وقرص عجة. حينما اجتمعنا حول الطعام، كانت الأحاديث متقطعة وغير متجانسة. عرفت فيما بعد أن حذراً ما من شخص جديد مثلي كان ضرورياً فبقي التوجس إلى أن تبينوا حقيقة أمري فيما بعد فوثقوا بي. بعد العشاء، دبَّ الارتخاء في الأبدان، خاصةً بعد موجة مداهماتٍ نفذها الجنود عقاباً للعنابر التي احتجت على ما حدث لنا من ترويع. بدت الأصوات مخدرة وهي تتناقل الحكايات الشعبية والحديث عن بعض الروايات العالمية وأخبار الأهل التي تأتي مقتضبة في العادة عبر الرسائل التي يهربها بعض الجنود المتعاطفين مع المعتقلين والتقارير المختصرة التي تأتي نتيجة الاستماع لمحطات الراديو التي تبث نشرات أخبار مفصّلة في أواخر الليل.

كنت مستمعاً لا أكثر فما كان بالإمكان أن أتلفظ بأكثر من كلمات قليلة تأتي على محمل المجاملة. ثمة رجل كان يقف في مواجهة لوحة كبيرة لامرأة جميلة على واجهة من واجهات العنبر. كان يتأملها كأنه يحفل بخيط سريّ من التواصل لا يدركه أحد سواه.

سرى الليل بوحشته الموجعة في جسد المكان قادماً من كل جهات المزاج الصحراوي. تراجعت أحاديث المعتقلين أمام سطوة النعاس الذي انتشر في الأبدان فاستسلموا له. الراديوهات القليلة

الممنوعة التي تهرّب بطرق شتى، تُقفل واحدة تلو الأخرى. صمت صحراوي ساد العنبر الذي ضم عدداً من أسرّة اصطفت بشكل متجاور كحصاد جثث بعد معركة ضارية وما تبقى من المكان سوى بضع سعلات تأتي من أماكن متفرقة بين الحين والآخر. سمحت النافذة الضيقة التي ترتفع في أعلى الجدار لهواء الصحراء البارد ليلاً أن يتدفق غزيراً يبدد شيئاً من حرارة الشمس التي بقيت في أثناء النهار تلفح الرمال الممتدة حول المعتقل بلا نهاية. أغاني الرعاة حملت على عاتقها رثم الحزن الشفيف. كانت تأتي متقطعة من بطن الليل الصحراوي، الذي هجعت به قطعان ماشية محاطة بذئاب تبقى تشحذ أنيابها إلى أن يحين وقت الانقضاض على الطريدة، بينما رعاتها يطردون قلق البال بالحداء وينهرون تلك الذئاب ببضع رصاصات من بنادقهم بين الحين والآخر وهي تأتي متقطعة عبر تلك المساحات الصحراوية المصابة بلوثة الوحشة.

بدا "عبدالغفار" قلقاً وهو يتقلب في نومه كأن فراشه حقل شوك. عبدالغفار الذي ما إن رأيته يقف أمام صورة امرأة رسمها على جدار العنبر بعناية فائقة حتى شعرت بمقدار تشبثه بحياة تقاوم مخالب زمن يمضي بين جدران حتى الهواء فيها له نكهة الاعتقال ولا يتوانى عن تذكيرك بأن حتى حواسك معتقلة. فالمعتقل ليس تلك القضبان التي عادة ما تكون مطلية بلون يثير فيك إحساساً غريباً يشبه الخوف ولا الجدران التي تبدو مهمتها منحصرة بحجب بصرك فلا تتركه يرتفع عالياً لتحلم بالمدى الشاسع ولا الأبواب

التي عندما توصد تئن أنيناً جنائزياً بارداً كالصقيع فتتيقن أن نصيبك من الأوكسجين قد انتهى، بل هو ذلك الصديد الذي يسحن جبين روحك بعد جرح غير قابل لكل محاولات المضادات الحيوية أن يشفى.

* * *

كان عليّ، عندما وطئت قدماي أرض العنبر أن أتحدث لمن أصبحت فيما بعد شريكاً لهم لعشرين عاماً كوني قد سرقتُ من زمن حافل بالأحداث، بعيداً عن زمن المعتقل الذي يشبه عضواً في جسد لا تصل إليه الدماء، لكن الذي حدث أن "سالم عبد الحميد" تكفل بمهمة تعريفي بنزلاء كان لكل واحد منهم حكاية تعب تلوّح في وجوههم كما تلوح الثآليل في ظاهر اليد. أولئك النزلاء الذين تفاوتت أعمارهم واختلفت انتماءاتهم السياسية والجغرافيّة، لكن أكثر الحكايات التي علقت تفاصيلها بذهني، هي حكاية عبدالغفار وشخصيته التي وجدتها استثنائية، وبقدر ما فيها من غرائبية، فيها من ولع بحياة كان يعتمرها كقبعة تقي رأسه من شموس المعتقل الحارة فقد أمضى قبل أن يعتقل زمناً كان فيه حاضراً عبر أعماله الفنية وقدرته الفائقة على التقاط التفاصيل اليومية التي تهم الناس. عاش قصة حب مع امرأة اسمها سماح، تعمل محررة في إحدى صحف العاصمة، قصة حب عرفها أهل الحي الذي كان يقطنه عبدالغفار وحفظوها عن ظهر قلب. تماماً مثلما حفظوا قصة اعتقاله، إذ كان عبدالغفار عائداً في ليلة

معتمة وباردة من اجتماع سري في بيت أحد زملائه في الحزب وكان يحمل ملفاً يحتوي على أسماء كل أعضاء الحزب الذي كان محظوراً آنذاك.

عندما خرج من أحد الأزقة ليعبر الشارع الرئيسي، تفاجأ بعربة كادت أن تدهسه فراح يكيل لسائقها السباب دون أن يدري أنها عربة أمن. عندما هبط من العربة رجلان ورأى عبدالغفار أجهزة لاسلكية ومسدسات لاحت من خاصراتهم، راح يعتذر بشدة وهو يدرك أن مصير مئات في يديه في لحظة سوف تكون الأخطر في حياته. أخذوا منه الملف، وفتشوه ثم قرأوا أول صفحة فيه على ضوء العربة فقبضوا عليه وهو ينادي بأعلى صوته على سماح التي كانت تقف قرب النافذة المطلة على الشارع: (كل الأوراق معي، كل الأوراق معي يا سماح).

في تلك الليلة مررت سماح خبراً لكل من له اسم في الملف، أن يغيب عن الأنظار، ويتخفى لأن حملة واسعة من التفتيش سوف تطال البلاد كلها، وبالفعل، هذا ما حدث فعجَّ المعتقل الصحراوي بالعشرات من رفاق عبدالغفار وتشرد الكثير منهم داخل البلاد إلى القرى البعيدة عن العاصمة وإلى خارج البلاد.

* * *

تعربش صوت ضربات أحذية حراس المعتقل وجه الجدار متجاوزة النافذة التي زودت بقضبان لم تصمد طويلاً أمام قسوة شموس الصحراء فبدت صدئة رغم ضخامتها. كان سريري في المعتقل بما

عليه من بطانيات بالية كأنه سرير من الجمر فأخذت أتقلب يميناً وشمالاً بفعل وخزات حادة كانت تنهش شيئاً في داخلي وتطرد النوم من عينيّ. غط المعتقلون في نوم عميق فجاء شخير بعضهم وهو يمنح اللحظة شيئاً من مزاج الأرق الذي اعتراني في أول ليلة لي في معتقل صحراوي ملقى في وسط رمال صحراوية تصير في الصيف جمراً ملتهباً وفي الشتاء قطعاً من جليد. ثمة سؤال كان يطرق باب دماغي كما تطرق ريحٌ باباً مواربآً، لماذا علي أن أمضي عمراً في مكان ليس له مهمة سوى خنق الفكرة؟ أي فكرة تأتي كرؤية للحياة وأنا الذي ولدتني أمي وهي ترعى الشياه في فضاء لا يحده شيء سوى الريح والشمس! تناهى لمسامعي عواء ذئب أتى عبر امتداد الليل على جسد الرمال الغافية في زمن صحراوي موحش كأنه يعود بي إلى زمن يسبق الخلق، حيث قسوة الفراغ.

أغمضتُ عينيَّ أتحرى جهة الصوت الذي بدأ على الرغم من وحشته يغوص عبر أوردتي ميمماً جهة القلب ويمنحه إحساساً غريباً يشبه جرحاً يستلذ بحبات ملح تسقط فيه محدثة تلك اللسعة التي عادة ما تمنح ألماً نافراً يستجلب الصحو والأرق، لكن عواء الذئب إلى جانب الاحساس بالوحشة ولذعة الألم في عوائه الذي يجيء كخيط دخان عبر أفق خلا من الريح، كان يشيع في القلب شعوراً بشيء من الطمأنينة. لم تكن طمأنينة اعتيادية، بل إحساس بأن هناك من يشبهك في حزنك أو يشاركك فيه.

كان الصوت يأتي من جهة الغرب وكنت قادراً في تلك اللحظة على الرغم من عدم معرفتي بالمكان الذي أتيت إليه في عربة عسكرية معتمة أن أتأكد أن تلك الجهة تشهد الآن ذئباً يقف على تلة من تلك التلال التي تحفل بها الصحراء ويرفع رأسه عالياً ويعوي، بينما صوته يركض عبر ذلك الليل الذي يدهن كل شيء عبر سطوته المتطرفة.

الذئاب كائنات العراء الموحش في ليالي الصحارى المترعة بالبرد وفي ظهيراتها الموسومة بالهاجرات الملتهبة، كائنات تعيش وتتحرك عبر قطعان ما انفكت تشرب ماء المسافات وهي تتنقل من مكان إلى آخر، تتبنى رؤيتها الصحراوية التي بقدر ما فيها من البطش المتطرف، فيها من الأنفة التي يتوجها وهج السموّ وهي تعيش نسق حياتها والقطعان في حالة من الطاعة التي تتمثل بذئاب مأمورة بالأقوى الذي يقودها حيث يشاء ويفرض شروطه وحدود مكانه.

بين الذئاب وجع صارخ، والبقاء بين صاحبة العواء الأزلي للقوة التي تحسم كل شيء. تتصارع إناث الذئاب في معركة ضارية تسيل فيها الدماء وتتناثر الأشلاء، صراع لأجل زواج أبدي بالذئب الأقوى قائد القطيع، صراع وحشي يتكلل بحظوة الأنثى عند قائد القطيع، بينما الأخريات وصيفات المحظية وخادماتها.

لكن ذلك الذئب بدا وحيداً وقد لاح لي أنه خرج على قطيعه الذي يعوم بعيداً في بحر الليل الصحراوي يتربص بطرائده عبر بحر المسافات الليلية، عواؤه يشج بطن الليل، لا لأن عواء الذئاب

إعلان عن استعدادها للدفاع عن حدودها ضد القطعان الأخرى المجاورة، بل جاء عواؤه وجعاً يمنحه لليل فسيح كوجعه. بقيت في ليلتي تلك مغمضاً عينيّ وعواء الذئب يأتي سارداً سيرة وحدته وخروجه على قطيع ارتهن لمن طفت قوته على سطح الزمن الصحراوي حتى غفوت وفي أذني جوحه الذي مثلما كان يحز نياط القلب، منحه شيئاً من طمأنينة غريبة.

رسالة - 1

سعاد، إن الذي يحدث لي يشبه عاصفة هوجاء تعصف ببيدر قشٍّ فتحيله إلى فوضى عارمة. ما تبقي لي شيئاً سوى البوح عبر الكتابة الذي لا أملك غيره أمام كل هذا الغياب المفجع. الكتابة التي عرَّفتني بك فعبر سلطة كلماتها رأيت الخلاص من زمن معتقل يخفق في داخلي كما يخفق جنين غير شرعي في بطن فتاة تداري حملها عن أعين المارة الذين تستهويهم هكذا حوادث. ربما تستغربين أني لم أخبرك من قبل عن سنين عمري التي ضاعت في المعتقل. كنت أود أن أبدأ معك وبك حياة جديدة عبر ذلك النهم الشديد للحياة، كنت أتحايل على الذاكرة وأمارس حيالها حالة من التضليل ثم قتل الحزن بفرحة من مسدس الأمل.

منذ قذفتني العربة العسكرية في المدينة ثم قذفتني الحافلة هنا حيث عزلتي، أخذت جدران غرفتي تزحف نحوي كأنها كائنات غامضة تتحالف مع سقف استحال هو الآخر إلى كائن ربّته القسوة كما لا يمكنني أن أتخيل. كل شيء يزحف نحوي، الأشجار التي وقفت في حوش الدار، قن الدجاج، الأغنام، المارة في الشارع الذي يفصل القرية نصفين كما يفصل سيف جسداً طريّا. كل شيء يزحف نحوي؛ محتويات الذاكرة التي تأثثت بزمن حلمت فيه بحزب يمكنه أن ينجز لي الحياة كيفما حلمت، كركرات الأصدقاء على البار الذي كنا نثرثر فيه، كلامنا عن الحب، عن الحرب

وعن البلاد. الزمن يزحف نحوي، زمن الأمنيات، زمن المعتقل الذي يتغلغل في شراييني بشكل أفقي كما لو أنه شفرة حادة. كل شيء يزحف باتجاهي، وأنا أقبع متسمراً أمام لحظتي التي صارت سجني الثاني. كل شيء، يزحف نحوي ويطلق صراخه مرة واحدة كصوت الصوْر الذي سيُنفخ به فيهدم الكائنات والأشياء ليعلن يوم القيامة.

الأمر ليس صعباً كي تصبري على حديثي هذا المطول. تخيلي أنني أجلس أمامك الآن، تمنحيني الدفء في ليلة شتاء باردة أمام موقدة تشهد لغة الخشب المحترق وأنت تعطيني الفرصة بأن أقول كل شيء مرة واحدة. بعد خروجي من المعتقل الذي وصم روحي بعذاب يجيء كالمغص الحاد، رأيت الحياة بشكل غير الذي كنت أراه قبل الاعتقال، كل شيء تبدل وبقيت لسنين أحمل معي سجني فأصابتني عزلة من طراز مختلف تماماً فيه من الألم أكثر ما فيه من الأمل. وعندما عرفتك، عرفت معنى أن تحب فكرة العيش من جديد فالحب ليس محطة قطار يتحدث فيها رجل وامرأة ثم يفترقان كأن شيئاً لم يحدث. إنه القطار بعينه، القطار الذي مهما مر بمحطات لا يتبدل، يبقى هو ذاته الذي يقاوم قسوة المسافات فلماذا تسلبيني الآن تلك الفكرة فجأة وتمنحيني صورة إضافية للسجن ثم تغيبين؟

لماذا أودت بي تهمة لم اقترفها لمعتقل صار الحلم بالتخلص من

براثنه الجاثمة في صدري يوازي الحلم ببلاد بلا فاسدين، بلا خونة، بلا جوع، بلا قهر، بلا حرمان وبلا خوف؟ أرأيت كيف يتنازعني سؤالان حيال حياة عليّ أن أعيشها؟ لكن ليس بمرها كما درج القول. إنه الخسران الذي ما هو إلا سجن من نوع آخر، إذ تغدو تلك المقولات التي ترى في الفشل بداية للنجاح غير قابلة للتقاطع مع هكذا حالة أحدثت بي خراباً لست قادراً على مجابهته لأنني أزعم أن هناك طاقة فاقدة لا يمكن استردادها وأؤمن أيضاً أن شكل الطاقات التي يمكنني اقتناصها من جديد لا يمكن أن تفيدني بما أريد.

سعاد - 2

أحببتها سريعاً، ربما لأنني كنت آيلاً للسقوط وجاءت لتسندني. كانت أول امرأة ارتعش القلب بفعل كلماتها وهي تجيء لي عبر رسائل إلكترونية، أصبحت حقيقة وهمية في زمن واقعي وهمي. الرسائل الخاصة التي أدمنت قراءتها يوماً بعد يوم وأنا أرى أن أغصاناً خضراء تتمدد في حقل جسدي من جديد محدثة تلك الطقطقة وذلك الحفيف الذي يُحدثه تلاشي الجفاف. امرأةٌ راحت تبدد بي شبح معتقل ما قادني إليه حلمي ببلاد تعدل بين الوزير والخفير، بل يد لفقت لي تهمة سياسية اختطفتني من زمن غض لم أكن أحلم أن يعود بكل ذلك الوهج الذي أتمناه إلا بعد أن عرفتها.

بسبب رسالتها التي بدت لي كقمر ولد فجأة في ليلة مظلمة، صار الحديث بيني وبينها عادة يومية منحتني بهجة لم أحلم بها وأنا أرزح تحت نير كوابيس ما أن أطبق جفنيّ حتى تهاجمني ككلاب ضالة عثرت بجثة ملقاة في العراء. اعترفت لها بحبي العميق واعترفت بحبها لي فقد منحتني البهجة حتى أن جدتي ما توقفت عن الدعاء لرداد. لقد اعتقدت أن الحاسوب بحد ذاته هو السبب بما يحدث لي، إذ رأيتها ذات مرة تبخّره وتتمتم بأدعيتها الخاصة التي تشبه التعاويذ أملاً منها أن أتقدم في ذلك الحال التي عادت لي عبره بعض عاداتي القديمة من الاحتفاء بالحياة فالنساء

مهما تقدمن في العمر يبقين محتفظات بذلك المجس الخفي الذي يمكنه أن يتتبع إيقاع الحب وتوهجاته.

هل كان عليّ أن أفكر قليلاً بما يمكن أن يحدث لي؟ هل كان علي أن أصمت عن تلك النداءات الخفية التي كانت تسحبني نحوها من ياقة روحي؟ وأنا أعي أن الصمت فن عظيم من فنون الكلام كما قال "وليم هينريت". لكن هذا لم يحدث، لم يحدث كما يلوح الآن في شرفة التمني فالحب من وراء المسافات البعيدة يشبه جسداً عارياً ينتظر الشمس تحت وابل من البرّد والبرَد.

فنحن نفتقد القدرة التي يمكن أن تحدد مصائرنا. القدرة لا تخص سوى الآلهة، لهذا هنالك أبوابٌ بعينها في حياتنا نلجها دون أن نفكر بما يمكن أن يخبئه لنا القدر وراءها ولهذا السبب بعينه هي هنا الآن، هنا في حياتي. إذ أصبحتْ شمساً يومية تشرق في سماء روحي وتغيب في سماء الذاكرة، هناك في حضن أمنيات يستلقين على سرير من سهو الانتظار.

ذات صباح لذت بصفحتها في الفيس بوك، وأنا ما أزال في سريري وهي تراوحني ما بين بقايا سطوة النعاس وما بين نداءات الصحو. في صفحتها لم تكن هناك أي صورة لها. كانت تضع صورة رمزية لامرأة تجلس عند شاطئ وتتأمل البحر، صورة كلما رأيتها رحت انتظر أن تلتفت لي عبر شاشة الحاسوب فقد استشاطت بي حاجة ملحة لصورة تجعلني أختبر المخيلة التي رسمت لها عدداً من الصور عبر أبعاد مختلفة. الصورة التي عادة ما ترسمها المخيلة وهي تستخدم فرشاة الكلمات وألواناً جديدة عبر

الساعات التي كانت تمضي مسرعة، بينما ذلك العالم الافتراضي يمنحنا فرصة للقاءات متكررة في سرير اللغة.

كانت الإشارة الخضراء في خانة الدردشة قبالة اسمها تشير إلى أنها متواجدة فكتبت لها:

- تعطش روحي ملامحك.أريد صورة لك.

- ملامحي فيك منذ زمن، فتش الذاكرة عنها ستجدها.

- أخاف أن تخفق الذاكرة بما أريد.

- ذاكرة العاشق الحقيقي لا تعرف الإخفاق.

- هل تؤمنين بعشقٍ فِراشُهُ الأثير؟

- ألا ترى أن الروح أبقى؟

- أؤمن بذلك فأنا أحببتك قبل أن التقيكِ.

- وأنا عشقتك منذ عمر.

- البارحة غفوت وبين ذراعي الوسادة. مخيلتي تعاطفت معي بحيث استحضرت لي عطرك وأنفاسك وخصلات شعرك وآهة الحضن.

-أغبطها تلك الوسادة التي لها أن تفيق منتشية وقد أمضت ليلتها في ذلك النعيم.

- أجمل الصباحات هو ذلك الصباح الذي يفتح كل منا عينيه ليتماهى وجهانا بكلمة أحبك.

-المهم عندي أن تكون في الصباح صباحاً لي وحدي.

* * *

بعد أيام جاءتني صورتها فوجدت مخيلتي قد نجحت نجاحاً غريباً في رسم ملامحها، صورة حلمت عبرها في أن يكون وجهها بذلك الدفء الذي أشاع بي دفقات حانية كانت تركب صهوة الريح وتيمم شطر سريرها الذي شهد فيما بعد ليال استمرت حتى الصباح ونحن نصل الكلام بالكلام. نجاح باهر في موهبة الرسم عبر ذلك المزاج الذي عادة ما تخلقه بعض الكلمات وبعض العبارات المتوارية في حديث طويل. كنت أغالب الفكرة التي لعجت فجأة وهي تشير إلى أننا التقينا ذات يوم في مكان ما، مكان ربما يكون قصياً عن هذا العالم. نجحت ذاكرتي إذن برسم صورة بفعل كلمات كانت تنزلق على شاشات حواسيبنا المتنقلة وهي تصير كقلادة على عنق جميل. ثمة كلمات كانت تفضح عطشي لرؤيا ملامح وجهها قبالتي، بينما أناملي تتفرس بجغرافيته الذي كان طقسها على الدوام مشوباً بالدفء. عندما أطلت عليّ الصورة عبر شاشة الحاسوب كشمس تطل من وراء صفحة البحر في صباح هادئ، كتبت لها:

– ثمة همسة أحس بها تتهادى من فضاء الصورة، همسة آلفها، ربما سمعتها ذات يوم وأنا أعبر شارعاً أو أغلق نافذة أمام شمس الظهيرة، ربما انحدرت لمسامع القلب ذات منام أو ذات مشي في عصاري القرى.

التفاتتها في الصورة كانت تشي بفرس، تحاور موجة تروح إلى منتصف البحر ثم تعود مفترشة الرمال. تأملتها لمرات ثم كتبت:

– هل كتبتك في تلك الليلة كما كنت تحلمين؟

– ما قرأته من نص منشور لك في الفيس بوك جعلني أقول أن ما تكتبه يجسد أحلام أي قلب متعطش للحياة، إلى جانب قوة السرد فيها وتداخل البوح والوصف في نسيج سردي فسيفسائي شديد الغرابة. لقد كنت يا خالد مثل نحات فطري معاصر بدأت مغامرتُه الفنية حين وقعت عيناه أول مرة على منحوتات فانبهر بجمالها وهرع إلى النهر ليشكّل من طميه تمثالاً بعفوية وتلقائية.

– أكملي أرجوك.

– من الممكن أن تقول في نفسك ماذا تريد هذه المرأة. خفت كثيراً قبل أن أبادر بالحديث إليك، خفت فعلا، صدقني كنت أشعر أنني أريد أن أتحدث معك. لا أدري، كان عندي رغبة عالية في اقتحام كل شيء يخصك. أريد أن أعرفك أكثر ولكن أعذرني، فعلا خفت من تفكيرك. آه لو تعرف ما الذي حل بي. منذ أول مرة قرأت لك، شعرت أنني أبحث عن هذا الرجل منذ زمن بعيد. كل الذي أشعر به الآن أنني أريد أن أتحدث إليك، أريد أن أشعر بالأمان.

– ليس هنالك تفسيرٌ واضحٌ حول سبب حب رجل لامرأة وامرأة لرجل. ليست الأرواح هي التي تلتقي فقط، ثمة مسارات أثيرية تمنح كيمياء الجسد أيضاً حق اللقاء.

– سأقول لك شيئاً، ما الذي يحدث حينما يفاجئ المطر راعي الأغنام في أرض ممحلة؟

- يبتل جسده بالماء ويصاب قلبه برعشة تشبه رعشة الكهرباء وهو يودع العطش.

- هذا ما حدث لي منذ قرأت لك للمرة الأولى. شعرت أن مطراً فاجأ رأسي المكشوف وأن رياحاً أصابتني بالجنون. لقد بللني مطر كلماتك وسرت رعشة كهربائية ببدني. لقد امتدت يدك إلى عالمي الداخلي وخلطت كل شيء فانتعشت، لهذا رحت سعياً إليك أقفز فوق المسافات كحلمنا ونحن نتقافز على الغيوم.

- وها نحن منذ الكلمات الأولى نوغل فيما لم نكن نتوقع أن نراه. هذه المسافات بيني وبينك تصير دون قيمة ونحن نصنع لحظتنا الخاصة. سأقول لك شيئاً، هذا العالم الذي نراه يسير وفق قوانين وضوابط يطلقون عليها صفة الشرعية ما هو إلا وجه غير حقيقي لما يمكنه أن يحدث، والذي يحدث هو حالة يصير الواحد منا عبرها رهن لحظة يختطفه الفرح فيها من ياقة قلبه. الأنهار تلك التي نراها عبر لغاتها الجغرافية توحي لنا بأنها لا تلتقي دوماً فيتساءل البعض هل يلتقي الدانوب مثلاً بنهر الأردن رغم شساعة المسافات سيجيب عالم الجغرافيا بأنهما لا يلتقيان، لكن سيجيب عاشق، شاعر ربما بأن هناك علاقة خفية خارج لغة الجغرافيا تشي بأن علاقة ما، علاقة خفية هي الشرعية بحد ذاته أو نبضها الفرح. تلتقي الأنهار من تحت التراب خفية. ويلتقي العاشقان من وراء قامة الوقت خفية. لحظات مسروقة عندما

نضعها في ميزان الوقت ترجح كفتها فنبتسم ونحن نمارس طقوس حياتنا اليومية الاعتيادية فرحين بذلك الماء السري الذي يروي تراب القلب.

نحن يا سعاد أبناء تلك اللحظات المسروقة بعينها. تركنا كل شيء وراءنا لأجل زمن قصير يصير هو الزمن الحقيقي بعينه.

- أخطر ما حدث لي يا خالد أنكَ اخترقت عالمي الخاص بعد وهج الليالي التي أمضيناها في سرير اللغة نمارس الحب عبر أثير كان لنا وحدنا. في سرير اللغة رفعتُ ستائر الممنوع عن رغباتي الجامحة، تعريت قبالتك بكل فخامة جسدي وبذخه على الرغم من الاغتصابات الليلية من رجل باسم الزواج كان يقتلني، جسدي الذي رغم كل ذلك العناء إلا أنه كان يحتضن في روحه أنثى ما زالت عذراء. لكل منا عالمه الخاص يا خالد، ذلك الذي لا يراه ولا يحس به أحد سوى صاحبه. أنا الآن عارية أمامَكَ فدثرني كي لا أتجمّد واحتفظ بي كي لا أتوه.

- أجمل ما حدث لي يا سعاد أنكِ بنيت عالمي الخاص فسترتِ عريي. لسنا عاريين الآن يا حبيبتي. نحن اكتمال النّقص. انظري، هناك شجر على جبينك. انظري، هناك غمام على يدي.

- إذن كن كما أريدك كي يحسدني كل من رآني على لغة الاخضرار وهي تلعج في جبيني كنجم في سماء صباحية.

–سأكون ذلك الذي تشيعه البروق، ذلك المطر الذي يبتكر الأغنيات إلى أن يذوب في البياض. متى تأتين إلى عمّان؟

– قريباً سآتي لأبدد قامة المسافات فتكتشف أنك تلمس حقيقة وليس مجرد امرأة وهماً في واقع افتراضي. حينها سأفرد ذراعي لتغفو عليه فلا ذراع بعدكَ. ما إن تطأ قدمي أرض المطار حتى أشتري شريحة إلكترونية جديدة ثم أهاتفك لأخبركَ أني هنا لأجلك. هل تعرف ما معنى أن أسمع صوتك وأنا أحتفي بالدقائق الأولى لي في عَمان؟ صوتك يدوخني، تماماً كتأثير نبيذ معتق. صوت لمجرد سماعه منذ حروف الكلام الأول، يخلق بي حالة اشتهاء لم أحس بها على مدار عشرين عاماً من زواجي برجل لا أحبه ولا أكرهه. كنتُ أعتقد أنني مجرد امرأة محقت عمرها في لهاث وراء رقم في حساب بنكي. امرأة نسيت أن لها أنوثة لا تنتهي حتى وجسدها يغور في التراب ميمماً شطر الموت، امرأة لم تحفل بالرعشة الأنثوية ولو مرة واحدة على مدار عشرين عاماً من زواج ما هو إلا صفقة تمت بهدوء بيني وبين رجل كان البوابة لي على عالم مثلما يمنحك المال، يأخذ منك إنسانيتك، عالم كان هروباً من واقع لا يقدم لك حتى فكرة العيش ببساطة حتى تقاوم وقع الخسارات. امرأة رغم تأنقها المفرط في كل التفاصيل، وعبارات الإعجاب التي تطرق باب أذن من أذنيها وتخرج من الأخرى دون أن تترك أثراً في القلب، إلا أنني مقابل كلمة واحدة منك بت أتلمس شجرة حواء تنمو داخلي بسرعة مذهلة كالجسد الذي ينتعش بسبب

حقنة يسري سائلها في الوريد ومع سريانها تجيء الحياة. في البدء كانت كلماتك عبر حواراتنا المكتوبة، ومن ثم أتى صوتكَ الذي ما إن أسمعه حتى أصاب بالدوخان الذي يقودني إلى تلك الرغبة الجامحة للحب على سرير وثير. في ذلك اليوم الذي تجرأت فيه وقرعت باب هاتفك فسمعت صوتك وأنت تحاول أن تعرف من المتصل بك، كنت قد تيقنتُ أن لا مسافة بينك وبين عالم الكتابة، وهذه نادرة قلما تحدث يا خالد. تحدث فقط لمن يكتبون بقلم الحلم وحبرهم الصدق فيبدعون كتابة صادقة مهما جنحت للخيال الذي هو اجتراح لشكل آخر أكثر صدقاً للحياة. بعد أن أقفلت سماعة الهاتف وتلاشى صوتك؛ رحت أتلوى بسبب ذلك الإحساس الذي يشبه تأثير موسيقى مليئة بالدهشة، إحساس داهم قلبي ومن ثم انتشر في مسام جسدي كله. وقفت أمام مرآتي وتعريت فرأيتني بجسد آخر غير الذي بقي رهينة للغة الجليد سنين طويلة، امرأة كأنها ترى أنوثتها للمرة الأولى فرحت أصرخ من أعماقي. حينما أصل عَمان سأهاتفك يا خالد لأقول لك أنا هنا، تعال نترجم كل كلمات الانتظار إلى لغة جديدة لا يعرفها سوانا، لغة قلمها أنت وورقتها أنا. أنا ورقة بيضاء بكر لم تحفل بالحبر، انتظرتك طوال كل تلك السنين وأنت قلم يجيد أسرار الكتابة التي حتماً ستعيد لي ثقتي بنفس أهدرَتها سنين أكلت لحم روحي وشربت عليها نخب الخسارة. عليك أن تصدق يا حبيبي أنني وأنا أوغل في السنوات الأولى من

عمر الأربعين؛ أنني ما زلت امرأة عذراء لم يفض بكارتها رجل. العذرية يا خالد ليست محصورة بذلك الغشاء الذي لا يتعدى مساحة ضئيلة تقاس بالسنتيمتر. يمكن للمرأة أن تفضها بنفسها لو أرادت. العذرية يا حبيبي هي تلك الحالة في الروح والقلب والتي لا يمكن حصرها بمساحة معينة. سأقول لك شيئاً يا خالد، لم تكن الرجل الأول في حياتي. أنت الرجل الثالث، لكنك الوحيد الذي منحني ذاتي التي أستعدتها كما لو لم تغادرني قط. أنا امرأة عذراء على يديكَ هشمت كل تلك الحواجز والعقبات بين حوائي وآدمك. عندما نلتقي سنحظى بلغة سوف نكتبها كما ينبغي لعاشقين ينحتان الحياة في أواسط عمريهما، دون مزيد من الخسارات والوجع، لغة سوف نحيكها من جديد في كل الأمكنة التي سنبقى نتذكرنا في الأيام القادمة إذ أننا كنا نبلور قامة الوقت كيفما نريد ما دمنا شيئاً واحداً. أتفهم يا حبيبي ما معنى أن نكون شيئاً واحداً؟ لن أنسى أنني قلت لكَ منذ البدء "أنت رائع يا رجل" حدث ذلك منذ أن قرأت لك للمرة الأولى وجاش بي ذلك الإحساس الغريب بأنني أعرفك منذ أمد بعيد.

المعتقل - 2

ما أن مضى علي زمن في المعتقل حتى بت أحس أن طيف امرأة ينقصني ليجعل الوقت ليّنا بخلاف القسوة التي تعنْوِن الوقت آنذاك. كنت أحس بفجيعة النقصان، خصوصاً وأنا أرى عبدالغفار يشرب الشاي كل صباح مقابل صورة "سماح" التي رسمها على مهل عبر سنين تبددت بين جدران المعتقل. إنها صورة حبيبته التي كان حضورها في باله يسرّع من زمن المعتقل ويجعل منه حياة قابلة للهضم. يبقى يتحدث إليها ويلقي عليها التحيات، وعندما يعصف به الألم الذي عادة ما يجيء كضربات سكين متهرئ، يلتصق بالجدار ويبكي بحرقة حتى أننا اعتدنا أن نسلم عليها ونتحدث إليها أيضاً. وأنا أتلمس خطواتي الأولى في فهم عوالم المعتقل، رأيته متفائلاً وهو يحمل بيده فنجان القهوة وعلبة سجائره والراديو الصغير الذي يبث أغنيات فيروز. سحب كرسياً ومنضدة صغيرة قبالة صورة لامرأة رسمت بألوان الطبشور تهبط على وجهها بضع خصلات من شعرها الطويل ممتدة إلى عينين جميلتين على الرغم من تعرجات سطح الجدار الخشن وهي تجلس على كرسي من الخشب وأمامها منضدة وفنجان قهوة قرب منفضة يصعد منها خيط دخان السيجارة، بينما تتشابك يداها لتعلن بحركة جميلة عن جسد أنثوي جميل.

قال "عبدالغفار" وهو يشعل سيجارته بيد مرتعشة:

- صباح الخير حبيبتي. هل أشعل لك سيجارة؟
صمت قليلاً ثم عاود حديثه:
- أها، نسيت أنك صحوت قبلي وصنعت لنفسك فنجان قهوة وأشعلت سيجارة.
رمق الصورة بنظرة عميقة حانية وعاود حديثة:
- ليس هناك أخبار جديدة. البارحة نمت وأنا أقرأ، أو بالأحرى أعيد قراءة رواية البؤساء التي كنت قد قرأتها وأنا ما زلت على مقاعد الدراسة الإعدادية. الكتب هنا يا حبيبتي منتقاة بعناية ولا أدري كيف أفلتت منهم هذه الرواية. أنت تعلمين يا حبيبتي أننا مع كل قراءة جديدة يمكننا اكتشاف شيء جديد، حتى هنا وأنا أتحرك في مساحة محدودة، اكتشفت جوانب في الحياة خارج هذه الجدران والأسلاك الشائكة لم أكن قد انتبهت لها من قبل.
ارتشف من فنجان قهوته، وأشعل سيجارة أخرى ثم سحب الكرسي قليلاً إلى جهة الجدار الذي تنزلق عليه الصورة:
- حبيبتي اشتقت لك أكثر مما تتخيلين. البارحة التقينا في الحلم. التقينا كما كنا نفعل سابقاً.
أشعل عبدالغفار سيجارة ثالثة وارتشف من فنجان قهوته وقد ازدادت تلك الارتعاشة في يده ثم سحب الكرسي واقترب أكثر من الصورة يكاد يلتصق بالجدار. بدت على وجهه ملامح مفاجئة من الحزن وتلك الطقوس التي تسبق البكاء:
- لكن يا حبيبتي أنتِ لست هنا، لست هنا.

وراح يرتعش وينشج كالأطفال:

– أنت لست هنا. عندما صحوت بفعل لزوجة وحرارة السائل الذي انداح في ملابسي الداخلية. صرخت بكل وجع: لماذا يا الله هذا الاعتقال؟ أكل هذا لأنني رغبت بأن أرى الحياة كما أريد أنا؟

كنتُ واقفاً قرب الجدار في طريقي إلى الحمام، عندما رأيت عبدالغفار يسحب الكرسي ويجفف دموعه. مرَّ قربي كأن شيئاً لم يحدث بعد أن ألقى علي تحية الصباح. رآني سالم مندهشاً فربت على كتفي قائلاً:

– هذا مشهد يومي يا خالد، ستعتاد على ذلك.

* * *

في المساء، كان عبدالغفار يجلس وحيداً في سريره يقرأ كتاباً ويدخن سيجارة تلو أخرى دون توقف، بينما بعض النزلاء يلعبون الورق والآخرون يتفرجون عليهم في نصف حَلَقة، ومع مضي الوقت، أصبح اللعب حدثاً روتينياً، ينتهي عادة بخلاف يدوم لوقت قصير ثم ما يلبث أن ينتهي بموجة ضحك عارمة، ويندس المعتقلون أخيراً في أسرتهم وفي نيتهم أن يقتلوا يوماً آخر من أيام المعتقل.

لعب الورق في زمن كزمن المعتقل، يغدو كخنجر يحز عنق الوقت وفي البال انتظار لأيام أخرى عليها أن تمضي سريعاً، لكن لعب الورق ليس الشيء الوحيد الذي يحدث في أيام المعتقل فهناك

مهمات تتبدل، توكل إلى كل المعتقلين، واحد لمهمات التنظيف، وواحد للطبخ، وآخر لسماع نشرات الأخبار من الراديو، ومن ثم تقديم تقرير شفاهي عما سمعه وآخر لإلقاء المحاضرات الثقافية والسياسية حتى أنهم يتبادلون قراءة رسائل بعضهم البعض مهما كانت خاصة. في تلك الليلة، لم أنضم إليهم، ليس لأنني مستجد على المعتقل الذي ضم رفاقاً لي في الحزب أيضاً ولا لأنني أصغرهم سناً، بل لأن لعب الورق لم يرق لي منذ أن كنت في الجامعة، حيث يجتمع الطلبة أبناء القرى البعيدة الذين يقطنون عمّان ويلعبون حتى طلوع الفجر فما أن رأيت عبدالغفار يغلق كتابه ويشعل سيجارة أخرى، حتى تشجعتُ واقتربت منه فبادر بدعوتي للجلوس حين رآني قريباً من سريره. ما أن جلست حتى نهض متثاقل الخطى وهو يقول:

- بدي أساوي كاستين شاي.

جاء صوت سالم وهو يغالب السيجارة التي تعلقت بطرف فمه ويمسك الورق بيديه:

- بالمرة ساويلنا معك شاي أستاذنا.

كان عبدالغفار أكبرهم سناً، إذ شارف على الخامسة والخمسين وأكثرهم خبرة في السياسة والفكر وهذا كان واضحاً في الآراء التي كان يطرحها حول ما يحدث في عمان وفي العالم العربي نتيجةً لقراءاته الكثيرة والمتعمقة وسفراته التي كانت عادة ما تجيء كانتداب من الحزب إلى مختلف أنحاء العالم.

قال عبدالغفار، وهو يملأ إبريق الشاي الكبير بالماء، يرد على سالم الذي عادة ما يشيع روح المرح بين المعتقلين:

- انتو ريحونا من صراخكم بدون ما تطلب هيني حسبت حساب الجميع.

كان عبدالغفار قريباً للقلب منذ الوهلة الأولى رغم غرائبيته التي علمت بشأنها والتي تتمثل بنوبات نفسية تعتريه بين الحين والآخر. لاحت لي خطواته ثقيلة وأنا أراقب قامته القصيرة بعض الشيء وشعره الذي اختلط فيه الشيب بالشعر الأسود ووجهه الذي بدا متهدلاً، إلى جانب العينين حادتي النظر وهما يحفلان بانتفاخ أسفلهما.

قال وهو يضع كأس الشاي أمامي، على طاولة صغيرة بجانب السرير:

- في عالم المعتقل، عليك أن تتعامل مع الوقت والأشياء من حولك كما يتعامل ذلك النوع من البشر بكل بلادة تنسحب على كل شيء.

أدركت أن حديثه هذا كان بسبب ملاحظته لعاصفة الحزن التي تبدو واضحة على جبيني منذ أن وطئت قدماي أرض المعتقل. كنت أفكر بالحالتين اللتين يتنقل بينهما عبدالغفار، الحالة التي يصاب فيها بما يشبه الجنون وهو يتحدث لسماح، والحالة التي يبدو فيها مفكراً ومنطقياً إلى أبعد الحدود. إذ اقتنعت فيما بعد أن عبدالغفار ينصاع للحالتين بمحض إرادته كأنه يجابه الضيق بالاتساع.

- ربما عليّ أن أدرب نفسي على طعم الوقت الجديد هنا لكي أتقبل ما يحدث لي.

قلت ذلك وأنا أدرك أن عبدالغفار مثله مثل أي سجين هنا يحاول قتل الأيام كي يعيش.

- أنا أدرب نفسي على أن لا أستسيغ طعم الوقت الجديد يا خالد.

ضحكتُ:

- كيف يمكننا كآدميين أن نستسيغ طعم وقت كهذا مليء بالألم وتضييق الخناق على كل شيء. لاشيء يسمح به، لا كتب، لا راديوهات، لا مجلات، لا رسائل تأتي من الخارج، لا شيء من هذا كله، إلا من تلك الانفراجات التي حدثني عنها سالم بين الحين والآخر تحت ضغط الأهل والزملاء في الخارج وبعض الجهات المعنية بحقوق الإنسان وتعاون بعض الجنود معنا فأغلب الأشياء التي تعيننا على زمن المعتقل الثقيل، أتت إلينا خفية.

صمت قليلاً ثم أضاف، وهو ينفث دخان سيجارته في هواء بدا ثقيلاً لكثرة دخان السجائر، ولفرط إحساسي بالاختناق الذي داهمني منذ اليوم الأول، وأنا أترك ورائي عالماً لم أتوقع أني سوف أغادره ذات يوم ثم قال:

- يحدث يا خالد أن يستسيغ الواحد منا طعم الألم وشكله. ربما نتحول إلى ذلك النوع من البلادة التي يمكن أن تقود إلى الاستسلام. ما المطلوب منك هنا في هذا المعتقل؟ قل كلمة واحدة تتراجع فيها عن مبادئك وامض.

ارتشف من كأس الشاي ثم أكمل حديثه:

- تراودني أحاسيس غريبة أحياناً مثل أن أخاف اعتياد طعم المعتقل فأصبح غير قادر على تقبل الحياة خارج هذه الجدران.

ارتخى في سريره، وراح يتحدث بانسياب:

- الوقت خارج هذه الجدران، هو الحياة على الرغم من كل تناقضاتها. بينما الوقت هنا هو الموت. خارج هذه الجدران، كنت أحلم كأي آدمي بصباحات مشرقة. عندما اعتقلوني خبأت الصباح هناك لأنني حتماً سأعود.

أرخى بدنه أكثر مكملاً حديثه وهو يراقب السقف:

- هذه هي المرة الثانية التي أُعتقل فيها، أمضيت ثمانية أعوام. وحين خرجت، وجدتني غريباً عن كل من هم حولي. بصعوبة بالغة أعدت القنوات التي كانت مفتوحة بيسر بيني وبين أهلي.

قلتُ وكأنني أوجه الحديث إلى دفة أخرى:

- وسماح؟

استند في سريره وقد أضيء وجهه بفعل تلك الذكريات التي طفقت في باله مرة واحدة:

- كنتُ قد التقيتها في بيت أحد الأصدقاء. ليلتها لم أستطع الحديث. لم يخبرني صديقي بمجيئها من قبل فالوجوه الغريبة تخلق فينا الخوف ونبقى نتساءل من أين أتت؟ من الذي دفعها للمجيء هنا؟ أي معلومة تريد أن تحصل عليها؟ عن من تريد أن تشكل وجهة نظر؟

كان صديقي يتحدث عن المؤسسات الغربية المختلفة التي تستهدف خلق الانشقاقات في الحركات الوطنية.

كانت تبدي آراء ذكية بكل حماسة، تنم عن معرفة وخبرة عميقتين. وحين دخل صديقي للمطبخ يعدُّ لنا ما نشربه، لحقتُ به أسأله:

– من هذه يا رجل؟

ضحك صديقي بأعلى صوته، بحيث يمكنها أن تسمع حديثنا السري:

– اطمئن يا صديقي لم يدفع بها أحد إلى هنا.

في تلك الليلة، راحت سماح تحدثني عن نفسهاا بعد أن تفهمت حذري مما يحدث لأن المرحلة آنذاك تتطلب هكذا حرصا. لم أحبها فقط لرشاقتها الجميلة، والعينين الواسعتين أسفل شعر أسود فاحم وناعم، والوجه الذي يشبه استدارة وجوه الأطفال، إنما أيضاً لروحها الوثّابة التي تتوق للحياة. منذ ذلك اليوم، صارت سماح بالنسبة لي نقطة تحوّل في حياتي، جعلتني أبادر لطلب الزواج منها دون تردد.

بقي عبدالغفار يحدثني عن سماح طيلة تلك الليلة وعن الأيام القاسية التي أمضاها في الزنازين والسجون والمعتقلات إلى أن غفى في سريره بوجهه الهادئ كالأطفال حينما ينامون بعد سماع حكاية مشوقة.

* * *

ثمة روتين يومي قاسٍ كان يكسو أيام المعتقل فلا أحداث استثنائية يمكنها أن تبدد شعوراً بالاختناق، يحس الواحد منا فيه بأنه انتُزع من حياة كان يمكنه عبرها أن يقوم بخطوة إلى الأمام. كان المعتقلون في الباحة الخارجية يمضون ساعة الاستراحة التي لا يحصلون عليها إن ارتكبوا مخالفة ما. كنت قد نسيت علبة سجائري فعدت لداخل العنبر أحضرها، ما إن دخلت حتى وجدت عبدالغفار قد اقترب من الجدار وراح يلثم وجه سماح بقبلات خفيفة وهو يتمتم:

– اشتقتك أكثر مما يمكنني أن أحتمل.

ثم أخذ يلامس الجدار بأنامله كأنه يفك أزرار القميص الذي رُسم بعناية فائقة وهو يقول همساً:

– هم لم يتآمروا على الفكرة التي أؤمن بها فقط، هم يتآمرون حتى على رغبتي بك واشتهائي.

راح يفك أزرار قميصه ويخلعه ثم ألقى به على الكرسي، التصق صدره العاري بالجدار أكثر وهو يتمتم:

– دونك أحس بأنني ناقص وبأن كل شيء أعرج. أشتهيك جداً يا حبيبتي.

بأصابعه المرتعشة، كان يتحسس الجدار كما لو أنه يهم بخلع الفستان الوردي الذي رسمه بمهارة. تعرّى وتجرد تماماً من ملابسه، ثم اقترب من الجدار محاولاً احتضانه، وهو يقول بوتيرة صوتية علت قليلاً:

- كيف لي أن أعيش دون خصبك ونمائك يا سماح. تآمر الجميع على الخصب والنماء منذ حضارة الرافدين إلى الآن وأنا أرفض المؤامرة وسأحاربها بالجنون ذاته.

التصق أكثر بالجدار ثم بدأ يضاجع الصورة، وهو يئن أنيناً عالياً إلى أن انتفض كحصان في عز نشوته وهو يجتاز مسافة بهدوء، انسحبت من المكان وقد تركته عارياً يسند رأسه على الجدار، يجهش بنحيبٍ مرّ وكأن حالة من الجنون قد دبت به فجأة. أسرعت لسالم وهمست في أذنه بما جرى. طلب مني أن لا أخبر أحداً بما رأيت وأن أبقى في الساحة مع الآخرين. ثم تركني متوجهاً إلى الداخل. وحين عدنا إلى العنبر، كان عبدالغفار خامداً في فراشه وقد علت وجهه مسحة من التعب بينما سالم يسند ظهره إلى الجدار في سريره يدخن وعلى وجهه علامات حزن عميقة.

بقي عبدالغفار في فراشه بين صحو ويقظة حتى حلّ المساء فاختلى به سالم وبقيا يتحدثان لوقت طويل حتى نام عبدالغفار كأنه لم ينم منذ سنين. حلَّ الليل مبكراً في ذلك اليوم وبدت السماء باحة للغيوم السوداء التي تبشر بمطر غزير وظهرت الصحراء من وراء أسوار المعتقل أكثر وحشة وكأنها العدم، حيث صفير الريح وصوت تكسّر أغصان أشجار السرو والكينا التي زرعها المعتقلون حول مبنى المعتقل. لبس جنود الحراسة معاطفهم العسكرية، وزادوا عليها أن لفّوا رؤوسهم بالشماغ ولفحات صوفية بلون زيتي داكن. كانت النشرات الجوية التي تسمع عبر الراديوهات تشير

إلى أن العاصمة حفلت هذا الصباح بثلج وافر كسا جبالها وبقية المحافظات، لكن هذه الصحراء لن تحظى بالثلوج، هذا ما خبره المعتقلون والجنود ومن يقطنون هذه المنطقة البعيدة.

هيّأ سالم المدفأة فانتشر الدفء في المكان، ومن ثم في الأبدان. بدأت الحكايات تتوارد تباعاً، حكايات من التراث البدوي، حكاية الزير سالم، مقتطفات من ألف ليلة وليلة، إعادة قراءة بعض الرسائل المهرّبة من بعض الجنود المتعاطفين مع المعتقلين.

كنت ممدداً في سريري أراقب السقف الذي كان متعفناً بفعل رطوبة تداهمه منذ سنين، أسمع بين الفينة والأخرى عواء ذلك الذئب الذي يصل مسامعي منذ أول ليلة لي في المعتقل. كانت الرياح الشديدة بصفيرها الموحش تحمل لي عواءه حزيناً ممزقاً ومليئاً بالشكوى، ما أن يعبر مسامعي حتى يحتل مكاناً في دواخلي فيجلب لي على الرغم من وحشته شيئاً من الطمأنينة التي ما زلت استغربها. كنت في تلك اللحظات أتلقى تلك المشاهد التي تخبرني بخروجه على القطيع، غريباً ومصاباً بالوجع. مشاهد كانت تتوالى في مخيلتي، ذئاب تتصارع، ذئاب تبطش، ذئاب تعبُّ المسافات في بحر الصحراء وذئب يعوي على جبل واقف في السديم.

قلت لسالم وهو يجلس بطرف سريري بعد أن تساءل عن سبب عزلتي بعيداً عن الآخرين وهم يتسلون بالحكايات وأخبار البلاد:

– هل تسمع عواء ذئب كل ليلة يأتي من الصحراء.؟

ضحك سالم رغم مسحة التعب التي لاحت في وجهه ثم قال:
- مع أن الصحراء مليئة بالذئاب لكنني لم أسمع عواءها يا خالد.
قلت أستبدل موضوع الحديث:
- نام عبدالغفار؟
قال سالم وهو يشعل سيجارة ويرتمي على المساحة التي بقيت فارغة من سريري:
- من يرى عبدالغفار يظن أنه مصاب بالجنون. ربما تعتريه حالة من هذا القبيل، لكن عبدالغفار يقاوم زمن المعتقل بطريقته الخاصة.
صمت قليلاً ثم أضاف:
- عبدالغفار شخص مثقف ومفكر وقد عانى الكثير دفاعاً عمّا يؤمن به. والفنان الذي يعيش في داخله يجعله لا يقبل الظلم، بالتأكيد نحن هنا في هذا المكان المعزول عن الحياة لأننا لم نقبل بالظلم، لكننا ندرك أن وجود الظلم مشروط بوجود العدل أيضاً، وما بينهما النضال من أجل ذلك. هكذا هي الحياة. أكبر جريمة أن يعتقل فنان بحجم عبدالغفار، يحلم بالحياة عبر تقاطعات اللون، ونزق ضربات الفرشاة.
سحب نفساً من سيجارته، وأكمل حديثه:
- لم أر عبدالغفار حزيناً كما رأيته اليوم، عانقني وهو ينتحب قائلاً: إنسانيتنا تضيع بوحشية يا سالم، هل تصدق بأنني أضاجع الجدار؟ جدار!

من زاوية العنبر، كان محمود الأعرج يعزف على عوده الذي صنعه بنفسه ويغني أغنية تراثية تحز نياط القلب، سقطت دمعتان على خدّ سالم، بينما اشتد صفير الريح. نهض سالم يجفف دموعه وهو يصرخ بمحمود الأعرج:

– يا أخي فكنا من هالأغاني اللي بتجيب النكد، غنيلك إشي غير هيك.

عدّل محمود الأعرج من جلسته، وراح يعزف أغنية عبده موسى (نزلن على البستان يا عنيّد يا يابا) فنهض المعتقلون يرقصون مع الأغنية التي رافقها إيقاع صندوق معدني كان ينقر عليه سالم. ناموا بعد تلك الحفلة الراقصة وبقيت أنا أتنقل بين المشاهد التي كان صوت عواء الذئب يأتيني بها في تلك الليلة التي شهدت الصحراء فيها مطراً غزيراً.

* * *

كان النزلاء العنبر في المعتقل ما يزالون يغطون في نوم عميق بعد ليلة أمضوها في نقاشات حول الرؤى المختلفة لتوجهاتهم السياسية انتهت بعدم الاتفاق على وجهة نظر معينة. إحساس بالفقد كان يتعربش روحي العالقة كورقة بحقل شوكٍ في يوم عاصف. شعور غريزي في تلك اللحظة جعلني أفكر بحاجتي لامرأة. أي امرأة تقتادني من يدي إلى سريرها، وتحضنني فيغور رأسي في صدرها، حينها سأتنهد بعمق كدلالةٍ على خطوةٍ أولى تفضي إلى إغفاءة بلا قلق.

"إن كان البنسلين مضاداً لفيروسات الجسد فحضن امرأةٍ تغدق عليك حبها مضاد للحزن والقلق"

على الجدار، كانت صورة (سماح) التي رسمها عبدالغفار على مهل وفي كل يوم يصحو فيه يأوي إليها ثم يعود لعالم المعتقل اليومي.

اقتربت من الصورة وسحبت الكرسي الذي اعتاد عبدالغفار الجلوس عليه أمام الصورة، وناديت:

- سماح.

كنت أحاول أن أقلد عبدالغفار على الرغم من أنني كنت في تلك اللحظة أرتكب فعلاً لم يجرؤ أحد من النزلاء على فعله.

- ليس هناك امرأة أحملها في داخلي، أجلس قبالتها، أتحدث كما يتحدث إليكِ عبدالغفار. كلنا نحسده عندما نراه يُكَلّمك مرة بحزن، ومرة بفرح. أحتاج لامرأة تكون لي الصديقة والحبيبة والوطن، المرأة المستحيلة التي يحلم الرجال بامرأة مثلها ولا يجدونها.

جعلني صوت عبدالغفار وهو يسعل في سريره أنهض مرة واحدة وأفر سريعاً كأنني كنت أحدث زوجته النائمة في سريرها.

وحين اجتمعنا لتناول طعام الغداء كالعادة، اقترب مني عبدالغفار قليلاً وهو يمضغ قطعة من الخبز وقال:

- سماح لا تتحدث إلا إليّ.

صمت قليلاً ثم أضاف:

- لدي أصباغ وأقلام وألواح من الطبشور يمكنك استخدامها لرسم من تحب.

لم أخبره في تلك اللحظة أنه ما من امرأة تعيش جواي يمكنني رسمها لألوذ بها متى شئت، مع علمي أن ما من شيء في السجن يمكنه أن يجعلك متصلاً بما وراء الجدران، والأسلاك الشائكة مثل ذكرى امرأة بينك وبينها ذاكرة بحجم الحب، جبهتنا الأخيرة العصية على السقوط.

* * *

ثمة خيط من الضوء يسقط في بؤبؤ عيني، عبر النافذة الضيقة. ما أن فركت عيني بيدي ثم مسحت العنبر الذي ضم أسرة عديدة يغفو بها النزلاء؛ حتى أدركت أنني لست في غرفتي في القرية أو في المدينة التي كنت أدرس بها. للحظات لم تكن قصيرة، شعرت أن لا قدرة على الحركة تكمن في جسدي، إحساس بالشلل يسري في بدني ويجعلني كتلة هامدة. لحظات وبدأ النزلاء بالنهوض تباعاً، فدبَّ شيء من الضجيج في المكان، سعلات متكررة سببها التدخين المستمر وهجمات العواصف الرملية التي ما أن تهجم، حتى تحيل الأشياء كلها إلى لون صحراوي مغبر، تحيات الصباح تأتي على شكل همهمات مخنوقة، سباب يجيء بفعل عدم نظافة الحمامات التي تمنح مرتاديها شعوراً بالقرف. صوت الراديوهات التي تبث أغاني فيروز ونشرات الأخبار التي تحمل معها أخباراً لم يتغير مستوى ما تمنحه من إحباط منذ سنين. كان سليم ما يزال مندساً في فراشه، عندما مررت قربه متجهاً إلى الحمام. ألقيت عليه تحية الصباح، فردها ببطء وعلى

وجهه ابتسامة مختلطة بشيء من الحزن فردّ التحية متثاقلاً وهو يتأمل العنبر:

- لا أستطيع النهوض، في هذه اللحظة تتلبسني حالة من الاشتهاء.

جلست قربه بطرف السرير،التقطت سيجارة من علبة سجائره وأشعلتها فأشعل سيجارة مثلي فقلت متحسساً حجم وجع سرى في روحه:

- بحق هذه مشكلة.

وضع الوسادة تحت رقبته واستند قليلاً ثم راح ينفث دخان سيجارته وقال:

- أن تعتقل لسنين في مكان مرهون للون ومزاج واحد، هذا يعني أنك تبدأ بالموت البطيء. لست حيواناً لأبقى آكل وأشرب وأنام وأستخدم المرحاض ثم إنني أكره الموت، أكرهه. يجب أن تسير حياتي وفق ما أريد. لكن كيف يحدث هذا في معتقل ينهش روحي على مهل قاسٍ؟

* * *

تهالكتُ على سريري مسترخياً، أود لأشياء كثيرة في تكويني أن تستريح. كانت الرياح خارج العنبر، تطوف في الامتداد الصحراوي الشاسع، وتنثر موسيقاها الموحشة حد البكاء المر. أطبقت جفنيّ، فانهالت العتمة مرة واحدة تخضب ذلك الامتداد اللانهائي من فراغ يطلُّ على مطلق سرمدي يفضي للإجابة التي يلح عليها سؤالي. امتدت يدي التي كنت أحس بها في

تلك اللحظة جزءاً غريباً مني إلى جانبي حيث طاولة صغيرة عليها علبة تبغ وولاعة قرب منفضة السجائر. التقطت سيجارة وأشعلتها فبدا وهج الولاعة في تلك العتمة الجزئية كفكرة ولدت للتو دون مقدمات. رحت أشهق دخان تبغي وأزفره ببطء إلى الأعلى وكأني أحاول أن أعلّق بخيط الدخان الخفيّ أشياء تحوم داخلي، لعلها ترحل معه وهو يتلاشى في عتمة العنبر كجنيّ يظهر فجأة ويتلاشى فجأة. زخّة ضوء خفيفة كانت تتلصص من نافذة تقبع في أعلى الجدار الذي يحاذي سريري تخترق تقاطع القضبان الصدئة لتلقي على أرضية المكان ظلالا مشتتة تشبه لوحة سريالية ينزف من مساماتها مزاج موغل في العويل المتقطع. راقبت تلك الظلال فبدت كأنها تفتش في تداخلاتها الشكلية عن إجابة ما. رياح تلك الليلة من ليالي شهر كانون كانت ترسل إلى مسامعي أصداء حركاتها المستفزة لأطراف الجسد في اللحظة التي كانت تمارس فيها قصتها البدائية على مسرح الصحراء الموغلة في الصحراء وفي أحادية اللون الذي اختزل كل الألوان ليبقى هو وحده. أشعلت سيجارة أخرى ورحت أنفث دخانها متقطعاً. ضربات أحذية الحراس الذين يطوفون حول المعتقل كانت تصل إلى مسامعي بين الفينة والأخرى وسعلاتهم تختلط بأصداء الرياح وأنا أسمع شخير بعض المعتقلين، أطبقت جفنيّ فعاد الفراغ اللانهائي الضالع بالأسود مرة أخرى. كنت أحدث نفسي وأنا أوغل في تلك الحرية السوداء الشاسعة:

(أبلغوني أنني سأغادر المعتقل غداً لتكون هذه الليلة الأخيرة في صورة تراكمت بها سنين من العذاب المر. تلك السنين التي لم تمض سريعةً أو حتى اعتيادية، بل كانت رحلة سلحفاة تصعد إلى قمة جبل من قعر واد تحترق حشائشه الجافة، سنين اختزلت نفسها إلى عوالمي الجوانية إلى تلافيف ذاكرتي التي سأحملها معي مرغماً غداً وتحملني هي إلى الوراء، سترافقني في وقت أحاول أن أبتعد فيه عن هذا المكان. هل ألفت هذا المكان إلى حد العبث بكل موازيني؟ تساءلتُ بعد مضيّ عشرين عام هنا، في هذا المصحّ العبثيّ لروحٍ مترعة بالحزن ثم ما هذا الشعور الذي على الرغم من الخسارات كلها يداهم قلبي وكأنني أهم بترك حبيبة كوّرت لي السنين بمعيتها لحظات نورانية؟)

فتحتُ عينيّ دون أن أعثر على تفسيرٍ واحدٍ يضجّ في المخيلة لهذا التاريخ المهشم حد الهستيريا فابتعد ذلك الأفق الأسود حين تسرب ضوء باهت يتلوى في المكان. أشعلت سيجارة أخرى وشهقت دخانها بعمق أتأمل تلك السنين التي مضت وقد غادر عبرها معتقلون وأتى آخرون في زمن حافل بالمضرات لا بالمسرات، منهم من مات فعاد جثة إلى دياره ليبتلعه التراب كقطرة ماء تتلاشى في تراب صحراوي، ومنهم من واجه الحياة بصمت المصاب بقلق سنين الاعتقال. في الصباح تحلق المعتقلون حولي وعلى وجوههم ابتسامة مشوبة بالوجع. كنت أكثر حزناً من ذي قبل وأنا أرى صمتاً صحراوياً يتلبس وجوههم. عانقتهم واحداً

واحداً وكأنني أحاول أن أستل منهم كل العذاب والخسارات لآخذها معي وألقي بها بعيداً عنهم.

قال سالم وهو يغالب نوبات سعال استفحلت به مؤخراً:

- قد ظُلِمتَ يا خالد، لكننا نتمنى أن تستأنف حياتك بعيداً عن كل الكوابيس التي كانت تنتابك في منامك.

راح عبدالغفار يفتعل ابتسامة وهو يشد على يدي:

- الحياة في داخلك. ليس مهما أن يضر المعتقل ببصرك، ومفاصلك، ورئتيك. المهم أن تبقى تتذكر أنك كنت أقوى من أن تمتد يده إلى قلبك مخدع الحياة.

أشار عبدالغفار إلى صورة سماح ثم قال وهو يحدق ملياً بي:

- أعلم أن ما رآه الرفاق على الجدار ما هي إلا لوحة، لكنها عبر كل تلك السنين قاتلت الموت داخلي.

اقترب سالم والآخرون ثم وضع يده على كتفي قائلاً:

- لا تقلق، وقت قصير وسوف نتبعك لنعيش حياتنا، هنالك أنباء تبشر بذلك.

انحنيت لألتقط حقيبتي الصغيرة التي جمعت فيها كتبي وأوراقي ورسائل أودعها المعتقلون لعائلاتهم. كانت دموعهم تنساب بسخاء وتتلوى. في فناء العنبر، أصداء مخنوقة تنز عن خفق صدورهم التي ما أن تركتهم حتى انفجرت في نشيج موغل في الحزن فعدتُ لأعانقهم مرة أخرى والجندي يغالب دمعتين سقطتا خلسة على خده المتعب.

رسالة - 2

قلتُ لكِ ونحن نستسلم لنداءات الحب أنني أخاف أن أشرع نافذة قلبي مرّة أخرى، هل تتذكرين ذلك؟ إنه الخوف من مصائر غريبة كالتي يودي بها الحلم ببلاد نظيفة من الخسارات، لكنني أشرعتها على مصراعيها، أشرعت نافذة القلب لتحتلين مساحته كلها. قبل الاعتقال، افتقدت بسبب خيانة امرأة كانت ستكون شريكتي مدى الحياة، تلك التحليقات التي تأخذني من سطوة عالم غيّر حفنة من عبيد المال لغته الأولى فاكتفيت بمراقبة السماء دونما أي قدرة تمنحني طاقة على التحليق وصفق الأجنحة. أمضيتُ أعواماً من الصبر وشرب كؤوس الغمام حتى عاد جناح القلب الأيسر مرة ثانية قادراً على التحليق ورؤية ما يحلم به خارج سياق تلك النظريات التي دفعت بالحب إلى التراجع خطوات كثيرة إلى الوراء. قبل أن أعرفك، كنت أعاني زمن المعتقل الداخلي الذي يصير أكثر قسوة من سجن بجدران وقضبان من إسمنت ومعدن صدئ، وبعد غيابك هذا صرت أعاني زمنين لسجنين. المعتقل الذي زجني به المحقق وهو يتوعدني بالكوابيس وسجنك الذي ما انفك يتوعدني بالأرق. لماذا كل هذا الغياب؟

كل ما فعلته أنني كنتُ أحلّق يديّ حولك، أداريكِ كشمعة أخاف أن تبدد الريح نورها الذي منح قلبي الحياة، بقيت على مر سنين خلت حلماً شهياً يراودني. أرأيت كيف تربط المصادفات

بين مصيرين وتنتج منهما مصيراً ثالثاً محكوماً بالألم والأمل معاً؟ كنت أستشعر ألم نارٍ حارقة كصوفيّ يطأ الجمر وهو في حالة من التماهي والانعتاق؛ أقبض على جمرك وأتجلّد تلك الآلام الحادة التي كانت تدمي يديّ وكنت حينها أتساءل هل يحتمل الحب أكثر من ذاكرة؟ أتساءل وأنا أراك تتعجلين خلق ذاكرة لي ولك لكي تهزم ذاكرة أخرى، لذلك صرخت ذات ليلة:

(جئتك بذاكرة نظيفة يمكنها أن تحتفي بكل ما يحدث بيننا، بيننا وحدنا فلماذا تفعلين بي كل هذا الوجع؟)

حينها، تذكرت أنك لا تؤمنين بحب يحتفي باللوعة والفراق وطلب الوصال. كل ما فعلته حينما أحببتك أني وددت أن أكون خارج سياق علاقات الحب السريعة التي ما أن تبدأ حتى تنتهي. إنه ذلك التفاني العميق في الحب الذي من شأنه أن يسند قامة الأرض فينا، قامة الأرض التي تبدو مترنحة في أحيان كثيرة كلحظة الغياب، كلحظة التوجس من شيء سيء يمكن أن يحدث، كلحظة الخسران. كل ما فعلته أني كرهت وهم هذا العالم الذي يختلف ظاهره عن باطنه. أريدك كما كنتِ في مبتدأ الحب، تترعرعين في تراب الكتابة التي كانت جسر تواصلنا في مساءات الواقع الافتراضي إذ تغدو الكتابة في أحيان كثيرة كالأم الرؤوم وهي تجمع أبناءها تحت جناحيها الواسعين فقد نجحت سلطة الكلمات في قتل المسافة بيننا تماما كما كانت في زمن المعتقل معْولاً أهدم به جدرانه التي تربض وراء جدران الإسمنت.

عبر كلماتك، شرعتِ برسم صورة لي في مخيلتك، لا أدري إلى أي درجة يمكن لها أن تُحدث التطابق بين صورتي الواقعية وبين الصورة التي قمت بنحتها. لا أدري إلى أي درجة يمكن أن يحدث لي هذا فيما يتعلق بصورتك التي رسمتها لك. الصورة الفوتوغرافية لا تفي بالغرض. نحن يا حبيبتي نتجمل في الصورة كثيراً، ندعها تمر على مفاصل البرامج الإلكترونية التي خبرتها مؤخراً ونبدل فيها بعض الملامح ونضيف لها بعض التفاصيل، نختار لقطات معينة نحب أن نبدو فيها كما نتمنى فنلوي عنق الصورة عبر عالم البرامج التي يترع بها الفضاء الافتراضي.

نراقب لوحة "دافنشي" الشهيرة "الموناليزا" والتي كان وراءها (فرانسيسكو دي بارتولوميو دي زانوبي ديل جيوكوندو)، هي لوحة شخصية لزوجته الثالثة "ليزا" (دي أنطونيو ماريا دي نولدو جيرارديني)، تلك اللوحة التي أمضى دافنشي أربع سنوات في العمل عليها، تحتوي على لقطة واحدة من ضمن ملايين اللقطات من حياة (ليزا) المرأة العشرينية لفرانسيسكو. نحن يا حبيبتي عشقنا شخصية تلك المرأة عبر لقطة أنفق رسامها وقتاً طويلاً لإنجازها، لكننا لم نفكر باللقطات الأخرى التي يمكن أن تأخذنا إلى شخصية غير التي أهداها لنا "دافنشي" عبر حلم كان يرافقه في أثناء الرسم. أخاف كثيراً لأنني عولت عليك أكثر مما ينبغي.

الفصل الثاني

تلك الليلة في جبل نيبو

الموت هو النهاية النقيُة الجميلة الوحيدة لعاطفة عظيمة
"ديفيد هربرت لورانس"

نهضت من السرير عصراً بعد قيلولة قصيرة ووقفت أمام النافذة. لم يكن هنالك أصوات تأتي من القرية التي ولدت فيها ثم غبت عنها عمراً، سوى صوت قطة تعبث بـ "الحاويات" التي امتنع عمّال النظافة مؤخراً عن تفريغها احتجاجاً على تدني رواتبهم. كان صوت تلك القطة، وهي تموء جوعاً يثير بي وحشة من نوع غريب. الشتاء قارس وطويل ذلك العام فكبار السنّ الذين ما زالوا يتعاملون مع الفصول وطقوسها عبر مفاهيمهم الكلاسيكية يرون أن أعوام (محل) سوف تحل على البلاد على الرغم من غزارة الأمطار التي هطلت وأربعينية ذلك الشتاء التي أتت محملة بشهوة الصقيع المتطرفة. حتى الأصوات والحركة في المنزل لاذت في ذلك اليوم بسكونها السرمدي.

جهزت فنجان قهوة ثم نظرت إلى الصفحات التي كتبتها وقد حفلت ببوح كثير ثم جلست إلى طاولتي بينما كانت أشعة الشمس التي مالت إلى الغروب تسقط عبر النافذة مستقرة عليها تتماوج فيها ذرات دقيقة. وضعت القلم في رأس الصفحة، لكن بضع كلمات أتت حزينة،خجولة ومنكسرة كأن شِباكاً باتت تحول بين الورقة والكلمات. لم أستطع أن أكتب. شعرت أنني عاجز تماماً عن أكمل ما أريد قوله. أحداث، وحكايات كثيرة تقاطعت ببعضها البعض، كأن ما يحدث لي هو يوم القيامة الذي تخيلناه عبر كم الكتب والمنشورات الدينية التي تتوعد بالعذاب أكثر مما تتوعد بالهناء وهو يستقر في الذاكرة بكل رعبه. كنت في غاية

الرعب وأنا أضع رأس القلب على رأس الصفحة. كلما كتبت بضع كلمات مزقت الورقة. ثمة كلمة واحدة كانت تعوزني لتفجر من جديد كل ما يوجعني. أرخيت رأسي على صدر الطاولة أنصت لدواخلي، لم أستطع أن أسمع سوى أصوات متداخلة كعواء ذئب وصفير رياح ونواح امرأة ورجل ينطق الشهادة وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ولعلعة رصاص ونقرات أصابع على لوحة مفاتيح لحاسوب وصرير باب سجن يوصد وصوت محقق وصوت امرأة تتأوه باللذة. تركت الطاولة ورحت أدور حول نفسي في الغرفة والكرسيّ يهتز سريعاً وكأنه يكابد مثلي تلك الأصوات التي تلاحقني كدبابير مستنفرة. أمسكت هاتفي، ذلك النقّال الذي رأيته للمرة الأولى يوم خروجي من المعتقل محمولاً على خاصرات المارّة فاعتقدت أن الناس جميعهم قد أصبحوا مخبرين مزودين بأجهزة لاسلكيّة.

اخترت اسم "رداد" من بين قائمة الأسماء المحدودة ثم حاذيت سماعته أذني بعد أن ضغطتُ زر الاتصال. جاءني صوت أنثوي ناعم يتحدث بالفرنسية يعلمني أن الهاتف النقال في الأجواء الفرنسية وأنه غير متاح للاتصال به الآن فأدركت أن رداداً يرافق رحلة إلى فرنسا. رميت بالهاتف جانباً ورحت أدور حول نفسي فراراً من خليط الأصوات الذي كان مع كل دورة حول نفسي يستبيحني أكثر من ذي قبل وهرعت إلى النافذة وأشرعتها فتدفقت الرياح تبعثر الأوراق التي كنت أستجديها تستنطقني

لعلي أقول ما يوجعني، لكن الأصوات بقيت تلاحقني وتكاد تفجر مسامعي. تحت صنبور الماء البارد هبطت دون أن أخلع ملابسي وبقيت استسلم لصفعات الماء إلى أن تلاشت الأصوات كأنها لم تكن. جلست إلى الطاولة أعاود محاولة الكتابة مرة أخرى. كان عليّ أن ألملم كل التفاصيل وأقعي أمامها لأتبين سر الذي حدث فأستعيد شيئاً من الضوء لأراها من جديد وأكتبُني لعلني أولد مرة أخرى وأنا أدرك أنني أتيتُ على كل الضوء حينما أوغلت في أحلامي ببلاد خالية من القهر وبحب امرأة أعتقني من سجن ليبيعني لسجن آخر فصارت خطواتي تتعثر بالأشياء كضرير يقاوم فكرة العمى.

عندما وضعت القلم برأس الصفحة من جديد، بدا خليط الأصوات يقترب إلي من بعيد وصوت الدكتور ويلسون يهمس بأذني ناصحاً:

- اترك هذه الجدران.

حينها أخبرت جدتي بنيتي في مغادرة المنزل لساعات. أطفأتُ ضوء الغرفة وحملتُ حقيبة كتانية حشرت بها حاجياتي ثم ركبت سيارتي متوجهاً إلى جبل (نيبو) وفي البال يعلو صوت السؤال الكابوس (لماذا كانت تلك التهمة التي خسرت بسببها كثيراً من ذخائر الحياة)؟ بينما في مسامعي صدى لعويل الذئب وهو يجيء حازّاً نياط القلب بعوائه الجارح.

* * *

استسلمت السيارة للطريق المنطلقة من مادبا تمر بجبل نيبو ثم تكمل امتدادها نحو الغور. بدت لي وهي تقسم حقول القمح والخضروات إلى نصفين، لولبية تنسلّ من بين أشجار سرو وصنوبر وحشائش متناثرة نبتت على طرفيّ الطريق كأنها شَعر امرأةٍ انتهت للتو من شهيق اللذة. إنه "نيبو"، جبلٌ يقف في بهو الهواء يحتفي بالسّهو كما يقف في بهو قلبي شرفةً للحنين بسطوته التي لن تغادر مخيلتي بسهولة. راح المطر الناعم في ذلك الحين يرشق الكائنات بهواجسه الحانية والسيارة تتمايل في الطريق بهوادة فبدت الأشجار والبيوت أمام ضوء السيارة الساطع كأطفال يلهثون إثر لعبٍ طويل تحت المطر، وكانت مادبا ورائي تنتشي تحت الرذاذ. عبر الطريق كنت أعلم أنني ذاهبٌ إلى الجبل أشيلُ قلبي بيديّ المليئتين بالشوك، ذاهب إلى الجبل أشيل سنين عمري في وقت ليس ككل الأوقات التي ذهبت فيها هناك لأطرد شبح الملل وأحوّش غمام المسرّات وهي تتمطى في هواء التمني فكلما أحكمت العزلةُ عليّ قبضتها،أسرع للجبل كأنه كائن حيّ يصغي إلي باهتمام الطاعنين في الحكايات فالأماكن المرتفعة عند خاصرة الريح تأخذك من رسغ قلبك وتمنحك فرصة أن تبوح كأن سكان الذاكرة لا يحلقون إلا في الأماكن العالية.

في ذلك اليوم دبّ الليل باكراً في بَدن الكون على عجلة من أمره، تماماً كما يسري سائل أسود في قماش أبيض وكأن الجلبة التي تحدث في النهارات لم تحدث قط. لا يبدو من الأشياء

سوى ملامحها وهي تغرق في تلك اللحظات الانتقالية بين ضوء النهار وعتمة الليل. وحشة ما اعترت الأشياء واعترتني فتنهّدتُ أستجدي قليلاً من توازن ينتشلني من روتين ذلك السخاء في الوجع. شغّلت مسجلة السيارة فانطلق صوت (اندريه بوتشيللي) كحارس راح يحمي جبين القلب الذي ينزّ فيَّ عَرَقاً منحه لظى اشتعالات تحدث دون أية قدرة على إيقافها. "بوتشيللي" هذا الذي يعْرف كيف يهدهد قامة قلب يتلوى ويتنهنه منذ عمر من الأسئلة وزمن القلق.

"وكأن النَّهْنَهَة تلك التي تَسْبق الدَّمعة ما هي إلا موسيقى يؤلفها الحزن، ويؤديها الوجع"

كلما أوغلت السيارة في الطريق التي تعلو وتهبط مثل أنفاس حالم يكابد تبدل الصور في مرآة حياة لا تمنح عطاياها بسهولة نتخيلها ونحن عند الاشتعالات الأولى للحب، رحت أوغل في التساؤل بوجع، كيف سيكون شكل الحياة دون أسئلة! وأنا أدرك أنها ستستحيل رتابة لا يحتفي بها سوى الموت، رتابة لا يقف ضدها سوى أسئلة من شأنها أن تشعل في بدن الحياة الإجابات التي إن غابت ستتلاشى الملامح التي فتشت عنها عبر سعاد بنهم من يسرع في خطواته المنهكة نحو السراب. خلفت ورائي القرية المتاخمة للجبل وانحدرت السيارة عبر الطريق التي تنساب بيسر فأطل نيبو وهو يسرح بصره ساهماً في المدى كما عرفته منذ سنين بعيدة. ما هي إلا دقائق قليلة حتى وصلتُ لأكتشف أن الجبل

في ذلك المساء الشتائي خال من روّاده. أولئك السهارى الذين اعتادوا أن يحملوا أغنياتهم ونبيذهم وحبيباتهم وقصائدهم وضجرهم إلى حيث يعانق الغيم رأس الجبل باشتياق. كانوا يلوذون المدافىء التي تنطلق أدخنتها من أسطح البيوت كقامة مارد يشق بطن السماء. كانت درجات الحرارة آنذاك قد هبطت إلى حيث يخلو العراء إلا من واحد مثلي يشكو البرْد والعطش منذ لثغته الأولى وكان الرذاذ قد توقف عن منح ارتعاشته الموسيقية.

ركنت السيارة في آخر مكان يمكنها أن تسير فيه وقد أنّت أنيناً يأتي في العادة بهكذا وتيرة حينما نصْعد مكاناً عالياً يصلح للبوح. ترى هل ذهبتُ في ذلك المساء إلى الجبل لأبوح؟ ترجلت من السيارة أحمل حقيبتي ثم قطعت مسافة طويلة انتهت عند صخرة كبيرة اعتليتها وجلست هناك استعين بما تبقى من شفق كشف لي ملامح البحر الميت والغور. ما هي إلا لحظات حتى ذابت آخر أنفاس الضوء قبالة عاصفة العتمة التي قرأت بيانها الأول في تلك الليلة حول الكنيسة التي استراحت على رأس الجبل ككهل أتعبته المسافات فأراح بدنَ التّعب، تناثرت أضواء كأنها جنود يفتشون الجبل عن هارب ما. إنه جبل "نيبو"، حيث وقف النبي موسى مشيراً إلى أرض الميعاد، بقعة شهدت مرور القساوسة وأعادت فيها قبائل مسيحية بناء الكنيسة في القرن السادس عشر، بعد أن هجرها أهلها لحروبٍ دارت على ذلك الجبل، كنيسة يقف في مقدمتها صليب معدني تلتف حوله أفعى

ضخمة. الجبل الذي كلما وجدتني أتفصد من ذاتي كحجر تحت ألسنة النار، أهرب إليه أرخي أشرعتي التي أتعبها صدامها مع الرياح وأدلق كل ما بي على محمل البوح فالجبال أمكنة عادة ما يصبح مرتادوها أقرب إلى الله فليس الأنبياء فقط من يلوذون بمحراب الوصال، إنما الحالمون أيضاً، يمكنهم أن يشجوا صدورهم هناك لتفر عصافير بوح الشجن من أقفاصهم الصدرية. لعج في المدى برق كان قد لامس صدر الأرض ثم تبعه صوت رعد بدد صمتاً كنت قد استغرقت به منذ اعتليت الصخرة الكبيرة. قطرة قطرة، بدأ هطل المطر يزداد حتى أصبحت الرؤية مشوشة. رغم اختلاط الجهات عليّ في تلك اللحظة، إلا أنني كنت قد نويت أن أعود للسيارة حتى أتفادى عاصفة رعدية بدا لي أنها قد حلت للتو. خطر لي أن تكون عجلات السيارة قد غارت في الوحل وأن أمر ركوبها بات متعذراً في ذلك الوقت فعدلت عن فكرة العودة. راحت العاصفة الرعدية تزداد وأنا لا أجد سوى الصخرة أحتمي بها من قصف الطبيعة لجسد الأرض. ثمة تجويف صخري تذكرته وأنا أهم بتخمين مسافته القريبة من مكاني، حينها ركضت وسط تلك العاصفة أفتش عن ذلك التجويف والريح تكاد تحملني معها وهي تعصف بكل شيء. مرة واحدة وبعد أن قطعت مسافة لا بأس بها، غابت العاصفة كأنها لم تكن فتوقف هطل المطر وقصف الرعد وإضاءات البرق الأسطورية فتوقفت عن الجري وأنا ألتقط أنفاسي وجسدي يتقاطر ماءً. اجتاحتني رغبة عارمة

لسيجارة فأشعلت واحدة ورحت على مهل أفتش عن ذلك الملاذ وأنا أمشي بخطوات مترنحة سببها الأعشاب الغضة الطرية التي احتضنت الماء في أبدانها تُحدثُ الانزلاقات. كنت أسير حذراً بين الحشائش البرية، نثار الصخور والانعطافات الترابية أحمل حقيبتي التي احتوت على إبريق شاي، زجاجة ماء، علبة سجائر، أوراق، قلم، مصباح، بضعة أرغفة من الخبز، أقراص جبن، حبات بندورة، وعلبة حليب لتثبط آلام المعدة إضافة إلى هاتفي، حاسوبي. وصلة إنترنت لاسلكية ومسجلة يمكنني عبرها أن أصاهر روحي بماء الأغنيات.

قبل أن أصل الملاذ الذي قادني له قلبي في تلك الليلة، عادت العاصفة الرعدية تمارس إبادة عطش الأرض بطريقتها الخاصة فركضت لعدة أمتار ثم وجدتني داخل كهف صغير تناثرت به بضع حجارة وبضع أوراق وأغصان شجر يابسة. ثمة دفقة من خوف ألمت بي لكنها تبددت بعد أن قمت بتنظيف ملاذي لتلك الليلة مبقياً على أغصان الشجر الناشفة التي احتضنتها كأنني احتضن سعاد وأنا أهجس بالدفء وفي شهيق القلب طقوس البرد والصقيع الذي يأتيني عادة عندما أقع في الدائرة التي لا تحيلني إلى إجابة ما.

في حفرة صغيرة حشرت الحطب وأشعلته لتفر العتمة أمام وهج النار الذي آنس المكان وآنس جانباً من روحي، إذ لا تصير الملاذات الصخرية في هكذا أوقات يختلط فيها المطر بالبرد ولسعة

الريح مكاناً آمناً من جنون الطبيعة فقط، إنما ملاذاً من وحشة القلب أيضاً تماماً كحضن الحبيبة في ليالي شتائنا الداخلي. انتشر الدفء في الملاذ وجفت ملابسي من مطر العاصفة فرحت أخرج محتويات حقيبتي ففرشت بطانية وتركت أخرى مطوية على هيئة وسادة دون أن أعي أنني سأمضي تلك الليلة الغرائبية كلها هناك أتعبد في محراب حبّ لعج في عتمة روحي كبرق كوني. تراجعت العاصفة إلى الوراء قليلاً مبقية على رذاذ خفيف كان يتساقط بإيقاع يشبه سقوط سكّر ناعم على رأس اللسان، يرشّ اللوعة لي، أنا البدوي الذي يفرد لـ"نيبو" قلبه ككتاب يحفل بالكلام.

أكلت النار ما عثرت عليه من حطب في الملاذ فخرجت أجمع من بين شقوق الصخر ومن التواءاته التي لم يطلها الماء أعواداً، جذوعاً لأشجار جافة وحشائش خلفها الصيف الفائت الذي كان حارقاً تماماً مثل هذا الشتاء البارد. كان صيفاً حارقاً كحبها الذي وشم قلبي برموز لا أسعى إلى فك طلاسمها، بقدر ما أسعى إلى الحالة التي يصبح العالم في كفة ميزان وهي بالكفة الأخرى.

انداحت روائح الزعتر، الحندقوق، الجعدة والشيح، انداحت في هواء الجبل عندما ضمخها الماء بلثغته التي تتجدد مع كل هطل كأنها لثغة أولى. قبل أن أعبر إلى الملاذ الصخري، عبأتُ رئتيّ بسطوة ذلك العبق وعدت لملاذي ثم رحت ألمّ شمل أعواد الحطب فجعلت بعضها تتجاور كما تتجاور أجساد عشاق يطلُّ عليهم قمر خجول في سرير العشب ونثرت فوقها أعواداً أخرى بشكل

عشوائي كأحاسيسي التي أفتش عن يدي لتلمها من جديد ثم جعلت جذعاً ملتوياً ينبطح على تراصهم كفكرة كبيرة مختزلة. ما أن زدت الحفرة التي تبقى فيها شيئاً من الجمر حطباً واشتعلت به شهوة النار حتى أطل عليّ وجهها ينهر الذكريات والحنين بعصا اللحظة. النار شيءٌ يحاور على مهل أشياء جوايّ ما خبت منذ نبضتي الأولى فبدأ لسانها الأحمر يسري في جسد الحطب وينهض من قامته مراراً وقد دّبت في المكان الذي لطخه الليل بفُرشاته السوداء، شهقةُ الضوء، بينما جسد الحطب يمنح ذلك الصمت طقطقة توقظ في البال حمّى الحنين لحضنها الذي كان يعوزني في لحظة عطشي.

أدرت مفتاح المسجلة كمن يصوب مسدساً نحو شبح غامض فراح صوت "أندريه بوتشيللي" يتقافز على ألسنة النار كمثل الهباب الذي بدا كروحٍ وهو يتطاير من جسد الخشب صاعداً في فضاء الكهف. إنه صدى الأشجار التي أمضت عمراً في الاخضرار ثم سكنت في مخدع اليباس. جهزت إبريق الشاي ووضعته على ثلاث أثافٍ فلفحته النار من الأسفل تستحثه على الغليان. من شباك المسجلة، ظلّ صوت (بوتشيللي) كملاك طيب يمسح المكان مثلما تمسح العاصفة وجه الأرض بعدوى الحنين ويمسح قلبي بيدٍ تعرف جيّداً مكامن الجراح والكدمات والحروق. بوتشيللي ذلك الملاك الضرير، مَن رأى بقلبه ما لم تره العين. أحبُّ تلك المسحة الغمامية في صوته الذي كلما سمعته كأنني أسمعه للمرة الأولى ومع

كل ارتشاف لتحليقاته تنبت ريشة في أجنحة خفية لي. بقي الظلام يهجم من كل حدب وصوب بلا تردد، إنها سلطة الأسْود التي تمارس راديكاليتها بامتياز في تلك الليلة بحيث يصير هذا الكهف الصغير الذي أنزوي فيه، ندبة في وجه الليل، بينما النار تخفق كقلب مترع بالوجع وإحساس جوّاي يستطيب الوحشة ويستلذ بالعزلة. ثمة دموع بدأت تنهمر في الداخل بكل ملحها، تتغلغل في أغوار الجراح، إحساس غريب كان يروح لعالم المعتقل كأنه اشتياق لذيذ سادي لظلمته وصوت الدكتور ويلسون يصرخ بي متوسلاً وهو يثنيني عن هكذا إحساس ويتوسل زمن المعتقل بأن لا ينمو من جديد. المعتقل الذي لم أكن أعي أنه مكان للمنبوذين الذين ما كان ذنبهم سوى أنهم انتصروا لأفكارهم. إنه فيروس يمكنه أن يتناسخ بكل نهم من ذاته، لنحظى بمعتقلات شتى، كل واحد أقسى من سابقه فالمعتقل الأقسى ليس ذلك المكان بجدرانه وأسلاكه الشائكة وحراسه وقوانينه، بل إنه الحياة التي ما أن تترك وراءك سنين الاعتقال حتى تكتشف أنها لم تنته كما زعم عقلك الذي بقي يحاول أن يتجاوز الجدران العالية. إذ تصبح الحياة محض سجن كبير. إلا من معجزة كالتي يخلقها حب، إما أن يسندكَ وهو ينتزع من صدرك شوك المعتقل فتدب في أوصالك الحياة، وإما أن تمنح ذلك الشوك صفة الخلود فتصبح مجرد كائن يكابد سجنه الأزلي.

* * *

كانت العاصفة خارج الملاذ تهدأ مرة وتجن مرات، بينما الجبل مستسلما لتلك الحمى التي تجيء بفعل لحظات استثنائية مثل تلك. من حقيبتي أخرجت حاسوبي النقال وضغطت على مفتاح التشغيل وأنا أضعه على رجليّ اللتين كانتا تقتربان من حفرة النار طلباً للدفء. كانت إشارة الإنترنت قوية بحيث يمكنني أن أتصفح ما أريد في واقع افتراضي كان له ميزة مختلفة بين يدي رجل يمضي ليلة في كهف شيدته الطبيعة في ذلك الجبل، لكنني كنت كالتائه أفتش عن سعاد. فتشت خانة الرسائل في كل الصفحات الإلكترونية التي كانت تربطني بها، لكنها لم تجب على رسائلي المتكررة منذ غادرت عمان فأغلقت الحاسوب وأسندت جسدي على جدار الملاذ، بينما أشباح الوحشة تتسلق الجبل صاعدة من الوادي حيث بدأ السيل يقهقه جارفاً معه كل ما علق بوجه التراب.

كانت سعاد من عمق العتمة تطل عليّ وتمنحني ابتسامة تعنون صمتها القاتل وهي تعلم أنني أحتاج ليدها تربت على كتفي لأستعيد أجنحتي التي لا تعود إلا بمهارة حبها في ترتيبي فتصير لي وطناً يحميني من سقوط مدوٍ يحيلني إلى أبشع خسارات لا تتراجع إلا في مواجهة حب جارف كان عليه أن يكتمل لنا فيغدو الحب وطناً آخر لا بديل، وطناً يجعلك تتعايش مع أي خسارة تمنى بها، تماماً مثل مريض ليس لدائه دواء، لكن ماذا لو داهم زلزال هذا الحب ودمّره فتحول إلى ركام في مشهد عبثي لا يمكن لمخيلة أن

تحتمل وجوده في ملفاتها؟ حينها ستحل الكارثة، إنها ليست كارثة تلاشي حب عوّلنا عليه فقط، إنما كوارث الخسارات أيضاً والتي ستستحضر نفسها كما لو أنها كانت نائمة وشيء ما أيقظها.

أشعلت سيجارة ورحت أفتش الحاسوب النقال عن رسالة تأتيني من سعاد ولم أجد إلا رسائلي التي لم يتبعها أي إجابة تُدْلي عليك. رميت بضع أغصان ناشفة في حفرة النار التي صعدت في فضاء المكان تطارد العتمة والوحشة. حينها أنشأت صفحة في الحاسوب ورحت أكمل ما كنت قد شرعت بكتابته:

سعاد - 3

وأخيراً أتت سعاد إلى عَمان.

كانت ليلة الثلاثاء، وكنت أعرف موعد هبوط الطائرة، كأنه موعد مع عملية جراحية تعيد إلى شرفة الروح أملاً بالحياة أنتظره وأنا أراقب السماء من نافذة البيت فالمطار قريبٌ من مسقط الرأس، رأيت الطائرة تحوم انتظاراً لإذن لها بالهبوط فرحت أهجس بها وأنا أخمن كم تحليقة ستنفذ الطائرة، ومتى ستهبط؟ بينما قلبي كان يحوم بمعية الطائرة، تماماً كتلك الطائرات الحربية التي ترافق طائرة تقل شخصاً ما على درجة من الأهمية. منذ أن هبطت تلك العنقاء التي أقلّت امرأة استحوذت على قلبي من وراء بحار الرمل، لحقل قلبي المخضر بعشقي لها وبالتأوهات التي كانت تطلقها روحي، تلبستني مرحلة الانتظار الثانية وهو يصير تَبَخْتُراً على طريق معبدة بالشوك والورود معاً، بينما صوت خفي ينصحني: (عليك أن تضبط خطواتك جيداً وأنت تتمايل في الطريق كي تحمي قدميك قدر ما تستطيع من وخزات الشوك حتى تصل بأقل الخسائر).

باستمرار كنت أراقب شاشة هاتفي النقال منتظراً منها اتصالاً من عمان التي كانت تنتظرها مثلما أترقبها بكل حرقة واحتراق لأن مدينة مثل عَمان لا يمكن فهمها من دون حب مجنون كالذي حدث بيننا فلا تاريخ حقيقي تدونه ذاكرتك للمدن

بلا امرأة تحبها إلى درجة الذوبان الذي يجعلك تتماهى بالريح وأنت ترى كل الأشياء عبر عيني القلب كأنك تراها للمرة الأولى.
انتظرت طوال الليل، لكن صوتها لم يأت كما أردته مشبعاً بذلك الإيقاع الأنثوي الذي ينتشل قلبي من مكابداته لوجع الانتظار:
(أنا هنا يا حبيبي أتنفس ذات الهواء الذي تتنفسه)
أدركت في تلك الأيام أن الانتظار مشي بلا حذاء على حافة سكين حادة. كلما أوغلت به، سطا بي الوجع أكثر فأكثر فأصبت بالخد ر ففي الانتظار تصير الأشياء، كل الأشياء ثقيلة ولها لون واحد ونصبح غير قادرين على فعل شيء كأننا فقدنا حواسنا كاملة فيصير الدماغ والقلب رهينين للحظة لم تأت بعد.
نمت في تلك الليلة كما ينام الموجوع وهو يعاني ضرباً من الهذيان والهلوسة. أخبرتني جدتي أنني كنت أنادي لمرات عديدة وأهذي باسمها كما لو أن حمى أصابتني فأشرعت كل شيء فيّ على مصراعيه كطفل يهذي بأمه في غيابها فأخذتْ في الصباح وأنا متوجه إلى عملي تتحسس وجهي بأناملها وتنظر في عينيّ دون أن تنطق كلمة واحدة. مضت ثلاثة أيام دون مكالمة تخبرني بأن سعاد هنا وأنها أتت لأجلي حتى يصبح الخيال الذي كان بيننا كأغنية رقيقة في عوالم الفيس بوك واقعاً يقدم لي تفاصيله التي يمكن أن تنهر الروح وتمنحها شهوة أكثر للتحليق.
لم تمض تلك الليالي بسهولة يمكن لأي أحد أن يتخيلها. ثلاثة أيام طرقت خلالها كل الأبواب التي يمكنها أن توصل سؤالي وأنا أردد: (أينك)؟

الفيس بوك، بريدها الإلكتروني، جوالها الدولي، كل الوسائل التي يمكنها أن تسمعني صوتها وهو يأتيني كيدٍ تهدهد بي كتف القلق. بقيت دونما إجابة تجعلني أواصل يومي كأي آدمي. وما كان أمامي سوى الريح التي شيّعتُ معها مكاتيب قلبي المحملة بالحب والوجع والخوف من خسارات جديدة، لكنها عادت لتختزل مني ذلك الإحساس بأنها في الأصل لم تكن حقيقة ماثلة أمام قلبي.

كنت في غرفتي أجلس قبالة النافذة وهي تطل على الأفق وفيه قد تمددت غيوم رمادية عندما جاءني اتصالها عبر رقم جديد غير الذي أعرفه:

– حبيبي أعلم أني تأخرت كثيراً، لكن عليك أن تعلم أن أشياء كثيرة حالت بيني وبينك حتى استطعت الحصول على شريحة هاتف محلية تمكنني من التواصل معك.

عندما تغلغل صوتها في مسامعي وبت أدرك أنها حقيقة ماثلة على بعد بضعة كيلو مترات مني، لم أستطع أن أداري أصداء ذلك البركان الذي كان يتفجر في قلبي قاذفاً حممه ونيرانه التي تحرق الجوف وتحيلني إلى أقصى درجات التعب فقلت بما يشبه الأنين:

– رسالة قصيرة عبر ما وفرته لنا التكنولوجيا لن تكلفك سوى قليل من الوقت.

راحت تأخذني نحو جهة تجعلني أهدأ:

– حبيبي عليك تعذرني. ما حدث لي كان أقسى مما يمكنني أن أحتمله.

بقيت تتحدث وتسرد لي ما حدث لها، بينما كنت أهدهد ارتعاشة الانتظار التي كانت تقتلني منذ أن بدأت أحس بحاجة لحذف تلك المسافات الجغرافية الشاسعة بيني وبينها. انتهى القلق الذي كان مرده الخوف عليها وعلى حياتها التي تساوي لي ما يساوي المطر بالنسبة للماء، لكن ثمة خدش حدث في مكان قصي من القلب فأكثر البشر خسارة، هم ضحايا التناقضات، ليس فقط تناقضاتهم الداخلية، إنما تناقضات الذين يعيشون معهم تلك اللحظات التي يحلمون عبرها بالحياة. كنت لا أعمد إلى الاتصال بها، منتظراً مكالمة منها، لكن ذلك لم يحدث. بعد أيام وفي ساعة متأخرة من الليل، اتصلت بها. كان هاتفها مشغولاً بمكالمة أخرى. بعد ساعة جاءني صوتها معتذراً وشارحاً حجم التعب الذي تعانيه وأنها لا تستطيع الحديث إليّ في ذلك المساء. نمتُ تلك الليلة، وأنا أعاني مشاعر غامضة، تجتاحني، مشاعر قوضَت نومي وأجبرتني على الاستيقاظ في الرابعة فجراً مصاباً بالقلق وبالأرق اللذين كانا يشيعان بي الوجع.

سطوتها في تلك الليلة الساكنة الخرساء، جعلتني أعاود الاتصال مجدداً وأنا مصاب بحمى تفتك بالقلب لأني أعرف أنها لا تنام باكراً كعادتها فوجدت هاتفها مشغولاً بمكالمة ثانية. أقفلت الهاتف وعاودت الاتصال كل ساعة لأجد مكالمتها تستمر حتى طلوع الفجر دون انقطاع تهدئ عبره من ألسنة النار التي تشتعل جوايّ بجنون. ردة فعلي في تلك الليلة كانت صراعاً داخلياً بين

خالد الصديق الذي يمكنه أن يهدهد فيها كتف التعب وبين خالد الحبيب وما بينهما مجتمعين وبين الشرقي الذي يقبع جواي مقيداً بقيود الوعي تارة، وبين الوعي ذاته تارة أخرى. مضت تلك الليلة وأنا أكابد مشاعر غريبة كادت تخنقني وتضعني أمام مرآة تمنح وجهي شوكاً قاسياً. في الصباح، عندما جاءني صوتها معتذراً كنت منهكاً:

- حبيبي كنت أتحدث لأخي البارحة، هناك مشكلة حدثت.

كانت تقولها بلكنة باردة مشوبة بالتعب بسبب عدم نومها طوال تلك الليلة.

- لا بأس يا حبيبتي. المهم أنك بخير.

- أحاول أن أكون بخير.

ثمة كلمات مقتضبة انتهت بعدها المكالمة فرأيت قامة العاشق جواي تفرّ من قيدها وتطلق صراخها الذي لاحت ملامحه على وجهي. كانت قد ضربت أكثر من موعد لنلتقي، لكن المواعيد تتأجل بسبب الأيام التي راحت تراها فيما بعد أسوأ أيام حياتها بسبب تلك الأزمات التي حدثت، لكن بعد أيام جاءني صوتها عبر الهاتف مشوباً بالهدوء:

- حبيبي هل لديك عمل هذا المساء؟ هل أنت منشغل؟ دعنا نلتقي ودعنا نذهب إلى جبل "نيبو" أريد أن أراك هناك. هل تعرف يا حبيبي ما معنى أني أريد أن أراك هناك؟ أريد أن أراك وأرى "نيبو" لأتلذذ بكل كلماتك التي كانت تولد بحضن هذا الجبل.

مع كل كلمة كانت تنطقها ثمة وردة تنمو بباطن كف القلب إلى أن رحت أسمع حفيف الاخضرار في مكان قصي من جسدي.
حينما أتت بقيتُ ساهماً للحظات وكأن هناك حالة تماهٍ وتقاطُعٍ بين صورة رسمتها لها في مخيلتي وبين حضورها الطاغي أمام عينيّ اللتين ترمقانها بكل دهشة. ثمة ارتعاشة للذاكرة تشبه محاولة تذكر فاقد الذاكرة لشيء ما حدثت لي في تلك اللحظة. إحساس ما راح ينبئني بأنني رأيتها ذات يوم، لكنني أقلعت عن الإمعان بذلك الخاطر الذي فاجأني وأنا أراها تمد يدها للسلام فاحتضنت يدي يدها وأنا مصاب بدهشة اللقاء. حينها سحرني فستانها الأزرق كأنها تعلم أن اللون الأزرق هو خالق دهشتي إذ بدا لي تحفة فنية وهو يلتف حول جسدها الذي كان باذخاً أكثر مما يمكن لرجل مثلي مصاب بالعطش أن يحتمل كل تلك الأيام التي تراكمت في قائمة الغياب إذ هبط الفستان بزركشاته من على كتفيها ثم انفتح قليلاً عند صدرها وهو يلوح لي حنوناً يعلن عن غواية لا يمكن أن تكون لأي أنثى بكل ذلك الألق الذي رأيته ثم ضاق من عند خصرها كما لو أنها امرأة لم تقطع شوطاً في العمر حتى تطأ الأربعين، عمر برهنت الطبيعة لي أنه العمر الذي يمكنك أن تشم الوردة فيه بكل روية وتدرك ملمسها بصدق متطرف تماماً كما تدرك كم عبث بدواخلك عطرها الذي يصير مع تراكم الأيام عصياً على النسيان، عمر تكون فيه هادئاً وأنت تعرف لمجرد ملامسة الأشياء أنك بغير الحب لا يمكنك أن تعيش حياة

حقيقية تقودك من أنامل قلبك نحو الكوة التي تطل على آلهة يطبخون الشموس ويمنحونها على أهبة الضياء.

بدت تسريحة شعرها كقصيدة نثرية ليس أمامها أي عقبات للقول. عيناها اللتان كانتا تبرقان كأنهما كلمتان جميلتان قيلتا منذ أمد بعيد، وما تزالان تعيدان إنتاج إيقاعاً جميلاً يتكرس مع الزمن موسيقى أصيلة. رائحة عطرها أطلقت بي صرخة دهشة كادت أن تنهر الدموع من محجريهما بفعل كل ذلك الجمال فأدركت أن العطر ليس مجرد سائل يرش على الجسد، العطر الذي نشمه ليس ذلك العطر الذي اشتريناه من المتجر وهو سجين لزجاجة مشفوعة برسومات وزركشات وبضعة أحرف وكلمات، العطر هو الإيقاع الذي يمنحه الجسد تحية لذلك الرذاذ الذي هبط على المسام، تحية لأجل أرواح الزهور التي أزهقت لأجل لحظة نشوى وهنيهة فرح، تلك التحية التي عادة ما تجيء على شكل شِعْر كيميائي. إنها كيمياء الجسد، التي تعرف كيف تعيد إنتاج الأشياء الجميلة فليس كل جسد يمكنه أن يرحب برذاذ العطر كما ينبغي، إنها فقط الأجساد التي يصيبها العشق ويفتك بها.

وأنا أقف أمامها مأخوذاً بها، كانت تراودني رغبة بأن أحتضنها. اقتربت نصف خطوة فكشفت سري وجمحت جنوني بابتسامة لطيفة:

– الناس حولنا. أعرف أنك لا ترى أحداً الآن سواي، لنؤجل العناق.

اكتفت بمصافحتي ثم راحت إلى الجهة الأخرى من السيارة وجلست ترغب بأن أقود السيارة، لكنني كنت في تلك اللحظة حريصاً بأن لا أضيع أي ثانية بما يمكن أن يشغلني عن رؤيتها فتذرعتُ بحداثة السيارة وعدم قدرتي على قيادتها. قلت ذلك وأنا أدرك ما في تصرفي من أنانية غريبة لم أستطع تجاوزها. ونحن نتوجه إلى "نيبو" والسيارة تتبختر على طريق تخلصت من زحامها، كنت أراقبها بشغف غريب كأنني أتلذذ بكأس نبيذ معتق يمنحني نشوة آسرة وكانت تارة تنظر إلى الأمام لتبقي السيارة في مسارها، وأخرى تنظر إليّ بينما يدي تحتضن كف يدها الذي كان حافلاً بدفء صار إزاء فصل الجليد الذي تشكل بي كمقاتل عليه أن يبذل جهده كي يحظى بالنصر. لقد كانت لحظة استثنائية لم تحدث لي من قبل، لحظة عمّرتني بكل تلك السعادة وأنا أحس بأن تلك المرأة لي، لي وحدي، بعيداً عن عوالم بيتها، عملها وماضيها إذ يصير العاشق في مرحلة من مراحل عشقه مرهوناً لمزاج طفل لا يود لأمه أن تبارح مكانها القريب منه. إنها ليست عقدة التملك، إنها تلك الحالة من التشبث الشديد بحياة لا تحدث إلا حين يقع الواحد منا أسير حب إما أن يقتله بكل برودة العواطف، أو يحييه بكل ذلك الاشتعال الذي يجيء من مسيرة الوصول إلى تلك النقطة المتوهجة.

كانت السيارة تسيل على صدر الطريق، بينما يدي الأخرى تتسلل إلى شعرها تتخلله، ثم تمسح جبينها، ووجنتيها، إلى أن

استقرت أناملي على شفتيها وهي تطلق ابتسامة لذيذة لا يمكن لأي امرأة أن تنشرها على وجهها دون الاحتفاء بأنوثتها بشكل مطلق. لقد كانت ترخي العنان لمزاجها الأنثوي، بحيث صار كل شيء استثنائي له طعم آسر. السيجارة التي كنت أنفث دخانها بتلذذ عميق، عطرها الذي كان يمنحني أجنحة حرية للتحليق، الموسيقى التي كانت تتبختر بيننا كغيمة على أهبة المطر. كلما ابتعدت قليلاً دون قصد عنها، تهمس بهدوء كأنها تكابد انفعالات جوانية يصعب شرحها:

– لا تبتعد، حبيبي ابق ملتصقاً بي.

كان "نيبو" والسيارة تتبختر في الطريق راكضة إليه قد أشعل نجومه للتو ورفع ياقة القمر فبدت ملامح الأشياء فضية، بينما أطلقت الريح تنهداتها المسائية مرة واحدة فأشرعتْ نوافذ السيارة وراحت تعبّ نفساً عميقاً من الهواء وتردد بما يقترب من الغناء:

– ما أجمل هذه اللحظات التي تحتفي بها الجبال.

وأنا مثلما كانت تعبّ روحي نفساً عميقاً من عطرها الأثيري، ومن زخات الموسيقى، رحت أعب نفساً عميقاً من ذلك الهواء الذي كان طازجاً حد الدهشة فرحت أشهق بمعيتها كأنني أجيء الجبل للمرة الأولى حيث صار لي أن أدرك في ليلة مثل تلك أن ما من رؤية حقيقية لمكان يصلح للذكريات أكثر رهافة من تلك الرؤية التي تحدث للواحد منا بمعية امرأة تحبها بعمق كشهيق الصوفيين في رؤوس الجبال.عندما ترجلنا على قمة "نيبو"، كان

القمر قد مسح الكائنات بفضته فبان كل شيء كتفاصيل نهار لطيف حفل بضوء مصاب بالخدر. على طرف المنحدر، وقفنا نسرّح البصر بالمدى الذي رقصت به أضواء فلسطين تماماً كصبية يلعبون مع الليل لعبة كرة من نجوم. قالت وعطرها يلفح خدّ وجهي ويثير بي الشهقة:

- السماء هنا صافية كأن النجوم والشهب ما خلقت إلا لهذا الجبل.

التصقت بكتفها فمنحني حرارة اللمسة كأن جسداً مليئاً بالعطش يتكئ على نهر ملّ فكرة التدفق ووقف يتأمل الأشياء. قالت بصوت هادئ تتخلله شهقة حزن واضحة:

- فلسطين ليست بعيدة من هنا، إنها على مرمى شهقتين وعلى مرمى دهرين في الوقت نفسه.

تركت ليدي حرية أن تطوق عنقها، وأنا أحس بأنفاسها تتصاعد من عميق صدرها، ثم أشرت بإصبعي إلى فلسطين:

- هناك دم أبي الذي ما كان يحب بندقيته، إلا لأنه يحب الحياة التي كان يرى أن ما من أحد له الحق في أن يسطو على حق آخر فيها. عندما عاد ذات مرة من إحدى غيباته الطويلة في معسكره، أخبرني وهو يمسد شعري في فراش النو أنه لا يحب البندقية كما يمكن لصغير مثلي آنذاك أن يفهم شكل ذلك الحب. حينما كبرت ورحت أقلده وأنا أقف أمام المرآة أحلق ما تناثر في وجهي من الشعر، أدركت ما كان يرمي إليه جندي مثل أبي.

مشينا بضع خطوات ويدها تعانق يدي ورحنا نتبادل نكات خفيفة تجلب ضحكات متقطعة ثم جلسنا متلاصقين. أشعلتُ سيجارتين لنا ورحنا ندخن، حينها أطلقتْ آهة كادت تصير غيمة تذرع المدى على مهل ونحن نفترش التراب. ما أن احتضنت يدي يدها مرة أخرى، حتى أصيب قلبي بدوخان لذيذ أعدى جسدي بأكمله فأخذ صدرها يعلو ويهبط وقد التصقت بها وأناملي تلامس وجهها الذي لاح تحت فضة كان القمر يمنحها للكائنات كنوتة موسيقى صاغها جبليّ لامس قلبه العشق فراح يحلّق كما ينبغي لمن امتلك جناحين حريين بالتحليق. ثمة مساء رائق انساب صداه في عينيها تبدى لي عندما اقتربت شفتاي من فمها وقبلتها للمرة الأولى فاحتضنتني وأنا أوغل في إيقاع القبلة وقد صار النفس واحداً، واختلط الرضاب بالرضاب. أرخيت رأسي على كتفها ورحت أنصت لما تقول:

- عندما وطئت قدماي تراب هذا الجبل وصرتَ على مقربة نبضة مني، شعرت أكثر من ذي قبل أنك لي وأنني لا أمتلك الرغبة بالعودة للبيت فأنا أخاف من واقعي يا خالد، ومن حياتي التي صارت بلا معنى وأنا بعيدة عنك وقريبة من رجل لا يراني. منذ اللحظات الأولى وأنا أتساءل: هل كل ما أحمله من عاطفة تكاد تأخذني حيث تسطر الطيور انفعالاتها، هي لك.؟

احتضنتها ورأسي يلامس نهديها الوافرين، بينما رأسها يرتخي على رأسي كشجرة ترتخي على كتف النهر. قالت حينها:

- ابق كما أنت منساباً على صدري، أنت لا تعرف كم أحبك الآن. إني أحبك إلى الدرجة التي بت أخاف فيها أن تضيع مني كأنك لم تكن وأريدك إلى درجة أرغب فيها أن أنهض الآن وألقي بي بحضنك هنا في حضرة "نيبو"، هذا الجبل الذي منذ عرفتك وأنت تتحدث عنه.

أخذت تشم شعري، تتكلم بنغم كما لو أنها تردد كلمات لأغنية تصيبها بالدوار:

- حتى لشَعرك رائحة تصيبني بالحب، كما أصابتني كلماتك في البدء بذلك الدوخان الآسر.

صمتت قليلاً ثم عاودت الحديث كأنها تقرأ أفكاري:

- هل قرأت ما قاله فرويد بشأن الحب؟

لم تنتظر إجابتي فراحت تقول وكأنها تطرد أي هاجس يمكن أن يساور قلبي:

- فرويد يقول أن الحب هو الجنس بحد ذاته وأنا أؤمن بذلك، أؤمن أن الحب بلا فسحة زمنية يمكننا عبرها أن نتذوق طعم ذلك الصدى الذي تنتجه رغباتنا، ما هو إلا ضرب من طقوس الوهم.

تذكرت في تلك اللحظة ما قالت لي في ليلة من ليالي "الفيس بوك" بأنها لا تحتفي بذلك النوع من الحب الذي يحفل بكل تلك الطقوس الكلاسيكية من وجع الفراق، لهفة الوصال، والمكابدات الليلية لطيف الحبيب. تحدثت مطولاً عن شكل الحب في الغرب الذي لا يحفل بكل طقوسنا الشرقية، التي ترى الحب حالة أبدية

مهما قطعت نياط القلب أو أعطتها الحياة. شعرت أن لها رغبة لحديث متواصل، لذلك كنت أتحدث بكلمات قصيرة لا تعيق انسياب كلامها:

- خالد، مجرد لمستك هذه تجعلني أحس بأننا شيء واحد وأنني معنية أكثر فأكثر بأن أبرهن لك كم أنا امرأة صارخة الأنوثة. طالما تهيبت من اللقاء الأول بك، خفت أن أكون في حضرة رجل غير الذي عرفته عبر كلماته في البدء، لكنني تأكدت الآن وأنا أحتضن رأسك على صدري أنك أنت، أنت من أحببته قبل أن أعرفه. صدري الذي يحتوي قلباً سيبقى مشروخاً كلوح زجاج إن غبت من حياتي التي صار لها نكهة كدت أصدق أنني ضيعتها قبل أن أفكر بك وأعرفك. صدري يشتهي شفتيك لكي ينداح في روحي الحب أكثر فأكثر، لكنني سأترك الرغبة للمؤجل وأحتفي بالحب الذي جاء بي من بلاد قلما تحتفي بحب من هذا النوع.

أشعلت سيجارة ثم عاودت الحديث ورأسي يستريح على صدرها تماماً كغيمة تستريح على صدر سماء زرقاء صافية:

- أتعلم يا خالد بماذا أفكر الآن؟ إني أفكر بالأيام التي انسابت من بين أصابع العمر كحفنة ماء والندم يصفع وجهي. أتساءل كيف سمحت لنفسي أن تمضي تلك الأيام دون احتفاء بأنوثتي، التي ضاع جزء منها سدى. هذا مؤلم يا حبيبي لأنثى ترغب أن تعيش وفي اللحظة نفسها عينها على رزنامة العمر وكم تبقى منه.

صمتت لقليل من الوقت، همست:

- سأخبرك يا خالد بما لا تعرفه عني. ما أتذكره أنني ولدت لأب فقير من أصول فلاحية وأم طيبة ومثقفة من أصول مدنية وبين عدد من الإخوة والأخوات؛ ولدتُ في حيّ شعبيّ في قاع المدينة، ذلك الحي الذي تتلاصق فيه البيوت إلى درجة يمكن للواحد منا أن يسمع مثلاً تنهيدة قادمة من بيت الجيران، حيث لا أسرار يمكنها أن تبقى دفينة كما ينبغي فيمكنك أن تسمع صوت امرأة تتأوه باللذة يأتي عبر نافذة لا تفصلها عن النافذة الأخرى إلا سنتميترات قليلة، صوت أم تشكو ضيق الحال عبر شتائمها الكثيرة وهي توجهها لأولادها الذين يوغلون في مطالبهم البسيطة، صوت رجل طاعن في السن يقرأ القرآن بخشوع ينهر الدموع في مخابئها، صراخ صبية يطاردون بعضهم البعض وهم يلعبون "الاستغماية"، صوت شاب يدندن بمعية أغنية تفيض بلوعة الحب، صوت خشن لرجل يضرب ولده الذي أمضى نهاره بمعية "زعران" الحي، صوت باعة الخضار المتجولين وهم ينادون بأصواتهم الجهورية مروجين لبضاعتهم وصوت أبواق السيارات التي تبيع اسطوانات الغاز.

إنها تلك الحالة التي أنجزتها قوانين تتعلق بهندسة الأحياء الشعبية، قوانين خالفت تلك القوانين في أحياء الأثرياء، حيث يمكن للجيران أيضاً بكل سهولة أن يقرأوا أي تفصيل من تفاصيل أي يوم من أيامنا تماماً مثلما نعيشها نحن. فالبيت الذي نشأت فيه، مليءٌ بالضجيج. صراخ أخوتي وأخواتي وهم يلعبون، يتخاصمون،

ويستعجلون الطعام، صوت أبي عندما يستشيط غضباً بسبب سوء الحالة الاقتصادية، صوت أمي وهي تتذمر لكثرة الأعمال المنزلية وشقاء السنين التي لا تأتي بما نحلم به ببساطه، صوت التلفاز القديم وهو يبث نشرات الأخبار التي يصرخ عبرها القادة العرب لجماهير عطشى للحياة.

الحياة في الأحياء الشعبية يا خالد ليست كما يظن البعض دوماً جميلة بما أنها تخلو من تلك القطيعة التي تتميز بها أحياء الأثرياء، وليست دوماً رديئة بما أنها تحفل بتلك الحميمية بين أناسها وحتى عابريها. كثير من الأشياء قابلة للاستعارة، الخبز، الملح، السكر، نكاشة بابور الكاز، الملابس، مفرمة الملوخية، رأس بصل وقليل من الزيت، حتى أحمر الشفاه وقمصان النوم يمكن استعارتها لليلة الخميس، أناسها فقراء وطيبون ولكنهم سرعان ما يختلفون، إذ أن كلمة واحدة قد تكون الشرارة الأولى لمعركة ضارية تسيل فيها الدماء ويسقط فيها الضحايا تولول فيها النساء، يغيب فيها الشبان في السجون ليعود بعضهم تائباً، نادماً، ويعود بعضهم شرساً وقد تحول إلى عاطل عن العمل يحمل على خاصرته خنجراً يخرج بكبسة من الإبهام أو شفرات حلاقة يخبئها حتى في فمه ويستخدمها حينما تشتعل نار المعركة التي عادة ما تكون لفرض السيطرة في الزقاق، تلك الأماكن التي تنتشر فيها المخدرات، الحشيش، علب "الآغو"، اللواط، والتخطيط لمختلف أنواع السرقات.

كانت والدتي بحكم تربيتها تحب القراءة والموسيقى رغم تعبها من سياط الفقر وانشغالها بعائلة كبيرة أهلكت بدنها مبكرا، فماتت وهي تحلم بحياة أكثر هدوءاً. عادتان ورثتهما عن والدها الذي كان متعلماً في ذلك الوقت، لذلك حدثت لي تلك الألفة مع الكتاب منذ الصغر. فرأيتني أهيم بروايات إحسان عبدالقدوس، توفيق الحكيم، نجيب محفوظ. تولوستوي وديستوفسكي. كان أكثر ما يستهويني في تلك الروايات تلك المشاهد التي إلى جانب تصويرها لمعاناة الناس تصور الحب وتشرح تلك اللقاءات العاطفية بين العشاق فأدركت في تلك الأيام أن الحب قادر على تجميل وجه العالم وتهذيب أي نفس إنسانية، تماماً مثل الأدب والموسيقى. لم تكن أمي لتمانع هيامي بتلك العوالم رغم عدم رضى أخوتي عن علاقة بنت بمثل تلك الكتب يمكنها حسب رأيه أن تفسد أخلاقها فالأخلاق في الأحياء الشعبية كانت وما زالت مفهوماً ينحصر بجسد المرأة ورغباتها، بل حتى في غشاء البكارة، رغم أنه صار في الوقت الحالي يباع في الأسواق حيث يستثمر أصحاب الثقافات الأخرى مفاهيمنا نحو الحياة فحرية المرأة دوماً كانت محط خلاف بين أمي وأبي وبالتالي بين أخوتي وأمي. كان عليّ أن أبقى تلك البنت المطيعة لكل ما يطلبه الذكر. اجلبي لي كأس ماء، حضري الشاي، أريد أن "أتغدى، أتعشى" أتناول طعام الإفطار، ضعي منديلك على رأسك، هذا البنطال ضيق، هذا القميص مفتوح عند النهدين، لا تقفي عند

النافذة، لا تتابعي هذا المسلسل الذي يتضمن مشاهد حميمة، لا تتأخري بعد انتهاء وقت المدرسة، ممنوع أن تذهبي لأي صديقة، ليس كل الصديقات مسموح لهن بزيارتك، البنت رأس مالها أخلاقها. في الوقت الذي لطالما رأيت أخي الأكبر يعانق بنت الجيران في الزقاق ليلاً ويلعق نهدها من تحت القميص، وعندما رأيته راح يهددني إن تجرأت وأخبرت والدي بذلك، سوف يعاقبني بشدة. إزاء كل ما يحدث لي، كانت القراءة باب نجاة نحو الخيال ففي الوقت الذي لا أقرأ فيه أو لا يكون لدي مهمة من مهام المنزل التي توزعها أمي علينا بالتساوي مع باقي أخواتي، أبقى أستمع سرّاً لأغنيات صباح، فيروز وعبدالحليم حافظ وأحلم بشاب يختطفني في ليلة من ليالي الحي ويذهب بي إلى جزيرة لا تضم أحداً سوانا. لقد كان نوعاً من أنواع أحلام اليقظة التي نصاب بالخيبة عندما نصحو منها.

كانت بي رغبة عارمة للحب تستشيط أكثر عندما كنت أستمع لحكايات بنات الجيران اللائي التقيهن سراً عن أبي وأخوتي. قصصهن عن الحب وعن ما يحدث لهن مع من يصادقن من الشبان. كنت مستمعة جيدة إلى أن رحت رويداً رويداً أتخيل شكل تلك العوالم، حتى أنني تجرأت وسألت والدتي ذات يوم عنه بعد سطوة رجل زارني في المنام، تجهمت في البدء ثم ما لبثت أن تبسمت وأسرت لي بأنني ذات يوم سأعرفه أكثر في بيت الزوجية. ثمة شيء أضيف لتوقي للحب، إنه الحلم بحياة بعيدة عن الضجيج

والفقر والزقاق القذرة. ربما قراءتي لذلك الكم الكبير من الروايات جعل مخيلتي تستطيع أن تصنع حكاياتها الخاصة. رغبة عارمة بالحب تكبر بي وتعززها تلك المشاهد التي كنت أحظى بها عبر نافذة غرفتي وهي تطل على غرفة نوم لجارنا الذي تزوج حديثاً في ذلك الوقت.

لم أكن أهتم بنوعية الطعام الذي نتناوله في البيت وغالباً ما يكون طعاماً بسيطاً، بقدر اهتمامي بجسدي وبشكلي وبملابسي قدر المستطاع ثم بتلك الكتب والأغنيات التي تمجد فكرة الحب وقد اتضحت تلك الاهتمامات منذ الصفوف الأولى لي في المدرسة الواقعة قريباً من منزلنا والتي بقيت فيها إلى الصفوف الإعدادية أنكب خلالها على حصد علامات تحصيل علمي متقدمة لأنتقل بعدها إلى مدرسة أخرى بعيدة عن البيت يستلزم الذهاب إليها ركوب حافلة عمومية ثم المسير لبضعة أمتار نحوها. في الطريق إلى المدرسة، تلك الفرصة السانحة للخروج من سلطة المنزل وقوانينه الصارمة كنت أستمتع بتلك الكلمات التي تجيء على محمل الغزل والتي يطلقها الشبان الذين يتربصون بالفتيات وهم يصفون أنوثة أتمتع بها ومشية كانت كلما تمهلت بها تثير ما تثير من عواصف تلك الكلمات الغزلية. كنت أراقبهم وهم يتشاكسون، أراقب وجوههم واحداً واحداً وكأنني أبحث عن وجه ذلك الرجل الذي تشكلت صورته في مخيلتي على مهل، كلما توغلت في القراءة، في حكايات بنات الجيران، في الأغنيات، في أحلام

اليقظة وفي تلك المشاهد التي تحدث بين الزوجين السعيدين في حيّنا، لكن ما من أحد منهم قرع باب القلب ليخبرني أنه هو، ذلك الرجل بعينه الذي حلمت به على مدار سنين منذ أن تفتحت وردة أنوثتي المبكرة.

ذات صباح شتائي كان المطر فيه مجنوناً ولم يكد أحد يستطيع أن يواصل المشي في الشارع الذي كنت أعبره متأخرة عن موعد المدرسة في أواخر سنينها وكانت الرياح تركض في المدى بكل تطرف. فجأة، انهار سور بمحاذاة الشارع فأغلقه تماماً بحيث لم أستطع أن أواصل طريقي فقد كان المطر غزيراً والرياح عاتية تأتي على كل شيء فصارا يحجبان حتى الرؤية. ثمة سيارة توقفت على يمين الطريق ومن وراء الزجاج وأنا أتعثر بخطواتي وأصارع الرياح، راح سائقها يلوح لي ويشير لي بأن أحتمي بداخل السيارة. لم أفكر لحظتها بتلك المخاطرة التي من الممكن أن تأتي بالمجهول لفتاة تحتمي داخل سيارة لا تعرف صاحبها. كنت مبتلة جداً وأرتعش من البرد. ناولني محارم ورقية رحت أجفف بها وجهي، بينما بدأ الدفء في السيارة يتسلل إلى جسدي. حينها كان الشارع يخلو من مرتاديه في لحظة مجنونة كتلك. كنت ما أزل أكابد بقايا البرد عندما بدأت أحس بأن ثمة موسيقى راحت تنطلق من مسجلة السيارة التي أدارتها يد ذلك الرجل وهو يمسك بيده الأخرى سيجارة يصعد خيطها إلى أن يتلاشى على سقف غرفة السيارة.

- هل بدأت تحسين بالدفء؟

جاءني صوته الرجولي الدافق هادئاً ومحملاً بنبرة موسيقية كلاسيكية فقلت له وأنا أنظر بوجهه للمرة الأولى منذ دخلت السيارة:

- نعم، أشكرك.

صوت ما جاء من مكان في القلب، كان يشي بأن ذلك الرجل الغريب الذي أجلس بمعيته في السيارة وأحتمي من جنون المطر، هو ذاته الرجل الذي تعلقت صورته على صدر جدار قلبي. كانت رائحة عطره تختلط مع رائحة سيجارته فتخلق بي شغفاً مفاجئاً. كانت نظراته التي جاءت لي عبر عينين زرقاوين واسعتين وهو يتحدث لي كأنها يد تسحبني نحوه.

- في الحقيقة خفت عليك من أن يصيبكِ الأذى. الطبيعة عندما تجن تؤذي حتى نفسها.

كنت جاهزة للحب كتراب ينتظر الشتاء:

- خفت عليّ أنا؟

- نعم عليك أنتِ.

- هل تعرفني من قبل؟

- أراك كل يوم كالفرس تتقافزين وتعبرين الشارع نحو المدرسة.

- كالفرس؟

- نعم كالفرس. ألم ترين فرساً تمشي؟

- رأيتها على شاشة التلفاز.

- نعم إنها تمشي تماماً كلحن الموسيقى في بدايات الأغنية.

- الموسيقى؟
- ألا تعرفينها؟
- أحبها، أحبها جداً.

بدا لي أنه يكبرني بأعوام وأنا أنصت له وهو يتحدث بثقة لم تكترث لجنون الطبيعة الذي حشر الناس في منازلهم، بينما بريق في عينيه كان يأسرني، ويجعلني أحس بأنني حمامة بيد صيادها يداوي جناحها وهو يهمس لها بحنو فتتعلق به. مضت نصف ساعة دون أن أعي أن المطر قد توقف عن الهطل وأن عربات البلدية قد فتحت الطريق أمام المارة، وأنا أهبط من السيارة أعطاني رقم هاتفه مكتوباً بخط يده في ورقة صغيرة وهو يقول لي:

- هذه اللحظة لا تأتي إلا مرة واحدة في العمر، دعينا نتذكرها دوماً.

منذ ذلك الحين صار لأي لحظة تمر في حياتي معنى مختلفاً فأدركت أن الحب وحده هو القادر على أن يجعلنا لا نرى سوى المسرات، بينما تتوارى الهزائم وراء جبل بعيد. رحت أكبر على يديه كقطة جميلة كما كان يحلو له أن يردد دوماً، أكبر كأنه أبي بكل ذلك الحنو فقد كان يأخذني كل يوم للمدرسة ويملي علي أوامره التي كنت أتلقاها بكل ذلك الفرح الغريزي الذي يمكنه أن ينمو في صدر فتاة تحس بتلك الرعشة كما لو أنها عصفورة في قبضة يد قوية ولكنها جميلة.

حتى بعد أن ابتدأت مرحلتي الجامعية كنا نلتقي بشكل يومي إذ

كان أول عهدي بالرجال، حيث أدركت معنى أن تلوذ الأنثى بحضن رجل يطوقها بذراعيه ويعلمها ما معنى أن نحب. كنت لا أخطو خطوة واحدة إلا بعد أن يوقع لي على طلب ما أريده عبر صوته الأجش نوعاً ما، إما بالقبول وإما بالرفض. في البدء لم أكن أتبرم من أوامره الكثيرة، لكنها فيما بعد صارت تشكل لي عبئاً بينما أصبحت أحس بأنني حمامة مربوطة بخيط في يده كما تقول الأغنيات. عندما شعر بأنني وصلت إلى تلك المرحلة، قرع باب بيتنا وتقدم لخطبتي ولم أكن أعي لحظتها أنني ربما أكون مجرد شيء يمتلكه، شيء عليه أن يبقى نصب عينيه وهو ينمو، وهو يتحرك حتى وهو يفكر، إلا أن تلك الخطوبة انتهت بانتهاء المرحلة الجامعية، تماماً كأن ما يحدث لنا ما هو إلا مرحلة ما إن تنتهي حتى تبدأ مرحلة غيرها. ذات يوم بدأ يتنصل من لقائه بي. كان واضحاً أنه لا يقول الحقيقة وهو يدعي سفراً ينجز به عمله، لكنني ما إن اقتربت من منزله ورأيت سيارته مصطفة في مكانها، حتى تأكدت أنه داخل البيت. كان قلبي يخبرني بأن شيئاً ما سيحدث وأنا أصعد درجات السلم نحو شقته التي عندما قرعت بابها، أطل علي مذهولاً من مجيئي في ساعة ليلية كتلك. ثمة امرأة لمحتها تحركت في الداخل وهو يتحدث لي مذهولاً عند الباب. ما إن دفعته جانباً وعبرت حتى اكتشفت بأن صديقتي عارية في سريره، صديقتي التي طالما التقينا بها وأصبحت شريكاً لنا في لحظات تنزه كثيرة.

لم أستطع في ذلك الحين أن أنطق ولو بكلمة واحدة. بقيت أسيرة تلك الحالة لعام بأكمله، ذلك العام الذي كان قد مضى على انفصالي عنه. لقد غاب دون أن يصلني أي خبر حوله. ضاقت عائلتي بتلك الحالة التي أصابتني دون أي علم لديهم بحقيقة ما حدث وبدأوا يجربون بي كل أنواع التداوي بالبخور، طرق طرد الجن، بالماء المقروء عليه آيات قرآنية ومحاولات الأطباء النفسيين، لكن ما من شيء استطاع أن يخرجني من صمتي الطويل سوى مشهد جاري السعيد وهو يضاجع زوجته في وقت الظهيرة بينما كانت الشمس تمارس طقسها التموزي المتوحش على بدن الحي الذي لاذ أهله في تلك اللحظات بمنازلهم سعياً وراء الظل وشيئاً من البرودة. ما إن رأيتهما يرتعشان باللذة وأنا أراقبهما حتى رحت أمزق وأحطم كل شيء في غرفتي، كاسيتات الموسيقى، الروايات، دواوين الشعر وملابسي. كنت أصرخ في تلك اللحظات دون أن أعي أنني استرجعت قدرتي على الكلام. حينها رأيت أفراد العائلة يلتفون حولي يصيبهم الذهول مما رأوه ويصيبهم الفرح بسبب عودة قدرتي على النطق. في تلك الليلة التي بسببها خرجت عن قانون العائلة التي صار معظم أفرادها يسقطون علي صفة الجنون، نمت باكراً وصحوت قبيل الظهر لأراني مصابة برغبة عارمة للخروج من المنزل بشكل يومي، وهذا لن يتحقق إلا إذا وجدت عملاً لي، وبالفعل، عثرت على وظيفة في دار نشر، عملي فيها أن أدقق المخطوطات التي سوف تطبع

وأحررها بصمت دون أن أتحدث لأحد. تلك الوظيفة أتاحت لي الفرصة أن أقرأ كثيراً من الكتب في السياسة، إذ أنني اشترطت على مدير الدار الذي راقت له أنوثتي حينما وافق على تعييني لديه أن لا أعمل على أي كتاب له علاقة بالحب. انعطافة عجيبة حدثت لي نحو الحب والرجال وحتى الأغنيات العاطفية. تغيرت مشيتي، نمط ملابسي، طريقة كلامي وقصة شعري لأصبح أقرب إلى الرجال في طريقة حياتهم أكثر مما أنا أنثى، لذلك كف مدير دار النشر وآخرون عن ملاحقتي وهم يرونني أشعل السيجارة من سيجارة أخرى وأرتدي بنطال جينز، قميصاً فضفاضاً، حذاء خفيفاً ولا أتحدث إلا في السياسة التي أصبحت مدار تفكيري.

فجأة لاذت سعاد بصمت كانت تداري فيه لعثمة أثارت استغرابي، لعثمة لم يعد لها قدرة على مداراتها. راحت تضمني إلى صدرها أكثر وأنفاسها تتعالى بينما كانت تردد بهمس حانٍ كأنها تتحدث فقط لنفسها:

- أحبك، أحبك، أحبك.

عندها رفعت رأسي عن صدرها واحتضنتها، أجشهتْ ببكاء بعد أن فرغت منه، مسحت دموعها التي بانت كحبات لؤلؤ بفعل نور القمر الذي انعكس عليها، ذلك القمر الذي صار شاهداً، عليه أن يدلي بشهادته ذات يوم بشأن حكاية بقدر ما فيها من عسل الحب، فيها مرارة لاذعة. بدأ الذبول الذي اعترى عينيها يتراجع منسحباً برويّة فرحت أقبلها بكل رغبة كأنني

أهم بكتابة قصيدة طالما انتظرت كتابتها. بادلتني القبلات بكل اشتهاء كأنني سأضيع من بين يديها في تلك اللحظة ميمماً جهة الغياب. قبل أن نغادر الجبل أخذنا نعبئ البالونات التي أحضرتها لأجلها بالهواء ونطيرها، تلك البالونات التي كنت أعرف من قبل كم تحبها وتحب تلك الطفلة التي لن تشيخ ما دامت تتقن تأمل الوقت بتلك الروح التي ما انفكت تثير بي الدهشة. صارت طفلة تود لو تركب صهوة الهواء وتلحق بتلك البالونات التي ما إن تصعد في الهواء حتى تبقى تتلاشى بروية أمام ضوء القمر تماماً مثل كثير من الأحداث التي تبدأ هادئة ثم ما أن تصل إلى نقطة التوهج حتى تبدأ بخفوت يقودها إلى التلاشي.

بقيت تتقافز وقد هشّمت أربعين عاماً من عمرها وعادت تلك الطفلة ذات الجديلة التي تشبه ذيل مهر حرون وكان "نيبو" في خدر ذلك الليل قديساً حانياً يصفف ريش أجنحتنا بحكمته الطرية. بقينا نحلق كما لو أننا ولدنا للتو ونحن نذرع صدر الجبل نطارد البالونات الملونة وقد تركنا وراءنا عالماً يضمد جراحاً نازفة، هاربين نفتش عن زمن يمكنه أن يصنع زمناً جديداً صالحاً للحياة.

المعتقل - 3

أخذت العربة العسكرية، التي أتعبتها تقلبات المزاج الصحراوي النزق تتقافز على امتداد الطريق المتصدعة، الحافلة بحفر كبيرة وكثيرة أحس بها دون أن أراها. كنت أجلس في الجزء الخلفي من العربة الكبيرة، جزء مظلم مقفل من الجهات كلها كاستنساخ للأسود السّادر في حلكة الليالي الشتائية لكي لا يقذفوا بي دون إشارات أولى ومقدمات إلى عالم مترع بالألوان. تذكرت ما قرأته في كتاب باشلار على امتداد الطريق الصحراوية التي تنساب عنوة وتركض إلى العاصمة، باشلار الذي تحدث بإسهاب عن الملاذ الآمن والأعشاش ودفئها. بقي المعتقل خدراً في ذاكرتي، لكني كنت أحس به يبتعد تدريجياً. أخذت رائحة الرطوبة تتلاشى من أنفي وقد ضجت في مؤخرة العربة التي تئن على صدر الطريق كرئة متعبة، رائحة العادم الحريفة. بعد ساعة من السير المزعج، شعرت بهدوء في مشية العربة فأدركت أن الطريق باتت معبدة بشكل أفضل مما كانت عليه وانفصلت جزئياً عن ذلك التقافز مع جسد العربة لتنفتح مخيلتي على ما أنا ذاهب إليه، عائلتي، الناس، رفاقي في الحزب والحياة الجديدة. أطبقت جفني لدقائق ورحت أتسلى بتلك الحالة من التفكير بلا شيء. فتحت عينيّ على عتمة العربة وقد تناهى إلى مسامعي صوت العربات التي تعبر الطريق. أغمضت عينيّ مرة أخرى ورحت أتأمل الأمور بريبة

كسولة: (كيف سيستقبلني الرفاق؟ من بقي منهم ومن رحل. هل كتبوا عني؟ هل كانوا يعتنون بجدتي ويُطَمْئِنون الأعمام؟ آه يا جدتي، يا صاحبة الحزن والحكمة، يا أيقونة الشرق ويا كتابي الذي كلما ضيعني يقيني بثَّ إلي يقيناً آخر. عشرون عاماً ترافقني الآن في هذه العتمة التي تطبق عليّ كما تطبق المقصلة على رأس الحالم بالحياة)

عبر الطريق كان السائق والجندي يدندنان بأغنية قديمة بدفء الصوت البدوي الذي يرش لوعة الصبر ورائحة الصحراء والطريق طويلة لا تحتمل الصمت كأنها اختبار قسري لطبيعة الإنسان.

كان صوتهما يطلّ علي كحبات عنب ناضجة أوقدت في صدري رغبة تشبه البكاء المختلط بالغناء. اقتربت إلى النقطة التي يتسرب منها ماء الصوت كفراشة طافت عند كوّة ضوء لعجت للتو في قبو مظلم، رحت أحشر صوتي الضالع بحزن عتيق في تيار صوتهما لنصير جوقة واحده تدندن على امتداد الطريق. قال السائق للجندي عندما توقفا عن الغناء وأنا ما أزال أخضب عتمة الجزء الخلفي للعربة بصوتي:

– ألم تسمع صوته من قبل؟

– لا، لا لم أسمعه.

– سمعته ذات ليلة عندما كانت خفارتي بالقرب من نافذة العنبر. كانت ليلة صيفية مقمرة تستطيع فيها أن تلتقط حبات "السبحة" إذا تناثرت منك. كان يغني بشجن لم أعهده من

قبل، كان صوته يعلو تارة وينخفض تارة أخرى، حزن عميق كان يتقاطر من كلماته، كلمات لأغنية لم أسمعها قط ولم أفهمها لكنها اقتلعت الدموع من مخبئها عنوة يا صديقي. بكيت في تلك الليلة بسخاء وكم شعرت بالراحة في تلك اللحظة. لا تقل لي إن الرجال لا يبكون، إنهم يبكون إذا ما وجدوا ما يبكيهم. حاولت أن أغني معه وأردد ما يقول لكنني لم أستطع وكأنه كان يبتدع تلك الكلمات وأنغامها في تلك اللحظة نفسها والكلمة التي تصعد إلى النافذة لا تعاود صعودها مرة أخرى.

قال السائق بشيء من الفضول:

- أريد أن أراه.

قال الجندي بصرامة، وقد خبت الحرارة في كلماته:

- لا، لا ليس الآن، ستراه عندما نسلّمه لهم في المدينة.

تساءل السائق ساهماً:

- ألم تنتهِ مدة اعتقاله؟

قال الجندي:

- لقد انتهت ولكنهم طلبوا رؤيته قبل أن يرحل إلى بيته.

* * *

ثمة خيوط من الضوء الحاد سقطت من ثقوب تناثرت في سقف العربة العسكرية المحكمة الإغلاق، التقطت عيناي واحدة منها وأنا مستلق على ظهري والعربة تحبو على كف الطريق. أغلقت على خيط الضوء عيني اليمنى وانحدرت دمعة ساخنة من العين

اليسرى على خدي المتعب فتمتمت بحشرجة باكية:

- كيف تمارس بلاد كل هذه القسوة على مريديها؟

أخرجت من جيب معطفي علبة السجائر وولاعة وأشعلت سيجارة. مع اندلاق الوهج في العتمة، أطل وهج أزرق لذاكرة الأيام الملقاة على أشجار الدروب. تذكرت بحزن يشبه القرف ذلك اليوم الذي قرأت فيه أول نشرة سرية للحزب على يد أحد أقاربي، قال لي وقد ارتسمت على وجهه قسوة مبررة:

- اتبعني أريدك.

صعد تيار من الأحاسيس المتلعثمة عبر أوردتي، ثم استقر على وجهي فتبعته وأنا أقول وقد تخللت صوتي زخة خفيفة من الارتعاش:

- حاضر.

أغلقت الباب خلفي وأدرت المفتاح فأحدث صريراً ارتدت أصداؤه في مخيلتي وباتت أنفاسي تعبر مكانها بدقة لا تناسب إلا هكذا لحظات. أخرج بضعة أوراق كانت في دولاب قرب السرير وتفحصها برهة ثم قال:

- اقرأ هذه الأوراق، اقرأها بعناية، لك اليوم كله.

ترك الغرفة، بعد أن أغلق عليّ الباب بالمفتاح محدثاً صريراً مزعجاً. تنفست بعمق ثم رحت أقرأ إلى أن رحت أردد في سرّي:

- آه يا وطني، كل هذا يحدث!

عدت لأقرأ الورقة مرة أخرى فلاحظت التوقيع المتعربش في ذيل

الصفحة وهو يشير إلى الحزب فغزت دماغي أحاسيس جعلتني أحس بأنني معني بما يجري. بعد أشهر أخذت أقرأ بنهم تلك الكتب والمجلات والصحف التي كان اقتناؤها في ذلك الوقت بحد ذاته جريمة تقود إلى المعتقل. بعد عام من قراءة ذلك البيان صرت عضواً في حزب يحلم أعضاؤه بحياة بشرية عادلة، لكن الزمن تغير فبقيت الفكرة وسقط كثير من المؤمنين بها وهم يلوّنون جلودهم بألوان المرحلة. كنت أعي تماماً حقيقة أنني لست حرباء إنما كائن بشري حالم بالحياة.

* * *

بدت لي العربة تلج عمان بكل ضجيجها وازدحامها وأصواتها وحركتها التي لا تهدأ. في تلك اللحظة كتيار ضمَّختهُ برودة خَجولة، حين عبرَت إلى بهو أعصابي وقد بقيت مخيلتي منفرجة على مصراعيها كنافذة تطل على كرنفال لرياح تطوف بذاكرة ربيعية. كنت أتمتم والصور تتوالى وقد أصبحتْ أكثر من مجرد رتوش لأزمنة موشاة بنقش الرحيل والانكسار، حينما كانت العربة العسكرية تعبر المدينة عبر كل ذلك الزحام:

نعبر الآن الشارع الرئيسي الذي يقسم المدينة إلى نصفين. هنا إلى اليمين، يقع المقهى بكل ذاكرته العتيقة. هنا كان الأصدقاء وهنا كانت الأحلام بكل جنونها وتعقلها، وإلى اليسار تنحني الدرب التي كانت تقودنا إلى الجامعة زمن الوعي الأول بالحياة. من هنا كان الصباح وكان الأصدقاء والصديقات والصبايا اللائي طالما

بقيت حقائبهن تحتفظ بالقصائد التي إلى جانب الحلم بوطن بلا سماسرة، كانت تشرح الحلم بحب كالبرق يهتك بكارة الحرمان. العربة تشق صدر هواء المدينة التي ضمتني كأم رؤوم بين ذراعيها ولكنها سرقت مني تماسكي مرة واحدة وكأنها كانت تود أن تقول إلى يكفي هنا!

* * *

هدأت الحركة المزعجة للعربة العسكرية فأدركت أنها نهاية الطريق. لملمت كل الصور التي في ذاكرتي وأودعتها في مكانها وحشرت أنفاسي وأحاسيسي وكأنني أتأهب للولادة من جديد.
قفزة الضوء التي انفلتت إلى عيني مرة واحدة فضت بكارة العتمة وأنا ما أزال في الجزء الخلفي من العربة وأفقدتني ما كنت قد استجمعته من قوة تعينني على التركيز. أغمضت عيني دون قدرة على مشاهدة المكان وما حوله. اقتادوني إلى الداخل ثقيل الخطى، محمّلاً بعشرين عام عبر بوابات، ممرات وغرف عديدة.
قالوا لي:
- أنتظر.
كنت أجلس غارقاً في مقعدٍ كذبيحة ما زال يجري في عروقها توق للحياة. فأتى المحقق وجلس إلى طاولته ورفع عينيه اللتين تختبئان خلف نظارة طبية ترتكز على أنفه بعد أن فرغ من قراءة أوراق أمامه ثم قال لي بصوت منخفض:
- ما هي قهوتك أستاذ خالد؟

كانت أسناني تحتك بشفتي السفلى، فشعرت بأن سائلاً بارداً يتدفق في عروقي بدلاً من دمي.

قلت بصوت يشوبه الأنين:

– في الحقيقة، سأكون كاذباً ان قلت لك بأنني ما زلت أتذكر قهوتي إن كانت مرّة أو حلوة. أحيانا أشك بأنني ما زلت أعرف اسمي أيضاً.

ضغط بإصبعه على زر أمامه، فأطل أحدهم من الباب:

– جيبلنا لنا قهوة، قهوة حلوة.

وبعد دقائق عاد العسكريّ يحمل فنجانيّ قهوة وضع واحداً منها على طاولة أمامي وآخر على مقربة من يد الضابط. عاد المحقق يتفحص الأوراق التي بين يديه يطيل النظر عند صفحة، ويمر مسرعاً عند صفحات أخرى. أغلق الملف بعد أن اختلس نظرة تفحص بها قسمات وجهي المتعب وأنا أرتخي في كرسيي خائر القوى ثم قال:

– لماذا لا تشرب قهوتك؟

التقطت فنجان القهوة بكلتا يديّ وقد برزت عروق ظاهر يدي كهروب عشوائي لسيقان حشائش على تربة سمراء. ارتشفت جرعة واحدة دون تلذذ، ألمت ارتعاشةٌ بيديّ فوضعتُ الفنجان على الطاولة مُحدثاً صوتاً أجفل انسياب الصمت الذي أطبق على المكان.

قال المحقق وهو يحاول أن يقفز عن ذلك التلكؤ:

- أخ خالد، لم نأمر بإحضارك إلى هنا لنزعجك لكنني أرغب بأن أقول لك شيئاً واحداً وأرجو أن تستوعبه جيداً. الفرصة في الحياة ما زالت أمامك وأنت صاحب عقل كبير يمكّنك من فهم ما نريده.

صمت لبرهة، ثم أضاف:

- نحن ندرك الأبعاد الحقيقية لما تفكر به، صحيح أن الأمور اختلفت عما كانت عليه، لكننا نريد أن تكون نظرتك تجاه الأمور أكثر منطقية. أنت كنت عضواً بارزاً في أخطر حزب محظور، وبسبب الديمقراطية التي ستأتي لنا بكثير من المشاكل الآن، أصبح حزبكم مصرحاً للعمل العلني، لذلك يا خالد عليك أن تنتبه لحياتك القادمة. ما كنت تنوي القيام به كان خطير جداً. كنت تنوي تخريب البلاد. الدلائل التي كانت في غرفتك تشي بكرْه عميق لبلادك.

كنت، وهو يتحدث لي، أفكر بحزب تلاشت فكرة العودة إليه منذ الليلة الأولى لي في المعتقل، ليس بسبب سنين عمري التي قتلها المعتقل، إنما بسبب وهمٍ لم أنتبه له في حزب ليس له علاقة بالعدالة سوى اسمه. كنت أفكر بشأن تلك التهمة والمحقق يصارع تساؤلات داخله عما يرى ويقرأ في الملف الملقى أمامه. هززت رأسي ثم تركت المبنى الكبير وأنا أتحسس الهوة المعتمة الكبيرة التي تفغر اتساعها كفمٍ بحجم العالم في روحي. كانت أسناني تضغط على شفتي السفلى بقوة فجائعية لتنحدر على مقدمة

ذقني المزركشة بالسواد بضع قطرات ساخنة من الدم المرتعشة. عندما وقفت ببوابة المبنى، طاف في أقبيتي الجوانية نحيب مر. أخرجتُ من جيبي علبة سجائر، التقطت واحدة ثم أشعلتها وأنا أتمتم بشيء من الارتعاش:

– لا شيء في هذا العالم يجعلنا نستسيغ طعم الألم ورائحته أحيانا كالسيجارة.

ابتلعت من دخانها جرعة ثم زفرتها بتنهّد. بعد غياب طويل، قفزتِ المدينةُ إلى عينيّ كوميض ساطع نبعَ من مرآة ضخمة اصطدم بدواخلي عندما عبرتُ البوابة العالية التي تطل على الشارع ليشتت توازناً ما قد أقامته المخيلة والحلم معاً عن تفاصيل تموج في الوجدان منذ عشرين عاماً. وقفت مشدوهاً وكأن جزءاً في تكويني قد آل إلى الخراب. للوهلة الأولى بدت لي المدينة حديقة من الحجارة المنمقة وهي تقف بامتدادات هندسية وكأن المشهد الذي تتراقص أمواجه على صخرة الحنين في المخيلة قد تلاشى للتو.

أصابني ذهول جراء منظر العربات التي كانت تزعق في الشارع. انتبهت إلى أنها ليست كالعربات التي رأيتها قبل عشرين عام، كأن البلاد تحولت إلى معرض كبير لما تنتجه مصانع السيارات. تلاشت البيوت التي تخفق الروح في جدرانها لمجرد النظر إليها عبر الشرفات التي كانت تحفل بأصص الورود والنباتات التي تتسلق الجدران. ثمة روح إسمنتية تعيث جماداً في المكان. تدحرجت على

انحدار الشارع دون قدرة مني على ضبط رغبة ألحّت عليّ في الوقوف. عند مظلة معدنية يقف تحتها قلة من الناس، سألت أحدهم بعد أن توقفت:

– وين الباصات اللي تودي على وسط البلد؟

رمقني شاب صفف شعره بعناية فائقة بنظرة غريبة ثم منحني إجابة قصيرة:

– من هون.

أخذوا يراقبونني كأنهم يراقبون ذلك الطالع من أدغال التاريخ للتو، ملابسي القديمة، شعري المسترسل بتسريحته التي بدت منتمية إلى زمن قديم. تلك النظرة المتوجسة في عينيّ تراقبان الأشياء بنهم بدائي دون قدرة على استيعاب ما يجري. اقترب أنين الحافلة معلناً عن نية بالتوقف فصعدت وجلست على أحد المقاعد أراقب مدينة غيرتها السنين وقد صارت كبحر إسمنتي لا أسماك فيه، لا البوابات كالبوابات، ولا النوافذ كالنوافذ، أوركسترا دون آلات. كانت الحافلة تجوب طرقات المدينة كزمان ثقيل الظل تقذف أناساً وتلتقط من الأرصفة آخرين. كنت ملتصقاً بمقعدي كأنني هبطت مرة واحدة على كوكب أخر أتفحص وجوهاً ليست كالوجوه التي رحلت في ذاكرتي إلى الزمن الصحراوي منذ سنين بعيدة. وجوه يعنونها إحباط ليس خفياً، ابتسامات مقيّدة كأن آلة ميكانيكية قد أنتجتها لتصلح لهكذا زمان، أفواه تقذف بأحاديث ما تلبث أن تذوب عند حرارة شمس حارقة. إن ما رأيته

ليس إلا مشهداً بارداً تؤطره موسيقى متهالكة على نفسها تثير في سامعها شعوراً غريزياً متوحشاً، تارة نحو حزن جنائزي، وأخرى نحو نشوة متوحشة.

- هذا زمان آخر.

قلت ذلك، ورحت أفكر بصمت:

(ما هذا الجهاز الذي يستخدمونه؟ يضعونه على آذانهم ويتحدثون. أيعقل أن يكون في هذه الحافلة كل هذا العدد الضخم من رجال الأمن؟ هل كل هؤلاء الذين يحملون هذه الأجهزة يقومون بمراقبتي؟ يا إلهي، إنهم يصرون على أن أُبقي سجني معي. وما هذه الأطباق الجاثمة على أسطح المنازل وكأنها أياد ترتفع إلى السماء تضرّعاً لله؟ هذه الطرقات الفسيحة، هذه العربات الفارهة، رجال بوسامة مصطنعة، نساء بجمال مصطنع وكأنهن خرجن للتو من فيلم أمريكي. هل هناك حدث كبير؟ أم أنا في مدينة فاقدة لروحها؟)

* * *

استقرت بعد مسيرها في الجزء الآخر من مدينة لا تشبه بعضها وأنا أعود من سنين اعتقال مرت كليل الموجوع طويلة وثقيلة الخطى. كان الزحام في تلك اللحظة المصحوبة بهطل كثير للمطر كجيش يدرج على درب المعركة فتحولت الشوارع إلى شعاب يهدر بقلبها الماء وكأنه عبورُ من لون إلى آخر، رأيت ذلك المشهد الذي لا يمت بصلة لما رأيته في الجزء غير البعيد من نفس المدينة فأدركت

فيما بعد أن عمان شطران، واحد غربي طافح بثراء ولد بسرعة يرى الآخر محض كائن يعيش ليموت، وآخر مغرق بفقر بطيء الخطى يرى الآخر ابن كواكب بعيدة وغريبة عنه.

هبطت من الحافلة أتجول في وسط المدينة قبل أن أتجه للقرية. أصوات الباعة الذين يروجون بضاعة من الصنف الثالث تتماهى عبر صخب يبدو لاهثاً وهو يورّط المارة ببضاعته، رائحة الأطعمة المقلية تفوح من تلك المحال التي ازداد عددها وهي تقدم وجبات سريعة لأناسٍ يمرون بسرعة من قاع المدينة، لوحات إعلانية ضخمة مزودة بأضواء كهربائية لامعة تروّج لمطاعم بماركات أمريكية تبيع وجبات لذيذة في متناول اليد، بسطات تبيع أقراصاً مدمجة لخطبٍ دينية تتحدث عن عذاب القبر وتتوعد المارة الذين يسمعون صوتها عبر مكبرات ثبتت في مقدمة تلك المحال، شبان يبيعون أقراصاً مدمجة لأفلام "إباحية" تجد رواجاً وتهافتاً عليها وازدحام في كل شيء، اختلس مني الحالة التي قد تُحدث لي توازناً لأواصل طريقي نحو القرية. وجوه لا تشبه بعضها، أعراق مختلفة، موديلات مختلفة، شباب يرتدون الجينز وكأنهم ذاهبون إلى مدرسة تفرض عليهم زياً موحداً، فتيات يغالبن تعباً خفياً في وجوههن بمساحيق التجميل، نساء محجبات ومتسولون. لمسة حداثة بدت في المكان، لكن ثمة روح غادرت ذلك الجسد فبدا كأنه صنم لا يلوي على شيء. كنت أتجول في مدينة لا أعرفها. مشيت بخطوات حزينة. صعدت درجاً أوصلني للمقهى الذي

تركت على طاولته زمناً من الذكريات. وقفت ببابه فرأيت كل شيء قد تغير، لا الوجوه هي الوجوه، ولا الروح هي الروح التي ظننت أني سأجد بعضاً منها بعد كل ذلك الغياب الطويل.
جلست إلى طاولة تطل على زحام المدينة وطلبت فنجان قهوة ارتشفت منه ورحت أدخن. على جدار المقهى انزلقت شاشة ضخمة تبث مشاهد متتالية وسريعة لامرأة تغني كلاماً دون معنى يرافقها حركات راقصة لنساء بملابس سباحة على شاطئ البحر، وعلى طاولة تقابلني، رأيت شاباً وفتاة يمسك كل واحد منهم بيد الآخر ويمسكون بأيديهم الأخرى بخراطيم "النارجيلة" دون أن يتحدثوا وكأنهم عشاق ليس بينهم سوى تلاصق الأيدي فقط.
الرف الكبير الذي كان قبل عشرين عاماً يضم عدداً من الكتب تلاشى وحلت مكانه صورة كبيرة لفريق كرة قدم إسباني.
ليس في المقهى ما يدل على زمن قديم سواي. فهبطتُ سلمه وقد أدركت أن شيئاً سُرق من جيب المدينة فبدت على هذا النحو.
بعد أن عبرتُ الشارع الذي يخترق قاع المدينة، جلست على أحد المقاعد المتناثرة على جنبات الشوارع. أشعلت سيجارة أراقب تلك الحالة الفسيفسائية التي تتصارع مع ذاكرة شربت المدينة كأرجوحة تتدلى من القمر. اقترب شابٌ مني ثم جلس. قال لي بوتيرة مفاجئة تخلو من أي مقدمة للكلام:
- هل أنت من هنا؟
- هل تحدثني؟

- نعم.

صمتُّ قليلاً أفكر بهدوء، بهيئتي التي لا تدل على أني من تلك المدينة. قلت:

- لا، لست من هنا.

تساءل مجدداً:

- لا بد أنك من القرى البعيدة في الجنوب؟

- القرى البعيدة؟ نعم أنا من القرى البعيدة جداً.

قدم لي الشاب سيجارة ثم أشعلها:

- هل ترغب في أن تروّح عن نفسك؟

بدت قسمات وجهي حائرة بعض الشيء فيما لم أفهم، قلت متسائلاً:

- ماذا تقصد؟

تلكأ الشاب قليلا ثم تلعثم وهو يتدارك موقفه:

- لدينا فتيات من مختلف البلدان، أتود أن تذهب معي ولن يكلفك ثمناً باهظاً.

تركت المقعد والشاب ينادي بصوت متقطع وحزين:

- لن يكلفك كثيراً.

تابعت مسيري نحو موقف الحافلات المتجهة إلى القرية ثم انتظرت هناك وبمرور دقائق وصلت الحافلة فركبتها. عندما أعلنت الحافلة طريقها المؤدية إلى القرية، كنت أفكر بشأني متسائلاً: هل أفقدتني السنوات التي سكن المعتقل عبرها دمي أي رغبة بامرأة؟

رسالة - 3

أريدُني طفلاً يدس رأسه في صدرك ربما يبكي، يغفو، يضحك ويذهب كما قال درويش: إلى موته المشتهى. لا أزال أتذكر أنك كنت تريدين ذلك أيضاً، ألا ترين أن ثمة شبه بيننا حتى في الحزن؟ إنه تماهٍ جعلني أتشبث بك حدّ انصهار معدن بمعدن. هل تتذكرين عندما كتبتِ لي بأسى واضح ذات صباح:

"كنتُ جالسة على شاطئ البحر الذي يمتد حتى الالتصاق بالأفق وكنت أبكي. صدقني أنا لا أبكي بتلك السهولة التي تبكي فيها أي امرأة ترى في البكاء وسيلة للتخلص من ثقل حزن مباغت. أنا بحاجة لرجل يمنح قلبي سعادة شُيدت مسافات بعيدة بيني وبينها. أنا أحببتك فقط لأني أحبك. أحببتك من خلال ما كنت تكتب فشعرت بأنك تكتبني بمهارة فائقة. إنك تشبهني إلى حد يصعب فيه أن أتراجع ولو رمشة عين عن عالمك".

نعم يا سعاد، نحن نشبه بعضنا، لكن هل نتنافر إن تعانقنا مرة ثانية؟ هذا ما يشيع الخوف بي، ربما علينا أن نتفق أن نتبادل الأدوار ليلة أكون ملاذك وليلة تكونين ملاذي ونختار ليلة يكون فيها القمر بدراً ليكون هو ملاذنا، حينها سيتحقق ما نريد.

ها أنا أكتب لك. سأترك الحديث عن الحياة في الزمن العربي، تلك الحياة التي تطحنني منذ شروق شمسها حتى الإغفاءة. سأكتب. المهم أن أتحدث أليكِ، هاتفي مستلق على الأريكة كجسد بلا

روح، كتب تطل علي من وراء زجاج مكتبتي لم أقرأها للآن. التلفاز يعرض بصمت صوراً للخراب في البلاد العربية. الستارة تهتز بفعل نسمة هواء خفيفة تجيء من وراء الجبال وأنا ممدد على طرف الأريكة كأي شيء مهمل في هذه الحياة. فكرت أن أقرأ، بالمناسبة، هل قلت لك أن رغبتي في القراءة تتناقص؟ لا أدري لماذا؟ ربما لإحساسي بطغيان لون الدم ورائحته على لون الحبر ورائحته أو لتراجع إيقاع الحب من شرفة الكون لصالح نزعات ليست إنسانية. ها أنا أتشعب في الكلام، أستلقي على ظهري وأراقب السقف، أتذكر كلماتك وأصفها على طاولة توقي إليك وأتفقدها واحدة واحدة. يصيبني الحنين ويرفع قلبي إلى حيث تطير العصافير.

الجبل - 1

توقفت عن الكتابة ورحت أنصت للمطر وهو يهندس خارج الملاذ وجهَ الجبل من جديد، بينما الليل يتمادى في لغته السوداء محتجزاً كل شيء لصالحه. زدت حفرة النار حطباً وصوت "بوتشيللي" يئن في المكان بأغنياته التي لها أن تهدهد قلباً متعباً مثل قلبي لم يُقدّ من دبر فقط، إنما قُدّ من جبينه الذي بات عرضة لأي تقرح يمنح الوجع. على لسان النار وضعت إبريق الشاي الذي منحني صوت طقطقته ورائحته التي فاحت منه وهو يغور بحضن الجمر المتقد، شيئاً من ألفة تعوزني، حيث أعطت الطبيعة ما عندها من وحشة أجهشت مقلة القلب في ليلة جئت فيها إلى ذلك الجبل طريداً لصدى الخسارة بعينها عندما تكون الأحلام معولاً يقصم ظهر قلب، طريد سجن بحجم حلم بالحياة، مدفوعاً بالأمل وطريد الذكريات التي عادة ما تبدو في لحظات الغياب كأنها جمر يحرق بطن الذاكرة، حينها يتداعى كامل التكوين بالوجع والقلق وتبدو الحياة ضرباً من الوهم. حيث تولد الأسئلة وحيدة دون إجابات وحيث تصير الروح كجسد مصاب بالأيدز، عرضة لأي طارئ يرهقها ويسبب لها الألم. إنه الحب ذلك المقاتل الذي ما انفك يذود عن جهاز الروح المناعي، الحب وحده هو المضاد لانهيار الروح قبالة فيروسات العتمة وميكروب الخذلان. وأنا أسكب كأساً من الشاي، بدا العواء الجنائزي لذئب كان يرش

المدى باللوعة أخف وطأة على صدر روحي التي كانت تهيم في فضاء الجبل بكل عواصفه وجنونه. أشعلت سيجارة وشهقت بها وبالحنين الذي ظل يقتحمني بجسارة حيث نداءات عشق ولدت في لحظة طازجة كأنها لم تكن من قبل، نداءات كانت تتقافز كظبية تحدها الجدران فتصير لي معتقلاً ثالثاً. هوت رشفة ساخنة من الشاي في جوفي البارد فتملكني حزنٌ يتساءل: هل كنتُ أستحقُ منكِ ما منحتني سعاد عبرَ هذا العُمُرِ من شيبٍ في الشعر وملامحَ للأسى؟

ضغت زر حاسوبي الذي بدا في الكهف كندبة في جبين أبيض فالكهوف لا تحتفي بالزمن الجديد الذي يربطك بأي شطر من هذا العالم ويأخذك إلى حيث تريد. ما إن تغلق باب هذا العالم حتى تحس بأنك قد كنت على ضفة نهر جار وعدت مع ذلك تكابد عطشك. أشرعت كل أبواب البرامج الإلكترونية التي يمكنها أن تصلني بسعاد بعد أن لاحظت أن إشارة الاتصال الإلكتروني قوية وهي تشير إلى إمكانية التواصل رغم ليلة عاصفة في جبل ليس في جسده نفس آدمي سواي، لكنها كانت غائبة كان يساورني شك بأنها كانت محض حلم، لم أصحُ منه بعد. يحدث لمخيلة كمخيلتي التي بقيت تقاتل غول المعتقل عشرين عاماً أن يختلط سحر الحقيقة فيها بالخيال، ربما أصابها العجز عن أن تستوعب واقعاً جديداً لم يعد يحتفي بزمن يبدو بالياً في نظر حياة سريعة لا تهتم بأمر أي خطوة متمهلة، ها هي تغيب

على الرغم من كل التناقضات التي كلما أوغلت في منحها لي، أحكمت قبضتها على حنجرتي فتباطأ الأوكسجين وهو يغذ خطاه نحو رئتيّ بيد أسقتني السم، وبعد كل هذا العمر جاءت تداوي ما حل به الخراب!

راح "نيبو" يفرد ذراعيه للريح التي أرسلت في تلك اللحظة سفيرها البرد بديلاً عن صوتها فانتشرت القشعريرة بجسدي أكثر من ذي قبل. ثمة عواء لذئب بقي يصلني صداه متقطعاً يطرق باب الحزن في قلبي، ينطلق حزيناً من مكان ما في الجبل مليئاً بوحشة تفضي إلى حالة يحس الواحد منا فيها بأنه محض كائن منبوذ. شيء داخلي يجوح وذئب في مكان ما من ذلك الجبل يعوي معه وفي الذاكرة عواءُ ذئب بقي على مدار سنين الاعتقال يصلني مارّاً بانسياب الرمل على مدّ تلك الصحراء التي مثلما تمنح لذعة الجمال عبر انتمائها لتلك الصرخة من الحرية، تمنح صرخة مكتومة تخلفها الوحشة ذاتها. سكنت الريح تماماً كأنها لم تكن، لكنها منحت الرذاذ الخفيف حق التجوال ليؤنس تلك اللحظة. اعترت القشعريرة جسدي فألقمتُ فم النار بعضاً من جثث الأشجار، إذ دب الضوء فجأة في عتمة المكان. من وراء الجبال الغربية، لاحت فلسطين بأضوائها كعروس اغتصبها الغرباء وهي في طريقها تُزَفُّ إلى الحبيب. كنت أراها في النهارات عبر ذلك المدى الصافي الذي ما إن تشتهي رؤية القدس حتى يكنس الغيمَ ويمنحك حق رؤيتها ورؤياها. كنت أراها عبر تلك النافذة الهوائية

وهي تفرد ذراعيها وتمنحني فرصة الإطلالة ونيبو يستريح على بدنه العشبي ويعطيني حبلَ المشهد لأقترب من باحته والمشهد قصيدة، لوحة، وأغنيات. عبر خط البصر الذي يرفرف كطير حر، إلى هامة الغور الذي يلوح البحر الميت فيه كجرح في التراب، إلى ما وراء الجبال الغربية حيث تلوّح القدس بيدها وتهزأ بالغياب. أرخيت بدني على جدار الملاذ وعدت أكتب.

سعاد - 4

جاء رداد بغتة كما يجيء دوماً. لكنه لم يملأ البيت ضجيجاً كعادته. كان قد قرع باب الغرفة ثم دخل وعلى وجهه مسحة من أسى وصمت غريب. تبادلنا التحيات بشكل سريع وباهت وصمتنا. قدمت لنا جدتي فنجاني قهوة وغادرت. كان يجلس في الكرسي الهزاز عندما مالت الشمس وراء أشجار الزيتون المعمرة حول البيت وتسللت خيوط ضوء خلال الأغصان فعبرت نافذة الغرفة وسقطت على وجهه وهو يلوذ بصمت ثقيل لم أعهده من قبل والسيجارة في يده شارفت على الانتهاء دون أن يسحب منها نفساً واحداً. كنت في تلك اللحظة أطرد من سماء البال شبح المعتقل وذلك السؤال الذي ما انفك يطرق باب دماغي دون أي إجابة تجعلني أنعم بشيء من الهدوء. من الذي لفق لي تهمة اختزلت زمناً من عمري في معتقل حتى الصحراء تجفل من وقوفه المرعب وسطها؟

قلت، ورداد يطفئ سيجارته في المنفضة التي بدت كمقبرة جماعية تحفل بالجثث:

– لم أسبب لأي شخص أدنى أذى حتى يقدم لي على طبق خفي تلك التهمة يا رداد.

في ذلك الزمن، كنا نحلم أن نزيل الأوساخ عن جبين العالم، نسند قامته، نجبر تلك القدم التي يسير بسببها مترنحاً، كنا نحلم عبر

ذلك النزق الذي كان يتبدى في كتاباتنا، في أصواتنا التي كانت تشق الهواء الساكن وهي تهتف للحرية في مواجهاتنا اليومية مع كل من يرانا نحرث البحر. صدقني يا رداد، أرى الآن أنني كنت أحرث البحر. منذ أن خرجت من المعتقل، لم يزرني أحد من رفاقي القدامى الذين صاروا يتفننون بارتداء ربطات العنق واقتناء الويسكي الفاخر والسيجار الذي تكور على سيقان العذارى. أراهم على شاشات التلفاز بعد أن كفروا بما آمنوا به، يرددون نفس المصطلحات، نفس الكلاشيهات، لكن ثمة شيء غائب في نبرتهم لم يسأل عني أحد. صدقني لست مهتماً بسؤالهم. ما يحيرني هو سؤال يؤلمني كمخرز كل يوم يخترق دماغي منذ أن تدبرت أمرك وأتيت تزورني في المعتقل.سرّح بصره عبر النافذة ثم قال وغصة تلوح في كلماته:

- لا تعوّل على شيء بهذه الطاقة التي تعتريك يا خالد. أنت تقتل نفسك دون أن تعي يا صديقي. صدقني أنت تقتل نفسك دون أن تدري أن بعض الأحلام تحرّك من ياقة روحك نحو الهاوية التي حتى وأنت تهوي عبرها بين تلك الحافة للبئر وبين القعر، لا تحس خلالها بألم السقوط. أعرفك يا خالد جيداً، أعرفك، حتى ألم السقوط يبقى يقتلك على فترات.

كنت أصغي له وأنا أتذكر ملامح وجهه وهو يخبرني عندما زارني في المعتقل أن أحداً لفق لي تلك التهمة، لكن كلما تشكلت إجابة في البال حيال ما حدث لي أتحاشاها، فرداد صديقي

الوحيد الذي لم أرغب في التفريط به فهو لا يعول على شيء البتة. كان قد أحبّ (عفاف) التي حسب قوله أهدته جرحاً في خاصرة القلب وغابت ثم راح بعد ما حدث له يتنقل بين أحضان النساء دون أن يصطحب معه أي امرأة إلى تلك اللحظة التي تسبق خدر الإغفاءة. كان قد انضم أيام الجامعة إلى الحزب الذي أنتمي إليه، لكنه كفر به ليلة أن رأى أحدهم يهبط من سيارة يقودها رجل أمن وهما يتضاحكان. من يومها ما أنفك يردد: (السياسة عاهرة قذرة وأنا رجل لا أحب العاهرات). بعد ذلك، فكر بأن يتجه للكتابة فقرع باب مدير التحرير في الصحيفة وهو يحمل صفحات من قصائد كتبها في أوقات متقطعة ما لبث أن رماها في سلة المهملات بعد أن لمس أن وراء كل اسم لامع شيء غامض ثم أقلع عن حلمه بأن يصبح شاعراً ذائع الصيت مكتفياً بنسائه اللواتي يقرأ لهن القصائد في شرفة السرير.

– لا تنتظر أي شيء يا خالد سوى أن تعيش اللحظة، أي لحظة بلا ألم وهذا يتطلب منك طاقة بلون وشكل جديدين غير ما تدخره في قلبك الرقيق. إنه زمن الزيف يا صديقي فلا تسمح لهذا الزمن أن يشوه باطنك.

أشار إلى الشمس التي كانت تخلع ثوبها وراء الجبل تتهيأ للمبيت وأضاف:

– ألا ترى أن اليوم انتهى؟ كم ساعة ستحسبها في حسبان السعادة من ضمن ساعات هذا اليوم الذي رحل؟ ثب إلى رشدك أيها المجنون.

قلت بإلحاح:

– من لفق لي تلك التهمة يا رداد؟

انتفض من كرسيه وراح يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً، أشعل سيجارة أخرى وراح يدخن بعصبية شديدة بدت نافرة من وجهه كعاصفة مفاجئة:

– خالد، إلى متى ستبقى أسير هذا السؤال الذي حدث قد حدث، عليك أن تقصي هذه القضبان الجديدة التي تعتقل نفسك داخلها. ما الفائدة إن عرفت من لفق لك تلك التهمة. صدقني، ليس هناك فائدة. عليك أن تقبل على الحياة كما ينبغي لشخص ضاع عمر من عمره.

قلت وقد أصبحت متيقناً من أن رداد يعلم من وراء تلك التهمة إن لم يكن هو:

– بهذه البساطة يا رداد؟ أنت منذ أن صفعك المحقق يوم كنا في الجامعة آنذاك، أدركتَ أنك غير قادر على المضي بتلك الدرب. أرحت قلبك من كل ما كان يمكن أن يحدث لك، أما أنا فكان الحلم يدفعني لتجاوز أي شيء، أمّا أن يلفق لي أحد تلك التهمة، فهذا ما يجعلني أخسر رهاني على كل هذه الحياة.

بدا رداد متلعثماً وهو يحمل صينية الشاي التي قدمتها جدتي ثم انسحبت وهي تتمتم بأدعيتها الخاصة. سكب كأساً وأشعل سيجارة ثم بدا عليه أنه يحاول جاهداً أن يقصي ذلك المزاج العصبي الذي اعتراه في تلك اللحظة:

- يا خالد هذا مجرد رأي سمعته وأندم الآن أني أخبرتك به.
أشعل سيجارة أخرى وأخذ ينفث دخانها وهو يخفي علامات ألم خفي بدأت في تلك اللحظة تلوح على وجهه ثم قال:
- ألم تقل أن وجود سعاد في حياتك بدأ يختزل ذلك المعتقل الذي تحسه ينبض في صدرك وأنك ما عدت تفكر بأمر تلك التهمة؟
كنت أراقب ملامح وجهه وأتبينها جيداً:
- نعم أحس بذلك، لكني بت أشعر بمتناقضات ما عادت طاقتي التي أهدر نصفها المعتقل تقوى على تحملها.
اقترب مني وهو يضفي على وجهه ابتسامة متوترة:
- ها أنت تقول نصف طاقتك، صدقني أن هنالك من يعيشون برئة واحدة، ما بالك وأنت تتحدث عن طاقة يمكن للحياة أن تجددها.
دون مقدمات طرحت السؤال الثاني وأنا أدرك أن ثمة حلقات مفقودة تقودني لفهم ما يجري:
- ليلة أن أتيت لي بالحاسوب وبالسيارة، زل لسانك بشيء ولم تكمله يا رداد.
أمسك بي من كتفيّ وراح يهزني:
- اسمعني يا خالد، دعك من وساوسك. أنت لم تخرج من سجنك للآن. عليك أن تغادره.
أخرج من جيبه ورقة ثم أمدها لي:

- في هذه الورقة عنوان لشركة صيانة للطائرات. لقد حجزنا لك موعداً لتقابل مديرها. عليك أن تعمل. هنالك توصية بتعيينك.
غادر رداد دون أن ينصت لتساؤلاتي فكيف أعمل في شركة لصيانة الطائرات وقد غادرت الجامعة في آخر سنين دراستي؟
في صباح اليوم التالي انطلقت إلى الشركة أحمل توصية للعمل فيها موقعة باسم رجل لا أعرفه. قدمت الورقة للسكرتيرة فنهضت مسرعة إلى مكتب المدير بعد أن رحبت بي بحفاوة. ما هي إلا دقائق حتى عادت تشير إلى مكتب المدير وهي تمشي أمامي وقرعت الباب:
- تفضل استاز.
من وراء طاولة فخمة نهض شاب في أواخر الثلاثينات من العمر. صافحني بشدة وأشار إلى عدد من المقاعد أصطفت قريباً من طاولته:
- تفضل استاز خالد هون.
عاد إلى طاولته وقرع جرساً فعادت السكرتيرة مرة أخرى. قال لها بلهجة آمرة:
- ضيفي الأستاز.
قالت:
- شو تشرب حضرتك؟
- قهوة.

من صندوق خشبي فاخر قدم لي المدير سيجاراً ثم جلس بعد أن أشعله لي. قال وهو يتفرس وجهي:

- أنت من طرف أصدقاء صعب نفشلهم.

- أشكر حضرتك.

قلت ذلك وأنا استغرب كل تلك الحفاوة التي حظيت بها وأستغرب جانباً جديداً من رداد لم أعرفه من قبل.

قال وهو يضع ساقاً على ساق:

- استاز خالد معك سيرة ذاتية.

- لا ما معي.

أمسك بقلمه وتهيأ للكتابة في ورقة أمامه على منضدة صغيرة:

- طيب شو تخصصك بالضبط؟

- هندسة طيران.

دوّن تلك المعلومة وقال:

- وين اشتغلت قبل هيك؟

حينها دخلت السكرتيرة تحمل صينية عليها فنجان قهوة وكأس ماء وضعتهما أمامي. قلت وأنا أكابد طعم السيجار الذي لم أعتد تدخينه:

- اعتقلوني في آخر أيام الدراسة بالجامعة. قدمت كل امتحاناتي ونجحت لكن ما أخذت شهادتي وما سجلت بالنقابة ورجعت بعد عشرين سنه. يعني كنت أشتغل بالمعتقل اللي ربحت منو

القراءة والكتابة وأصدقاء صعب نسيانهم، يعني بإمكانك تحكي كاتب ماعندو كتب.

بضع علامات استغراب بدت على وجه السكرتيرة في الوقت الذي وضع المدير القلم على الطاولة وصمت لوقت قصير ثم قال للسكرتيرة قبل أن تغادر:

- افتحي ملف توظيف باسم الأستاذ خالد.

ثم نظر إلي مبتسماً:

- معتقل سياسي؟

- من وجهة نظرهم نعم. ومن وجهة نظري لأ، لأني انظلمت. لو اعتقلوني بسبب نشاطي السياسي بهذيك الأيام كان على الأقل لقيت إلهم عذر، لكنهم أخذوني بسبب تهمة أنا ما عملتها. بيقولو إني بدي أدمر البلد.

ربت على كتفي:

- لا تقلق كل شيء ينحل. مش مشكلة.

قُرع هاتفه فأجاب. كان يتحدث وينظر إلي لأدرك لحظتها أن موضوع المكالمة هو قرار تعييني في الشركة. من جانبه كان المدير مستمعاً إلا أن عبارته التي ختم بها المكالمة جعلتني أتأكد أنني موضوع الحديث وهو يقول: (بسيطة كل شي ينحل).

قلت له:

- مين كان معك على التلفون؟

- لا لا، هاي مكالمة بخصوص الشغل.

ثم أضاف:

- خلال أسابيع بننتظر منك باقي أوراقك، راح نساعدك في تحصيلها وراح نحضرلك مجموعه من الدورات داخل البلد وخارجه حتى تستعيد اندماجك في مهنتك.

كنت وهو يتحدث أفكر مستغرباً ذلك الاهتمام ومشككاً بحقيقة أن رداد قادر على تهيئة كل تلك الظروف لي.

- اتفقنا استاز خالد.

قال ذلك وهو يرى علامات الشرود على وجهي.

- اتفقنا.

عند الباب ذكرني بضرورة تحصيل باقي أوراقي لمباشرة العمل. عندما غادرت الشركة بصعوبة بالغة استطعت أن أجد اسم رداد في هاتفي المتنقل لأنني لم أكن قد اعتدت عليه بعد فهاتفته أتبين حقيقة ما جرى معي. لكن دون أن يقنعني أكد لي أن صداقة تربطه بإدارة تلك الشركة فلبوا رغبته بتعييني بها. كنت أتهيأ للعودة إلى القرية حينما أتاني اتصال سعاد. كان صوتها في تلك اللحظة المشوبة بالقلق جرعة ماء هبطت في فم جاف لفرط العطش:

- حبيبي، أنا في البيت أنتظرك بكل شغف.

عندما امتدت يدي وقرعتُ الباب، أطل وجهها باسماً وهي ترحب بي (أهلين حبيبي)، حتى بقيت لدقائق أراقب وجهها وأتحسسه بأصابعي وفي داخلي غيمات تهطل مطراً غزيراً كالمطر الذي كان في تلك الساعة يسح على زجاج النوافذ، كما لو أنه يدرك أن قلبي يحتاج للمسة نقية تجعله يقف على قدميه ويمضي خطوات إلى الأمام. في ردهة القلب كنت أعلم أنني قيّدتها بحبي

لها وأعطيتها المفتاح حتى يتسنى لها أن تتحرر متى شاءت ليس تحرراً يعني أن تتخلى عما ولد بيننا من حب، بل التحرر الذي يصبح فيه الحب فضاءً فسيحاً، لا جدران تخنق عالمها الخاص، إذ أعي أن الحب لا يحدث إلا لاثنين بكل جدارة العاطفة يقتحم كل منهما عالم الآخر الخاص، حيث تتلاشى الحدود وينمو مكانها احترام لم يُكتشف بعد في عوالم الشرق التي يموت فيها بسبب مكابدات العشق كل عام، ما يلفت القلب إلى أننا ما زلنا بحاجة إلى أن نقوض عرش الحب في زمن الشرق الذي أقحلت حقوله ولا بد من ربيع عربي آخر يكون فاتحة لزمن جديد فلا يمكننا أن نبدل حال البلاد ما دمنا بكل هذه الرجعية في العشق فقد صار لزاماً علينا أن نتعلم كيف نحب حتى ننجز ثورة حقيقية. بعد أن أمسكت بيدي وأخذتني للداخل وأغلقت الباب، قالت وهي تحرر وجهها من أناملي التي بقيت تقرأه بكل عطش:

– هيا سأريكَ أرجاء البيت.

كنت لحظتها استسلم لسكينة لم أعهدها قط، إذ حركت رأسي مستجيباً لما قالته فخلعت عني معطفي وعلقته على مشجب قرب الباب وأنا أراقب تلك الابتسامة التي تميل بشفتها السفلى إلى اليسار قليلاً فيصير وجهها أجمل. أمسكت بيدي تشرح لي كيف بنت البيت وتعرفني على أقسامه. كنت أراقب وجهها الذي بدا طفولياً أكثر من ذي قبل، وأراقب عينيها اللتين تشبهان البحر عندما تخلد الريح إلى نومها، وتخرج الشمس من وكرها، تمشط أمامه جدائلها الذهبية. إنها حالة السكون اللذيذة التي تمنح

عينيها مزيداً من الجمال. كانت ترتدي في تلك الليلة فستاناً حريرياً أسود يرتفع أعلى ركبتيها ثم يضيق عند خصرها، الذي بدا كخصر كمنجة وينحسر عند نهديها اللذين لاحا لي كأنهما حمامتان ناصعتا البياض. في الممر الذي يفضي إلى الشرفة سحبتها من خصرها إليّ واحتضنتها بعمق. كانت قد سرحت شعرها فصار ناعماً منسدلاً على كتفيها الناعمين، وهي بدورها تحتضنني بقوة فتماهينا، تماماً كحلم التماهي بسحابة. كنت عطشاناً لها، ولهذا نجحت بترك كل تساؤلاتي خلف الباب واستسلمت لحضنها قبالة النافذة العريضة للشرفة التي بدت أضواء عمان متماوجة من وراء زجاجها، حيث المطر يسحّ عليه كقصيدة تمسح شواطئ القلب بموسيقى الكمنجات. رحت أهذي بحبها الذي كنت أدرك أنني إن خسرته، سأخسر فرصة أن يغادرني زمن المعتقل العالق حتى بشعر صدري. قبلتها وفي أوردتي تمشي غيمات باردة في يوم تموزي قائظ.

- لنجلس قليلاً قرب الموقدة.

قالت ذلك ومشت بخطوات متمهلة نحو ركن في الصالة العريضة وموسيقى "شوبان" تشاغل قلبي بمقطوعته nocturne op.9 No.2. سكبتْ كأسين من النبيذ وعادت وأنا أنصاع لحضن الصوفة الذي أخذ شيئاً من دفء ألسنة النار وهي تتصاعد من الخشب في الموقدة التي احتلت ركنا من أركان صالة حفلت بلوحات وتحف فنية جلبتها معها من البلدان التي زارتها. قرب الموقدة، سقطت من زاوية الجدار إنارة أرجوانية خفيفة فبدا وجهها

كأنه يطل من جبين الشمس في صباح ربيعي. امتدت يدها تلامس وجهي وأنا أنظر إليها بعينين هادئتين وقالت هامسة:

– أحبك أكثر مما تتوقع. أقسم على ذلك يا خالد.

ارتمت على صدري وهي تردد بصوت خفيض كأنها تقرأ تلك الأفكار التي توجع البال:

– ما نقوله ليس كل ما يدور في دواخلنا. هنالك أشياء أخرى لم نقلها وهي الحقيقة بعينها.

كانت طقطقة الخشب في الموقدة تشيع في قلبي شيئاً من الطمأنينة من جانب، وتشعل ببيدر الجسد توقي لها حين قلتُ ويدي تغور في شعرها الذي اكتسب شيئاً من دفء منحته لنا ألسنة النار:

– لا تتركي يا سعاد زمن المعتقل يكبر في صدري أكثر مما تمدد من ذي قبل. هشميه بأناملك وبحبك لي.

طبعت قبلة على شفتي ثم نهضت نحو البيانو الذي وُضع قريباً من الموقدة وراحت تعزف. كان ظهرها، وهي جالسة إلى البيانو نصف عار، مموجاً بالزغب الأشقر تعزف مقطوعة "شوبان" "قطرات المطر"، تلك المقطوعة التي تثير بي الحنين كما يفعل الشتاء، الحنين الذي يقف بوجه وحشة تعشش داخلي كعنكبوت نسجت خيوطها على مهل. أنامل كانت خفية تجوس داخلي، تخبرني أن قضبان المعتقل التي بقيت في صدري كمرض لا شفاء منه، قد زالت لأنها معي. إحساس بالطمأنينة سرى في بدني وسحابة خفيفة كانت تمسح وجهي باللذة. كانت وبأناملها التي قبلتها أكثر مما اشتهيت، تستعيد مزاج "شوبان" وتزرع في

صدري، عالماً آخر يقف بوجه سلطة معتقل اعتقدت أن لا فكاك منها. ثمة لهفة دفعتني إلى أن أطوق عنقها بيدي وأفكر كيف كبر بيننا حب صادم في عوالم "الفيس بوك" الذي منحني وأنا أجترّ عزلتي نافذة على الناس، عبر كلماتهم التي مهما تنصلوا من علاقتها بعوالمهم الجوانية إلا أنها تصير مرآة لما يحلمون به،لما يتمنونه، ولما يثير بهم الوجع والفرح. بعد أن تركَت البيانو وفي جوفه يتردد صدى آخر نغمة عزفتها، آوينا (الصوفة) التي تقابل البيانو والشرفة التي تطل على مساء عَمّان، وحيث المسجلة التي أدارت مفتاحها تمنحنا مقطوعات موسيقية لشوبان، كان للغة الجسد معنى أن أحس بحرّية طائر أزيلت أسلاك القفص من أمامه ففتح المدى له ذراعيه الواسعتين. حينما تعانقنا صرت على يقين بأن الحب وحده هو القادر على أن يجعل الحياة تدب حتى في الحجارة.

* * *

بضع دموع شعرت بها لامست جسدي وهي تترك رأسها على صدري. راحت الدموع تزداد إلى جانب صدرها الذي كان يعلو ويهبط ببكاء صامت. بقيت أصابعي تسرح خصلات شعرها إلى أن كفت عن البكاء ثم نهضت لتغيب ثم تعود حاملة كأسيّ نبيذ.
قلت وأنا أسند رأسي على صدرها:
– أيحق لي الآن أن أسأل عن سبب كل ذلك البكاء؟
أمسكت سيجارتي وأخذت منها نفساً عميقاً ثم قالت كأنها تهمس:

- لا شيء حبيبي.

كثير من الإجابات في تلك اللحظة بقيت تلح عليّ إلى أن عاودت التساؤل:

- ما بك يا سعاد؟

جاءني صوتها مختلطاً بنبرة بكاء حاولت كتمانها:

- أليس من الموجع أن أتأخر كل هذا العمر عن الفرح؟ كيف يمكنني أن أسامح نفسي على كل تلك السنين التي ذهبت سدى؟

قالت ذلك وغار رأسها في صدري وراحت في بكاء مرير.

في تلك الليلة عانقتها قبالة الباب أودعها وأنا أحلم بها بؤبؤ عين لا يستقيم البصر إلا به.

* * *

بقيت على غير عادتي بعد تلك الليلة لأيام دون استحمام لأحتفظ برائحتها. إنه احتفاء بزمن أجمل ما فيه أنه مسروق من عالم يفتقد للشرعية في كل شيء. مازلت أتذكر كم مرة سرقنا من جعبة الوقت زمناً قصيراً، كان يساوي عمراً بأكمله كالممسوس، ما أن أستفيق من نومي القلق، حتى أتنفس كل إيقاع الرائحة في جسدي. كلماتها كانت تأتيني عبر سماعة الهاتف النّقال وأنا أغادر عمان في تلك الليلة وأتركُ لحظات مُستقطعة من سياق اليوم ككرات تتقافز في بهو روحي:

- أرشق جسدك بالماء ونَم. عليكَ أن تبدأ نهارك غداً بنشاط مختلف.

لم أقل لها أني سأنصب جداراً عازلاً بيني وبين الماء كي لا أخسر

إيقاعاً فريداً لما حدث بيننا في تلك الليلة، الذي حدث شيء لا يصدق، شيء يشبه صورة شعرية تتقافز على سطح النفس كما يقول باشلار. كانت سيارتي وكأنها تقود ذاتها عبر شوارع عمان التي بدت كأنها قطع من حرير تعبث بها نسمة هواء فتحيلها إلى مشهد يرتطم ببؤبؤ العين عبر مزاج بطيء وهلامي. من وراء المشهد كان "شتراوس" يرش لوعة شجنه وهو يحكي قصة الدانوب الأزرق، عبر مسجلة السيارة. بطء يرافقه جنون قلبي بك ونتفٌ من ابتسامة لي كانت ترتطم بكل شيء أراه. كانت السيارة تتدحرج على بطن الطريق كأنها قطرة ماء تأخذني إلى حيث لا أدري وشتراوس يحمل كل روائحها إلى رئتيّ ليضجّ بي الشهيق. عندما سكتت السيارة عن أنينها عند بوابة البيت، كان المطر قد توقف للتو فبدت أغصان دالية العنب التي ما زالت تحتفظ ببعض أوراق هاجمها الاصفرار كأوراق من ذهب تلمع بفعل إنارة سقطت عليها من بوابة البيت وقطرات الماء تشتت خيوطاً ضوئية تبعث على السكينة. الأرجوحة المعلقة في شجرة الفلفل ساكنة، بينما قطرات الماء تتساقط من حبل ربطها لجذع الشجرة الضخم. عبرت بوابة البيت بهدوء حتى لا أوقظ جدتي، التي غلبها النعاس كما يبدو فراحت في نوم عميق. في سريري، كنت ألامس كل تفاصيل سعاد في تلك الليلة التي جعلت من حياتي بأكملها مجرد أشياء مرهونة لاثنتي عشرة ساعة. كنت أقبّل عنقها الطويلة كأحلامي ببلادي وشفتاي تتتبع قبلات زوجها على عنقها. كم قبلة طبعها هنا وكنت أفتش بفمي الذي كان

يتذوقها بنهم طفل لقطعة حلوى عن بقايا طعم لقبلاته. حينها كنت سأقول لها تعالي لنستحمّ، لعل الماء يصبح قادراً على محو لحظات اغتصاب شرعية كانت تحدث لها. كنت بأصابعي أجوس جسدها بحثاً عن آثار تلك القيود التي عادة ما يخلفها هكذا نوع من الرجال في جسد امرأة تراوح بين سوءة المصير، وبين رغبتها بالانعتاق. مع مضي الأيام التي شهدت ليال من البوح عبر الأثير الذي كان لنا طاولة لقاء نقول عليها ما نريد. كنت أدرك أن امرأتين في داخلها تسيّران حياتها، امرأة تراقب أولادها وبناتها بعين من لا تريد لعائلتها أن تعيش من دون أب في مجتمع لا يعرف من المدنية سوى انتشار المتاجر الضخمة، العربات الفاخرة، موضات الملابس والأطعمة سريعة التناول، وامرأة أخرى تعي حاجتها لحياة بلا قيود يعمرها رجل لا تمتد يده إلى أشياء روحها الداخلية وتبعثرها. كانت ترواح ما بين هاتين المرأتين وهي تعلم أن سريرها بارد رغم اقتحاماته المتكررة لجسدها، بارد في غياب الحب الذي يمتد طويلاً ويجعل الحياة ملونة وقابلة للعيش حتى في عقر الهاجرات، والصقيع.

المعتقل - 4

راحت نتف الظلام تنهمر ببطء على خصلات الشمس التي كانت تقبل نوافذ البيوت وكأنها تودعها ثم ما لبثت الحافلة أن صارت كفلاح عائد من حقله يتعربش بثيابه التعب تتلمس دربها ببطء وهي تنهي آخر رحلة من لحظات المدينة الباحثة عن صوتها إلى قرية ما زال أطفالها يتراكضون إلى قرص الشمس الأحمر، يحلمون بالطريقة التي يمسكونه بها. خضّب صوت أم كلثوم المكان المسافر بلوعة تستمطر الحنين، بينما ركاب الحافلة يغرقون بإغفاءاتهم. كنت ما أزال غارقاً في اندهاشي، وفي لملمة الصور التي تتماوج في البال، أفكر بلوعة بينما الحافلة تخلف المدينة وراءها والأشجار التي أصطفت على جنبات الطريق تركض إلى الوراء:

(هذه الأشجار ما زالت تفض بكارة التراب وتشيع جذورها في كل الاتجاهات كصوت يسري في مساء مقمر حد الدهشة، أما هرمت ذاكراتها التي مرّ عليها مسافر ودع الطلول بحبات الدمع؟ وعاشق خبأ في حضن أغصانها شهيق الكلام ولعثمة البوح؟ وخائف استجار بكل ملاذات الدروب؟ وتائه نقش على أوراقها كل خرائطه وحدوده الميممة صوب المجهول؟ يا لهذه الأشجار؟ يا لهذه الأمكنة يا (باشلار)!

تذكرت يوم كان جدي يجبُّ أشجار الكرمة إذا ما هرمت،

وتذكرت عندما كنت أحتج على ذلك. كان يهدهدني بصوته الرخيم قائلاً:

– عندما أجبها يا ولدي، لا يعني هذا أني أحرمها من حياتها، إني أترك لها جذوراً في التراب لتعود إلينا من جديد، إني أستنطقها. أقنعني بذلك، ولكنني عندما كنت أذهب إليها أتأملها، أرى سائلاً شفافاً يشبه الدموع ينهمر منها فأذهب إليه وأصرخ بوجهه:

– أما قلت لك أن هذا حرام؟ تعال وانظر إن أشجار الكرمة تبكي.

فيضحك بصوته الجهوري ويقول:

– إنها دموع الفرح يا ولدي.

* * *

بقيت الحافلة تمخر عباب ظلام هطل على امتداد التراب والأفق فبدت إضاءات المنازل المتناثرة خارج تشنجات المدينة كنجوم سقطت للتو على الأرض ليتسلل إلى مخيلتي يقين يدلني على القرية وأنا عائد من مدينة لم يتبدل منها سوى الملامح وهي تقلد تلك المدن التي يمكنك أن تقول فيها ما تشاء. شعرت برجفة قوية قد انداحت في قلبي وانثالت في البال صورة لا يمكن أن تتلاشى بسهولة، الخطوات الأولى، الكلام الأول، الفرح الأول، الحزن الأول. القرية؟ حيث سقط الرأس واندحرت إلى الرئتين أول دفقة هوائية بعد فردوس الرحم والصراخ الأول. صور وروائح شتى انداحت في مكمن الإحساس بالأشياء. رائحة الطوابين ورائحة

الشتاء الذي يأتي بقبلته الأولى على خد التراب، حبات المطر العاشق المكابد عشقه الأزلي. من هناك، من البعيد الراكد في نورانية الفضاءات يسقط كموسيقى على شكل نتف من الزهور والتراب الأنثوي، سيدة العشق والخصب التي تعبت بطقوس الانتظار للحبيب ولتمرداته. عندما تلعج البروق في جبين المدى تكون الإشارة للكرنفال، وعندما يسقط المطر على حبات التراب، يكون العناق حالة هلامية نورانية فتشرق الشمس على حياة جديدة لتسري بعروق الأغصان فينداح الأخضر، الابن الشرعي لطقوس ذلك العشق الشاهق. كان الظلام قد استرخى فطوح ستائره السوداء ليلقي على القرية الغارقة في امتدادها نحو مسافات تعلقت بها غيوم توقظ إلى جانب الإحساس ببرودة الطقس، إحساساً آخر بالوحشة.

ألقت بي الحافلة على أطراف القرية وأنّت أنيناً متقطعاً وهي تبتعد لتتركني وحدي قبالة لحظة علي أن أستجمع كل طاقتي لأواجهها بعد كل هذا الغياب. عندما توقف المطر عن هطله، راحت رائحة التراب تمنحني بهجة قروية عتيقة افتقدتها عشرين عاماً. هويت جالساً أفترشُ التراب والنسمة الباردة تمر سريعاً قرب وجهي الذي كان مسترخياً أكثر من ذي قبل. قبضت حفنة من التراب المبتل فضجت في صدري رغبة ما لأقبله فشممته وقد صعدت في أوردتي موسيقى خبرتها منذ سنين، موسيقى لا يعرفها إلا غائب عن ذكريات بقيت معلقة في عنق روحه كتميمة أبدية

فقبلتها بعمق.

مشيت في القرية التي حفلت بكثير من الطرق المتقاطعة والممتدة شرقاً وغرباً، جنوباً وشمالاً. وقد امتلأت بالمحال التجارية وصراخ الكهرباء ولوحات الإعلانات وطراز عمراني جديد. تبدلات كبيرة جعلتني أتساءل: كيف حدث هذا بكل تلك السرعة؟ مررت قرب حانة كان فيها بعض سكارى يترنحون يميناً وشمالاً وهم يخرجون من بوابتها وقد قرفصت أعلاها عبارات بالإنجليزية، ينوء في أحشائها ضوء أحمر معربد فظننت للوهلة الأولى أنني في مكان غير المكان الذي قصدته، لكن بقايا بيوت قديمة متهدمة غيرت ما طرأ في خاطري من تيه مفرط. طفت مراراً في القرية التي ما عادت قرية، فلا بيادر، لا حصاد، لا حقول، ولا سهارى سوى متسكعين على أطراف حانة لا تبيع سوى غفلة الخمر. أبراج اتصالات معدنية تنتصب بوقاحة، أطباق تأسر كل بيت وكأنها تنوي منح أرواحهم أرواحاً معدنية أخرى.

كنت أتساءل مذهولاً وقد رأيتها فاقدة لروحها وكأنها صبية هرمت فراحوا يغدقونها بالمساحيق ليردموا مسافة ما، ما بين الصبا والشيخوخة:

- أية لعنة حلّت على هذه القرية؟ أين قريتي؟ من الذي سرقها؟ وأي لوثة عقلية عصفت بأهلها؟

شجيرات السرو الممتدة إلى الأعلى كخيوط دخان في مساء رائق، أكدت لي أن ذلك البيت الجاثم على كوع الطريق كأنشودة

قديمة، هو البيت الكبير الذي نشأت فيه، البيت الذي بناه جدي وقد لملم حجارته من كل أطراف القرية ومن قرى مجاوره. كان يحملها على أكتافه تارة، وأخرى على ظهر الحمار. أول بيت في القرية، يشير إلى نهاية زمنية من التنقل في الصحارى طلباً للماء والعشب. "البيت الكبير" الذي كانت تسميه جدتي بهذا الاسم. هو نفسه البيت الجاثم في ذاكرتي ببستان العنب والرمان والزيتون والتين الذي يلتف حوله وحظائر الأغنام والأبقار والماعز الواقعة في باحته الخلفية وأقنان الدجاج والحمام والبط التي شيدت تحت شجرة الفلفل الضخمة بأصوات سكانه وأغنياتهم وفرحهم وحزنهم وتعبهم اليومي.

ثمة فرح غامر ضج بصدري بغزارة وأنا أتلمس خيوطاً ما زالت تؤثث خفق القرية وأنفاسها في البال عندما كانت خطواتي تنزلق إلى البيت الكبير، وأنا أتساءل:

- كيف صمد هذا البيت؟

أمام الباب الخشبي العتيق، وقفت أكابد أنفاساً تعلو وتهبط في صدري. ما أن أمسكت بناصية شيء من الهدوء حتى رفعت يدي لأقرع الباب الذي غبت عنه زمناً طويلاً، لكنها ارتدت وكأن صدر الباب اتسعت رحابته أكثر مما هو متسع في تلك اللحظة فعادت أنفاسي لتختلط من جديد وكأني على مقربة من يباس أبديّ لفرط الحنين. رفعت يدي مرة أخرى، فتسلل إلى

مسامعي صوت يحوم في الداخل، فقرعت الباب بضع قرعات مشتتة، وأنا أغالب دمعتين سقطتا عنوة ليأتي من الداخل صوتها وهو محمل بكل أناشيد الانكسارات:

- مين، مين عالباب؟

قلت والكلمات تقصد مكانها من فمي مخنوقة ومرتعشة:

- أنا، أنا، أنا.

أطلت علي بوجهها الذي لم يتغير كثيراً، الأنف الجميل المدبب، العينان العسليتان اللتان يرقص بهما حداء السنين كلها والوشم البدوي الذي ينحدر إلى الذقن. لم تتغير كثيراً سوى أنها باتت تتعكز على عصا من أغصان شجرة التين المعمرة في البستان الذي يحوم حول البيت. كنت واقفاً دون حراك، وكأنني أكتم أنينا لا أود له أن يصعد إلى روحي مرة أخرى، بينما كانت تحاول أدراك ما يجري وهي تردد:

- أنا بحلم ولا بعلم؟ هذي ليلة مباركة يا وليدي.

امتدت يدها المهورة بوشم عتيق لتلامس خدي الذي ابتل بدموع حارة حدّ الحرقة ثم قالت وشفتاها ترتجفان وهي على أهبة بكاء مباغت:

- ما ني مصدقة إنك رجعت يا خويلد. الحمد إلك يا رب.

ارتميت في حضنها خائر القوى، حزيناً ومهزوماً يحوم في صدري نشيج مر:

- غيبتك طوّلت يا جديتي، وأنا كنت خايفه أموت قبل ما

أشوفك. ما مليت وأنا كل يوم أتحرى جيّتك. كنت أدري إنك جاي. بعدك خويلد اللي كان يتعربش على كتوفي مثل شمس إيدار. هاظا الشيب زلة يا جديتي. زلة الوكت. ما يهم. ما يهم يا خويلد.
نهضت من مكانها وهي تسير ببطء، تتكئ على عصاها باتجاه الباب وهي تردد بعجالة:

– هالساع أجيك. ودي أجيب شوية حطب الدنيا صقعه.

كنت ما أزال أكابد أحاسيسَ متقاطعة، كانت تهاجمني بشراسة، حين رحت أتجول في أرجاء البيت الكبير غرفة غرفة وقد بدا لي خاويا لا يضم إلا أنا وجدتي. قلت لها وهي تهم بإغلاق الباب خلفها، حاملة كومة من الحطب:

– وين اخواني وعمامي ماني شايفهم هان!

راحت تحشو الحطب في المدفأة ببطء وهي تحاول أن تشيح بوجهها عني فرأيتها ترتعش فجأة لينفجر بكاؤها الذي كانت تحاول أن تكتمه. استدرت لأقف قبالتها تماماً فرأيت وجهها غارقا في حزن كبير لم تستطع مداراته:

– وش في يا جدة؟

جلست وكأنها فقدت كل قواها التي استجمعتها لتنهار في لحظة اللقاء تلك. قالت وهي تجفف عينيها بكم ثوبها عبر نشيج يشبه نشيج الأطفال:

– يا جديدي سوالف كثيره صارت. هو وشنهو اللي ما صار.

قلت لها وقد تملكتني رعشة كما لو أنني بت عارياً في ليلة من

ليالي شباط:

- سولفيلي كل شي.

قالت:

- خواتك تجوزن وسافرن عبلاد برا. يقولو إنو هالبلاد ما بيها شغل.

- واخواني وينهم؟

- واخوانك سافروا يدورو على شغل. شايف يا خويلد شلون الدار صارت فاظيه.

حزن عميق غافل الفرحة التي اصطدمت بروحي عندما فتحت لي الباب الذي كان أنينه ما يزال يحبو في ذاكرتي وكأن آخر مرة لامسته البارحة.

قلت وشيء ما في أذني يسرد لي مرارة الإجابة مسبقاً:

- ول لهالدرجة!

ثم رحت أتساءل:

- أشوف دور عمامي ما بيها ظو!

اتكأت إلى الجدار تنشج كما الأطفال:

- العين الحاسدة صابت الدار يا وليدي. كان عمامك يمشو مع بعظهم وكنت أقولهم إن اللي يساووه ما هو زين. عيون الناس فاظيه ما يملاها غير التراب. مرضوا الأربعة وماتو واحد ورا الثاني. مر عالقرية سنه ما هي زينه ومثل ما انت شايف يا خويلد ما

ظل غيري أنا وياك.

بقي صوتي خافتاً مرتعشاً وكانت هي الأخرى تتسلل في داخل مفكرة سنين خلفت لها كل أشكال الخسارات تفتش عن إجابة تصلح لطفل داهم البياض شعره باكراً. قالت وهي تشنج بألم أعلنته دموع انحدرت بغزارة:

- كنت كل اللي ودياه تظلي هالدار صامده. كنت خايف عليها من هالدنيا اللي تغيرت. الدار هذي يا خويلد مر عليها زمن وناس كثار يا جديدتي.

قالت ذلك وغرقت في نشيج مر وهي تردد:

- لكن ما ني داريه لمتى اقدر أظلي واقفه على رجلي.

شعرت بصدى انهيار في داخلي يشبه اللحظة التي ماتت بها أمي يوم كنت طالباً في الجامعة فرأيتني طفلاً يقف في منتصف بنايات شاهقة انهارت دفعة واحدة، لأجدني واقفاً بكل حيرة وسط كل ذلك الركام.

عبرتُ بوابة البيت ووقفت أسند قامتي المتعبة إلى جذع شجرة الفلفل الضخمة وهي تقف في منتصف البستان كإله أسطوري والسماء في تلك اللحظة تغدق أمطارها وكأن شريانا قد بتر من صدرها فتدلى، كنت أحس في دواخلي ريحا سموماً كتلك التي كان تجوب امتدادات الصحراء لتعلن عن وحشتها ويسبح في أوردتي ليل ضالع بالوحدة والانكسار. جلست وقد أرخيت جسدي إلى جذع الشجرة والمطر يفر من الأعلى كرصاص معركة

ضارية يستبيح صدور الجند. رفعت رأسي عالياْ لتقتحم حبات المطر وجهي كأني أغرق في حالة قاسية من العطش ثم ارتميت على الطين وأنا أتساءل:

(كيف لم يخطر ببالي أن عشرين عاماً من الغياب يمكنها أن تبدل الكون كله؟ هل كنت على يقين أن كل شيء سيبقى رهن صورة كانت سائدة آنذاك؟)

نهضت على عجل وعبرت الباب وجسدي مغطى بالطين. قلت وأنا ألهث بينما جدتي متهالكة على نفسها وكأن قواها التي استجمعتها طوال كل تلك السنين قد نفدت للتو:

- أريد أن أذهب إلى قبورهم وقبر أمي؟

قالت وهي تتدارك لحظة كان من الممكن أن تودي بي إلى الجنون:

- روح يا جديدتي. تلاقيهم بحد بعظ. جدك، أمك، أبوك وعمامك. روح يا خويلد. وابكي مثل ما ودك. الدموع يا خويلد تغسل قليبك من الحزن.

ما أن خرجت من البيت، حتى صعدت الطريق الذي يقودني إلى القرية والمطر ما يزال يفتش عن وجه قديم لها. كانت ذاكرتي تتجه نحو قارعة الطفولة التي مضت دونما نية بالإياب، بينما وجوههم تخرج لي مبتسمة كأنهم لم يموتوا. رحت أعدو مسرعاً أفر إلى المقبرة التي حينما عبرت بوابتها واتجهت إلى الشمال، رأيت الزيتونة هناك تتمطى أعلى قبورهم. أسرعت بخطواتي فوصلت ثم

جثوت عند شاهدة القبر منهك القوى.

(لقد فعلتموها ورحلتم. استسلمتم للموت. لم يتسن لي، وأنا صريع تهمة لم أقترفها، أن أسلم عليكم واحداً واحداً. لقد رحلتم تباعاً، كأنكم تفعلون ذلك نكاية بغيابي. ما الذي تبقى لي! الذكريات؟ ماذا أفعل بها إزاء كل هذا الخواء؟ أيها الموت أما كان لك أن تكون أخف وطأة مما كنت عليه.؟)

عند قبر أمي جثوت منقوصاً من كل شيء سوى حزن يفتك بي: ها أنا عدت يا أمي. عاد طفلك الشقي. هل ترين كيف مضت تلك الأعوام وأنا أغيب قبل رحيلك في مدينة أكلت لحمي لما منحته لي من أحلامٍ كبيرة؟ لم تفارقيني لحظة من لحظات كنت أحارب فيها غول الإعتقال بسيوف الذاكرة. لقد كنت معي دائماً وكانت جبهاتي تسقط واحدة تلو الأخرى والضوء أمامي ينوس، ينوس ويخفت ثم أشعله من جديد بأمل بالنهارات لم ينقطع. كيف لي أن أعيد النظر بكل تفاصيل حياتي؟ وكيف لي أن أملك ذلك؟ لعلي أنجح بأن أرممني من جديد؟ كل شيء دونك يغدو كصفق أجنحة أنهكها رصاص الصيادين وأجنحتي بلا ريش وبلا تلك الأهزوجة التي تقرب لي المدى. أتذكرين عندما كنت أقول لك والشمس تنسحب من صفحة النهار لتختبئ خلف الجبل:

- إلى أين تذهب كل تلك العصافير التي تتجه نحو الشمس تصغر وتصغر إلى أن تصير في مسافات لا حيلة لنا على رؤيتها؟

كنت حينها بوقارك المعهود تقولين:

– إنها تذهب إلى مسافرين طالت بهم الغيبة، أنها تحمل لهم أخبار البلاد، فرحها، حزنها، موتها، ولادتها، شتاءها وقحطها.

ترى هل كنت تدركين في قرارة قلبك الدافئ أن ما حل بي سوف يحدث لا محالة؟

عند شاهدة القبر كنت جاثماً مبللاً بالماء والوحل كمن يلفظ أنفاسه الأخيرة بعد أن اقتلعوا الرصاصة من فؤاده وبات يضخ دماً حاراً. كانت السماء تزخ أمطارها، والرعود تجوب المساحات كلها، عندما أطلقت تلك الصرخة التي ركضت في سماء القرية الفسيحة وأنا أفتش الريح عن أمي وعن من غابوا.

المدينة الملونة

دفعتُ بساقيّ إلى الأمام ووضعت الحاسوب عليها بعد أن نكشت حفرة النار فهجم عليّ وهجُها مبدداً شيئاً من صفعات البرد التي تتدفق في الملاذ. كان وجه سعاد يلح عليّ بقسوة تتبدى من حقيقة أنها توغل في غيابها الذي يفتك بي كسرطان بحنجرة مغنٍ ظل طوال عمره يمنح المسامع خبز قلبه الطري. كنت وأنا أحتضن حاسوبي الذي تزودت لأجله ببطاريات احتياطية في عراء يخلو من الكهرباء، آمل أن أجد منها رسالة تهدهد كتف الحزن الذي يئن على نفسه داخلي.

أخذ المطر في تلك اللحظة ينسج خيوطه المائية على باب الملاذ الصخري كعنكبوت منهمكة بصنع بيتها. شغلت الحاسوب ولم

أعثر لها على وجود في "الفيس بوك". لم تكن هناك ولم تترك ولو سطراً فارغاً. ثمة فراغ موحش إلا من تلك الرسائل التي لم تجب عليها. شعور عارم بالوحشة اعترى قلبي كما تعتري القشعريرة مسامات الجسد. شعرت لحظتها أن ثمة قضبان راحت تقترب مني وهي تحتك مصدرة صريراً، إلى جانب جدران تتحرك نحوي والسقف الذي يحفل بنتوءات مدببة راح يهبط، بينما عواء الذئب يجيء متقطعاً على جناح غراب ينثر الليل بكل شهوة للكائنات. رحت أتململ في مكاني مرعوباً وأفتش بعجالة عن أي مهرب ينقذني من ذلك الزحف الذي سيهلكني ويحيلني إلى فراغ الموت الذي بقيت كل حياتي أرفضه بشده. كنت ما أزال في مكاني، بينما الحاسوب مرتكز على فخذيّ ويدي اليمنى على لوحة المؤشر في وقت اقتربت كل تلك الزواحف بهديرها المخيف، حاملة معها هلاكاً حتمياً. تسمرت عيناي على شاشة الحاسوب قبل أن يضغط إصبعي بشكل لا إرادي على زر المؤشر فرأيتني أعبر الشاشة، وقد تلاشت أصوات الجدران والقضبان والسقف التي كانت تزحف نحوي.

عبر دارات كهربائية وأسلاك دقيقة وكوابل ألياف بصرية ضخمة وطويلة، تحولت إلى ذرة صغيرة وخفيفة، وبسرعة تفوق سرعة الضوء، ولجت كوناً آخر فوجدتني في مدينة ملونة بألوان الحياة، ألوان الطيف القزحي، ألوان بدت كأخوة، كل واحد يعكف على لعبته ويلهو بها، تتوزع بتناسق يحيل إلى دهشة يمكنها أن

تلد الصرخة عنوة. تبدّى لي ذلك وأنا أمسح تلك المدينة الملونة بنظرة واسعة وأقف ببابها ساهماً ومصاباً بالدهشة، تهاجمني رعشة فاضحة، جعلتني أتساءل بتمتمة حول ما يحدث لي. كل شيء هناك كان آسراً، المنازل شجرية. كأن تلك المدينة وليدة فكرة عن الاخضرار، منازل تصعد في الهواء بشموخ هادئ وقد شُيّدت من أشجار تغرس جذورها في التراب، توغل في سخائها وهي تمنح أوراقا خضراء يانعة لم يطلها فصل الخريف. النوافذ بدت بهية بالبلور الرقيق الذي يضج منها لامعاً وهو يعكس أشعته التي تركض في الهواء كأنها خيوط نيازك في ليلة معتمة. رأيت فيما رأيت أن الماء يمشي في الشوارع على هيئة آدميين وحيوانات، تارة ترى الماء بهيئة امرأة تتبختر في الطريق وهي تربي تلك الخطوات الأنثوية التي تشيع في القلب نشوة غامرة، وتارة تراه في هيئة شاب يمسك بآلة موسيقية يعزف عليها دون توقف، وأخرى على هيئة غزالة تتقافز في الحقول ذات التراب الأرجواني الذي يتنفس بهوادة وهو يكترث بالورود التي بدت مصابة بالخدر؛ تماماً كما نتنفس عندما نحس بهدوء قَرَعَ أبواب القلب بعد تعب طويل البال.

موسيقى لذيذة لآلة غريبة كانت تعزفها امرأة عارية ترخي قدميها على غيمة كانت تطوف في سماء المدينة. كان لتلك الموسيقى سطوة ترطب جفافاً في داخلي فشعرت بسعادة غامرة تشبه السعادة التي تجتاح الروح يوم يرتعش الجسد وهو يصل إلى ذروة النشوة في حضن امرأة يحبها، سعادة جعلتني أتململ في مكاني

لفرط إحساسي بغرابة مختلطة باللذة والدهشة. ما إن تحركت قليلاً حتى أدركت أن الجاذبية معدومة في تلك المدينة فصار بإمكاني أن أحلّق كما كنت أرى في المنامات سابقاً قفزت في الهواء محاولاً اقتناص الفرصة بالتحليق فرأيتني إلى جانب قاطني تلك المدينة، الذين طفقوا على الهواء مرة واحدة، أحلق كما الطيور، ماداً ذراعي لتعتلي الريح. كنت كلما ارتقيت درج الهواء مرتفعاً إلى الأعلى أهوي ثم أستقيم فارداً ذراعي وبي نشوةٌ تحدث للواحد منا عندما يجد نفسه في خضم حالة طالما حلم بها. دفعني الفرح الغامر في التحليق للصراخ عالياً وانتشرت نشوة عارمة في أوردتي لفكرة التحليق ذاتها.

من الأعلى، بدت المدينة التي خلت من أسلاك الكهرباء ومولداتها، من العربات وضجيجها ومن الطائرات وزعيقها، كما لو أنها قصيدة لم تكتب بعد. كانت حالة مدهشة جعلتني فاغراً فاهي. كنت أتساءل في تلك اللحظات التي بدت لي خارج إطار الزمن البشري:

أي مدينة هذه التي تخلو من الكهرباء وأدخنة العربات وقاطعي الطرق ورجل الأمن الذي يخبئ وراء نظارته السوداء تربصاً بأي كلمة يمكنك أن تنطق بها. سكون لذيذ كان يعتري الأشياء بكل جسارة، لا ضجيج ولا صخب في تلك المدينة، مدينة لا جنود فيها،لا بنادق ولا سجون. قانونها الماء والشجر. كانت الشوارع خضراء طرية هلامية. هكذا شعرت حين وُجدتُ فجأة

هناك.

عدت من رحلة التحليق فرأيت الأشجار تمشي على الأرصفة، والطيور الخضراء تتناوب على حقن تلك الأشجار بمادة خضراء حتى لا تبهت فيها عين الاخضرار ثم تعود محلقة نحو الشمس التي تضع يدها على خدها تراقب الكائنات بكل روية. عندما عبرت الشارع الذي خلا من العربات واستويت على الرصيف قافزاً عدة قفزات. هرعت نحوي شجرة برتقال ومدت ساقها ثم منحتني حبة برتقال من غصنها قائلة:

- لا نسمح بالعطش هنا.

استغربت مشهد شجرة تتكلم. أمسكتْ بالبرتقالة، وقربتها مني ثم ضغطت عليها ليندلق السائل المنبعث منها في فمي مبدداً العطش الذي أصابني جراء رحلتي القصيرة البعيدة عبر الدارات الكهربائية وكوابل الألياف البصرية. قفزات قصيرة في الهواء جعلتني قرب خط من الماء في منتصف حشائش، يصدر عنها هسيس موسيقى تشارف على الانطلاق. يصعد ذلك الخط نحو السماء ويهبط، بينما يعلو هسيس العشب. ما إن مررتُ بجانبه حتى مشى الماء نحوي بهيئة زرافة تطاولت على العلوّ:

- أهلاً بك.

تساءلت بفزع، في مواجهة ماء يتحدث إليّ:

- من أنت؟

ضحكة مغناجة حلقت في الهواء، رشقتني باللذة:

– أنا أنت، وأنت أنا. رفيق تلك الشمس التي ترعى الأشياء في شرفتها العالية.

ثم رأيت الماء يطبع قبلة على فمي:

– ها أنا قد أكدّت فيك الحياة.

قال ذلك وعاد إلى رقصته البهلوانية في الهواء، بينما كنتُ أتابع رعشة تسري بي كما يسري المخدر في الوريد. قفزت في الهواء محلقاً فوق الشق الآخر من المدينة. ثمة رجل كان يضاجع امرأة على غيمة صارت سريراً لحب ناصع اتضح من تناغم حل بينهما جسداً لجسد وروحاً لروح. وفتى كان يغمس ريشته في سحابة ويكتب في ورقة بين يديه وامرأة تضطجع على سحابة أخرى وتقرأ كتاباً.

– يا إلهي، كل شيء هنا مصاب بشهوة التحليق.

هكذا عبرت عن دهشتي عندما هبطت في الشق الآخر من المدينة فشاهدت حقولاً واسعة عجت بأناس يقطفون ثماراً ورجل يقف على ظهر غيمة يغني للحقول المستسلمة للغناء الرقيق الذي كلما ارتفعت وتيرته أوغلت الأيادي بقطف الثمار التي لم أشاهد مثلها من قبل. لم يكن هناك خارج الحقول سواي. رأيت شجرة تمسك بيد كهل وتساعده على عبور الطريق التي تمضي إلى خارج الحقل. كان الكهل يمشي بهوادة المسنين، والشجرة تمشي هي الأخرى بهوادة، مبدية اهتماماً بمشية الكهل الذي ما إن مر قربي

حتى قال باسماً:

- في أيامي الأولى هنا وقفت مصاباً بما تحس به الآن.

كنت ما أزال ساهماً بالكهل الذي غطت خصلات شعره البيضاء كتفيه، عندما أضاف قائلاً وهو يشير للسماء:

- لا عليك، ما إن تختطفك تلك المرأة التي تعزف موسيقاها على ظهر تلك الغيمة حتى تصبح حافلاً بما تحفل به الآن.

عندما أوغل في خطواته وامتطى ظهر حصان بأجنحة، حلق في السماء مبتعداً، بدت الموسيقى التي تجيء من بطن الغيمة التي تجلس على ظهرها امرأة عارية، أكثر عذوبة وسطوة، وهي ترطب نحر القلب وتشيع في البال أغنيات عن التحليق.

* * *

كان الوقت مساء رائقاً فبدت الشمس غافية نصف إغفاءة وهي ترعى شؤون المدينة الملونة التي بدت مغرورة بسحرٍ يتقاطر من كائناتها وأشيائها. انتشرت في سمائها طيور تبدد العتمة بمصابيح ملونة تطل من صدورها. طيور بأجنحة غزيرة الريش وطويلة جداً، لها صدور واسعة تحلق بخفة وهي تتوزع في السماء بانتظام وتحمل على كاهل تحليقاتها الواسعة توزيع الضوء الذي يتساقط على بدن المدينة وكائناتها فتبدو الأشياء ساحرة كأنها ولدت للتو بدافع تلك الطزاجة التي تهاجم حواس ناظرها في مدينة بدت في ذلك المساء كسيمفونية حالمة، قبالة طيورٍ تحبب قاطني المدينة

بفكرة الليل الذي يعقد مع النهار صداقة واضحة.

كان قاطنوا المدينة الملونة يهبطون من السماء تارة، ويصعدون لها تارة أخرى. عندما كنت أتأهب لفكرة التحليق التي كانت تستهويني بشغف كبير. قبل أن أقفز تلك القفزة، سمعت أصواتاً من حديقة مجاورة للرصيف الهلامي الذي هبطت عليه قفزت قفزات خفيفة جعلتني أسترق النظر عبر الأشجار التي تصطف بجانب بعضها البعض تصغي السمع لمسرحية تعرض على ظهر غيمة هبطت من السماء، كأنها مسرح فسيح. أصابني الذهول جراء مواجهتي لتلك الأشياء التي تبدو خارج سياق عقلي البشري المهموم بأشياء كثيرة. أفسحت لي شجرة تفاح كانت مستغرقة بتأمل ما يجري على ذلك المسرح ثم عبرت إلى الداخل حيث ضج المكان الفسيح بروّاده من الشجر والطيور والحيوانات الغريبة والآدميين الذين يتأملون ما يحدث بكل استمتاع ودهشة واضحين. شهدت هناك المشهد الأخير. أربعة ممثلين يقومون بلعب أدوارهم على ظهر تلك الغيمة التي صارت مسرحاً متحركاً. الماء يتخذ هيئة غزالة رشيقة تقفز بخفة ساحرة ورجل بشعر طويل وملامح بدائية كما لو أنه أول الخلق، وامرأة عارية بشعر طويل ونظرات واسعة مليئة بحزن خفي يتقاطع مع دهشة واضحة إضافة إلى التراب وهو يخفق على ظهر الغيمة كخفق الذهب تحت الشمس بلمعانه المعهود.

كان الماء يتقافز على مسرح الغيمة وتجيء الموسيقى التي تعزفها

تلك المرأة من غيمة في السماء، حانية تمنح المشهد إطاراً درامياً يعزز الفكرة. بينما الماء يغني سارداً انتصاره على اليباب بكلمات تؤرخ للحياة صادفه الرجل ذو الملامح البدائية الذي ما إن احتك به الماء حتى توهج وتوهجت معه المرأة التي تحلق في سماء المسرح الغيميّ فاردة ذراعيها والمتفرجون يرددون كلماتها التي تحفز على الحياة، في الوقت الذي نهض التراب من مرقده على ظهر الغيمة معانقاً الماء في مشهد تعالت فيه تصفيقات المتفرجين، حتى الأشجار كانت تصفق بأغصانها وسيقانها فخيل لي أنني انضممت إلى المشهد الأخير من تلك المسرحية.

عندما خرجت من تلك الحديقة، هبط رجل من تحليقة واسعة في سماء المدينة وهو يمسك بنجمة صغيرة معلقة على غصن شجرة نائمة ووضعها على قلبه مبدياً عدداً من ارتعاشات اللذة ثم أعادها إلى مكانها بعد أن ازداد توهجاً. كنت ساهماً به حين اقترب مني وكأنه يدرك ذهولي مما رأيت:

– كنت مثلك غريباً عن هذه المدينة، لكن ما إن تختطفك تلك المرأة التي تعزف موسيقاها هناك على تلك الغيمة التي تحوم في سماء المدينة، حتى تتخلص من غربتك.

كان قد تأهب للقفز نحو السماء قبل أن أسأله:

– أراك تضع هذه النجمة على قلبك.

ابتسم وهو يضع يده المتوهجة على كتفي:

– لأن القلب هو نبع الحياة الدافق.

قلت:

- وهو الأرض التي تستقبل هطل الوجع أيضاً.

قال وهو يمسح بيده على جبيني المتعب.

- الوجع نتاج للأسئلة. لكن الحياة نتاج الأسئلة أيضاً.

- أنتم هنا بلا وجع.

قال وهو يشير إلى السماء:

- ما دامت تلك المرأة تعزف تلك الموسيقى باستمرارها الأبدي، لن يعبر الوجع باب هذه المدينة.

راقبت المرأة التي تعزف موسيقاها بكل لذة ثم تساءلت بدهشة:

- ولماذا النجمة؟

في تلك الأثناء رأيت النجمة تهتز على غصن الشجرة لتقترب مني:

- لأن النجوم وحدها القادرة على أن تجعلك تحلم بالبعيد.

تساءلت مرة أخرى:

- إذن، أنتم تحلمون مثلنا؟

- إن توقف الحلم، لن ترى تلك الألوان في هذه المدينة.

قال الرجل مبتسماً وهو يتأهب للقفز:

- لهذا السبب كانوا يخيفوننا من انتشار الثآليل ونحن نعد النجوم على محمل الأحلام في السماء قبل أن تختطفنا تلك المرأة.

قال ذلك وقام بقفزة طويلة فحلق في السماء إلى أن اختفى فتبعته بوثبة واسعة إذ حلقت في السماء قريباً من تلك المرأة التي تجلس

في حضن الغيمة وقد أنيرت في ذلك المساء بألوان زاهية. كانت الموسيقى التي تنبع من آلة موسيقية غريبة تعزف عليها المرأة، تشبه كائنات صغيرة كالفراشات ما إن تتطاير من جسد الآلة حتى تتوزع في الهواء ثم تنتشر باتجاه المنازل التي كانت تتنفس، بفعل أصلها الشجري كصدر لآدمي نائم فبدت تلك الترتيلات كما أنها طاقة تستهدف المدينة بأكملها، طاقة حتى الشجر والطير والتراب يقفون أمام رشقاتها محتفين بكل تلك الارتعاشات التي تدل على أن كهرباء ما، غير الكهرباء التي نعرفها تسري في مسامات الأشياء وتحيلها إلى حقيقة يمكنها أن تبقى كقلب لا تخطىء نبضاته وهي تنبض في جسد فتي وقوي.

– ألا تتعبين من عزفك المتواصل؟

قلت ذلك، وأنا أحوم حولها بكل رشاقة طالما رأيتها في مناماتي، تماماً بخفة الفراشات اللائي يحمن حول الضوء. لكن المرأة كانت مستغرقة في عزفها الرشيق فلم تجبني. كررت تساؤلي بشيء من القلق:

– أنت أيتها المرأة أجيبيني.

كانت ما تزال تعزف موسيقاها العجيبة عندما أجابت:

– وهل يتعب من يبتكر الحياة أيها الغريب؟

– يتعب، بالطبع.

ضحكت وهي تنشط بوتيرة عالية من الموسيقى فانتشرت تلك

الكائنات الساحرة التي تفر من جسد الآلة أكثر فأكثر ثم قالت:
- أنت تقول ذلك لأنك ما زلت مهموماً باغترابك الذي جاء بك إلى هنا.
قلت بعد أن صعدت عالياً في الهواء، أحتفي بانتشاء القدرة على التحليق:
- لكن ها أنا أحلّق، أترين؟
أطلقت ضحكة خفيفة كإيقاع مناسب لتلك الموسيقى التي تهطلها على الكائنات ثم سرحت بصرها عميقاً في المدينة:
- التحليق وحده ليس كافياً لتسقط عن جبينك تلك العبارة التي تقول بأنك غريب عن مدينة لا تحتفي بالغرباء سوى أياماً معدودة.
فوجئت بما قالت:
- ألم يخبروك أنك ستبقى هنا لأيام معدودة؟
قالت ذلك ثم استفاضت بموسيقاها التي بدت حانية أكثر ففردت ذراعيّ كما تفعل الطيور وهي ساكنة في الهواء عند نقطة واحدة:
- الموسيقى؟
- الموسيقى ضوء الكون وهذه مدينة تكره العتمة.
قالت ذلك واستمرت في عزفها وبقيتُ أحلق في سماء المدينة الملونة الغارقة في لذاذاتها الكونية.

* * *

كان الوقت ما بين الظهيرة والعصاري فبدت المدينة مكتظة

بقاطنيها الممتلئين بالحياة وهم يحلقون في سماء مدينتهم الملونة، أو يمشون على أرصفتها الهلامية التي تتبختر عليها الأشجار والطيور والماء في مشهد يجعل الناظر إليه ساهماً ليوم بأكمله. حلّقتُ في الهواء بعد قفزات متتالية اعتدت عليها فشاهدتُ البحر صفحة عريضة تدعوني للاقتراب. عندما هبطت على الشاطىء، رأيت امرأة تحتضن جديلة ماء كانت قد تواطأت مع سهوها. خُيِّل إليّ أن الماء كائن يمكنه أن يحس بما نضمره في القلب، كانت المرأة تحتضن تلك الجديلة كأنها تحتضن رجلاً شيد لها عمراً من الحب واللذاذات. كانت جديلة الماء تمسد شعر المرأة الذي بدا ذهبيّاً تحت أشعة الشمس التي توشوش بكلمات شمسية على محمل الحياة وهي تميل قليلاً في سماء المدينة. عندما رأتني جديلة الماء متجهاً نحو المرأة، التفتت إليّ المرأة ذاتها. قالت وهي تبتسم بعد أن أطلقت سراح الماء من حضنها فعاد إلى سرير البحر:

- أصبحت تحلق جيداً أيها الغريب.

ثم أضافت وهي تستند قليلاً من ضجعتها بتمهل أنثوي:

- التحليق هو الخطوة الأولى التي ستوصلك إلى تلك المرأة وموسيقاها الأبدية.

- وهل رأيتني قبل هذه اللحظة؟

قلت ذلك وجلست قربها أراقب جديلة الماء التي عادت إلى البحر، كما لو أنها كانت في مهمة ثم انتهت:

- كل أهل هذه المدينة يرونك.

قلت باستغراب:

- كلهم يرونني؟

قالت وهي ترفع رأسها نحو السماء:

- نعم كلهم يرونك فأنت الوحيد في هذه المدينة الذي لم تختطفه بعد تلك المرأة التي لن تتوقف عن عزف موسيقاها على ظهر تلك الغيمة.

نظرت لتلك المرأة التي ما توقفت عن العزف ثم تساءلت:

- ماذا عليّ أن أفعل لتختطفني تلك المرأة. لقد سئمت غربتي هذه.

قالت وهي تنثر شعرها الذهبي في هواء المكان:

- ثمة إشارات يجب أن تصلها من قلبك. حينها ستختطفك دون أن تعي.

- إشارات؟

- نعم إشارات.

بحنو لامست وجهي المتعب بأناملها، ثم أضافت:

- كثيرون هم الذين جاءوا إلى هذه المدينة ولم تختطفهم تلك المرأة. وكثيرون فازوا باختطافها.

لامست عيني بأصابعها:

- الإشارات برهان على رغبتك بخطوات تشتهي المضي بها.

قلت وأنا أسرد رغبتي بالحياة:

- لكنني مليء بالحلم.

قالت وهي تستلقي على الرمال:

- الحلم هو بادئة أولى، إن توقفت عندها ستبقى محض حالم، يرى الأشياء من بعيد ويكتفي بوصفها.

خرجت موجة في تلك اللحظة من عرض البحر، وعبر الرمال التي بدت بلون وردي، اقتربت مني متخذة شكل طائر يتأهب للتحليق:

- لا يمكن لتلك المرأة أن تختطفك دون أن تستفيض بالتحليق حولها أيها الغريب.

قالت ذلك، وانسابت إلى حضن البحر، الذي يرتب أثاثه لاستقبال الصيادين ليوم آخر.

من جهة السماء، جنح طائر كبير في الهواء ثم هوى حيثما أجلس يرفرف بأجنحتة الكبيرة ثم قال:

- الحلم بالأشياء فقط ليس كافياً لتنتزع ما تريده في هذه المدينة.

ثمة صوت عرفت فيما بعد أنه صوت الهواء كان يطوف بي وهو يردد:

- الغربة الأبدية دلالة على هشاشتك أنت، لا على أن تلك المرأة التي تعزف موسيقاها لم تخترك.

بدأت الأصوات تهاجمني من كل حدب وصوب وهي تحثني على قتل غربتي التي يقرأ عبارتها كل قاطني المدينة على جبيني المتعب.

ربتت المرأة التي كانت تحتضن جديلة الماء على كتفي وهي تفرك

جسدها بالرمال الوردية:

- يسمح لك بدخول هذه المدينة عدة مرات. إن عدت دون أن تختطفك تلك المرأة ستبقى خاسراً طوال حياتك.

تساءلت كأن النتيجة باتت نصب عيني:

- وما الذي سوف أجنيه من اختطافها ما دمت أحلق وما دمت أرى هذه المدينة بكامل جمالها؟

نثرت حفنة من الرمال الوردية التي راحت تتلألأ في الهواء وهي تصدر صوتاً موسيقياً يشبه صوت الموج:

- أن تكون ما تريد. أليس هذا حرياً بأن تستجمع قواك وتنطلق؟

أخذت أراقب كل الأشياء حولي وأنا أردد عبارتها بصوت خفيض:

- أن أكون ما أريد؟

- نعم أن تكون ما تريد.

قالت ذلك، وركضت إلى البحر وهي تقفز قفزات بهلوانية على سطح الماء ثم حلقت في الهواء وهي تردد:

- هيا قم وحلق حولها ما دمت هنا بعيداً عنها، ستعود خاسراً لا محالة.

قفزات قصيرة أخذتني نحو السماء، حلقت بقوة تجعلني كطائر يركب الهواء ويرى الأشياء بأكملها من العلو ويحس بأنه يمتلك تلك الريح التي تفرد له بدنها اللامتناهي ليكون منساباً دون توقف. كانت الموسيقى تجيء كسحابة بدأت تتلاشى من ذاتها، فتوزعت مساماتها في الريح لتبدو كنتف من ثلج صوفي اللثغة.

كانت امرأة الغيمة وصاحبة الموسيقى، ترخي قدميها على ظهر الغيمة مستغرقة في موسيقاها التي كانت توزعها للمدينة الملونة.
حلقت حولها:
- يا سيدة هذه التراتيل التي تمحق الغربة وتعلي من شأن وهج الوجود.
قالت وهي تحس بحاجتي ليديها، تختزلان من دمي ما علق بها من قضبان الوجع:
- نعم أيها الغريب.
- جئت إليك والقضبان تلاحقني من ذلك المعتقل الصحراوي البعيد، تضع على عاتقها مهمة سجني الأبدي والحبيبة التي اعتقدت أن ليديها القدرة على اختزال تلك القضبان من مداي منحتني بكل قسوة قضباناً أخرى، ورصاصة في جبين المسرات.
قالت وهي تمعن في موسيقاها:
- لكل واحد يدان فيهما السر على أن يمحو ما يريد ويكتب ما يريد.
قلت وقد دب بي نواح كنواح الذئب الذي بقي لعشرين عاماً يهدهد كتف القلب قبيل النوم في المعتقل:
- لكني أرى يديّ تحلقان. نعم أراهما تحلقان.
قالت وهي تمسح المدينة بنظرة واسعة من عينيها:
- اليدان اللتان ستمحوان ما تريده، وتكتبان ما تشتهيه، تستقران في قلبك. أنت تسجنهما. اطلقهما، حينها سيصير لك ما تريد.
- لكنهم كبّلوا كل شيء. ثمة أشياء في السجن كنت أحس بها تتساقط تماماً كجثة تبقى تحت الشمس دهراً، ما إن تمسها الريح

حتى تتهاوى.
نشطت بموسيقاها:
- اكسر قيدهم.
- لكنها أضافت قيداً آخر، تلك المرأة التي وعدتني بالحياة ثم اختفت كأنها لم تجيء.
قالت وهي ترمقني بنظرة قاسية:
- اكسره ما دمت تراه قيداً.
حلقت عالياً في الهواء، ارتقي المسافات التي كلما ذهبت عبرها إلى الأعالي، بدت لي المدينة الملونة أصغر وأصغر. بقيت أصعد حتى بدأت أسناني تصطك لشدة البرد إلى أن أخذت أهوي وذاكرتي تشرع أبوابها لكل شيء فرأيت حياتي تتناثر في الهواء كتراب تذروه الرياح، بينما الموسيقى التي تعزفها تلك المرأة تجيء على شكل طيور ضخمة تقترب من صدري وترشقني بماء بارد يصيبني بالرعاش وأنا أهوي كنيزك سقط من مستقره، راحت الغيمة التي تجلس عليها العازفة تنفتح فصارت كما لو أنها بوابة لجهة ما. كانت العازفة تقف على ظهر الغيمة تترك آلتها الموسيقية تعزف من تلقاء نفسها مزاجاً موسيقياً غريباً لم أسمعه منذ أن جئت هذه المدينة وترفع يديها كأنها تود أن تحضن الرياح التي هبت بجنون مفرط في تلك اللحظة وشعرها تناثر مع الرياح ثم أنساب مرتفعاً فوق المدينة كأنه مظلة بحجمها. تجمع قاطنو المدينة وأشجارها وحيواناتها وماؤها وهم يرفعون أياديهم في الهواء، يطلقون من حناجرهم رثماً موسيقياً واحداً بمعيتها، بينما كنت أهوي، وأهوي

إلى أن ابتلعتني الغيمة.

الجبل - 2

النار في العتمة أنيس وفيّ يبدد مرامي كائنات سرمدية توزع الوحشة في الأشياء. ثمة عواء أطلقه ذلك الذئب الذي كنت أحس به قريباً من ملاذي وهو يجيء كبوق نفير للحرب، يركض في صفحة السماء ويُهطل اللوعة. آه ما أقسى لوعة ذلك الذئب! ما بين عواء وآخر، زمن قصير، جوح يقطع نياط قلبي ويثير بي وحشة مكمنها إحساس غريزي بهذا الإيقاع الغريب. بعد أن تلاشى صوته، وبينما ألسنة النار تنعكس على جدران الملاذ، وعلى الصخور المتناثرة أمامه فخلقت ظلالاً متحركة تشبه أجساداً محنية، شعرت بحركة غريبة تجري قرب الباب ثم حولي فتحريتُ مصدر تلك الحركة التي أثارت بي شيئاً من الخوف لكنني لم أجد في الخارج سوى الرياح والبروق تلعج في المدى. لم أعد أثق بقدرتي التي يمكنها أن تفصل بين الواقع والخيال، بين الوهم والحقيقة. فعدت إلى مكاني قرب حفرة النار.

أمعنت الرياح في عويلها الموحش تنثر في هواء الجبل المستسلم لهوس الطبيعة بالخروج على السكوت، بيانات الصقيع الحادة يتسلل جزء منها عبر بوابة الملاذ الذي نحتته يد الطبيعة بالصدفة في صدر الجبل المشرع لمدى واسع حفل في تلك الليلة بشتاء مجنون. إنها رياح الثلج الذي لا يأتي فجأة، بل يرسل وهو يعقد

مع الكائنات اتفاقاً مسبقاً، مكاتيب البرودة تنذر بتجمد حبات الماء التي تلفظها غيوم تكابد المسافات. بدأ البرد يتسلل تحت جلدي ويثير بي قشعريرة كتلك التي تخالج قلبي في الغياب، هل كنت بحاجة لبرد آخر غير الذي عانيته طيلة عمري؟ اشتد هطل المطر أكثر من ذي قبل فرحت أسمع صوت تكسر أغصان الشجر، صفير الريح وهدير الماء وهو يجرف كل شيء معه عبر المنحدرات والوديان والشقوق الترابية التي أثثت نيبو. خفت أن يداهمني السيل فيأخذني للأسفل حيث ينحدر الماء إلى البحر الميت عبر شبكة الوديان التي تلتقي في مكان قريب من شاطئ البحر. كان من الممكن أن أتراخى عن حذري من أن يأخذني السيل معه إلى حيث تصير الأتربة والحصى والحجارة والشوك شيئاً واحداً في خضم الهدير، لكن ليس إلى بحرٍ ميت يخلو حتى من سمكة واحدة يمكنها أن تستفيد من جسدي.

خارج الملاذ وجدت حجراً بحواف حادة فحفرت قناة لتأخذ الماء بعيداً عنه. حول القناة رصفتُ حجارة لتكوّن سلسة تحجب عنه المياه. صوت أنين جاءني من داخل الملاذ، لكن لسعات البرد التي داهمت جسدي المبلل أشغلتني عن التفتيش عن مصدر ذلك الأنين. عدت ورحت أخلع ملابسي لأجففها ثم نشرتها على الجدران. ارتفعت وتيرة الأنين فإذا بي أفاجأ بذئب يرتعش برداً ويقطر ماءً داخل الملاذ، ذئب بملامح كسيرة في ضوء ألسنة النار بدت ملامحه أكثر وضوحاً وأنا أداري خوفي الذي راح

يتلاشى بخفة. شعرتُ بألفة غريبة نحو ذلك الذئب منذ الوهلة الأولى فاتكأت إلى الجدار وأغمضت عينيّ لينداح من الذاكرة ذلك العواء الذي بقي على مدار عشرين عاماً في الصحراء يداهمني كصلاة مجوسية في عنبر يضم عدداً من المعتقلين، لكن ما من أحد كان يسمعه سواي. فتحت عيني وما زال العواء يجيء من رحم الذاكرة، بينما الذئب ممدد على قوائمه قرب النار التي تلاشت ألسنتها وما تبقى سوى دفء جمرها المتقد يبتكر لونه الأحمر. رحت أتساءل:

أتراه ذلك الذئب بعينه؟ هل يمكن للذاكرة أن تلد ما منحته المخيلة ذات يوم فيصير المتخيل واقعاً ماثلاً أمام أعيننا ولن تصدق ما تراه؟ أم أنه صورة للذئب العربي الأصيل الذي قرأت عنه ذات يوم بجسده النحيل وأذنيه الكبيرتين؟ أتراه هو الذي يتمدد أمامي وتنعكس في صفرة عينيه ألسنة النار الحمراء فتبدو بلون آخر؟ كان جاثماً قرب النار التي انعكست ألسنتها في عينيه المقوستين ثم انسحبت إلى شعره الغزير الذي كسا بدناً ارتاح على قائمتين مَدّهما أمامه وأراح باقي بدنه على قوائمه الخلفية. بقيت لبرهة أقف متكئاً إلى الجدار والدنيا في الخارج تقوم وتقعد مطراً، رعوداً وبروقاً، بينما "بوتشيللي" يخضب اللحظة بصوته وإبريق الشاي الذي جثا هو الآخر على طرف النار يُحدث طقطقة وبخاراً مطعماً برائحة الميرمية.

تفكرتُ في أمرِ هذا الذئبِ وما له في مخيلاتنا المشحونة بحكاياه

المخيفة، هل أرى فيه اسماً مليئاً بالكبرياء أطلقه العرب على الرجل ذي البأس والقوة؟ أم عدوّاً للقطعان ورمز التعطش للدماء؟ أم أراه أنموذجاً للغدر والشراسة؟ أو ربما باعتباره رمز الشّيطان والشّر في مخطوطات العهد الجديد؟ أو عنصراً محارباً قورن بقبيلة "بينامين" لطبيعتها المحبة للحرب؟

كنت أنظر إليه فحسب، دون أن أتقاطع مع ما قرأته عنه وكنت أفكر بحزن يتصاعد من غور البال:

"ما الفارق بيني وبين هذا الذئب في هذه الليلة التي تسيل ظلاماً سخياً؟ هربتُ أنا من ظلمةِ معتقلٍ ما زالت تهجم على روحي ومن غياب سعاد الذي عاث بي وجعاً يصعب الخلاص منه ويهرب هو من ظلمة معتقلٍ أكبر فالصحراء تغدو سجناً كبيراً حين يخرج الذئب على القطيع ويصبح منبوذاً يحوم الصحراء وحيداً، دون أي معنى للحرية التي خرج على قطيعه من أجلها. أية طرائد نحن؟ وأي خاسرين"؟

اقتربت منه أكثر أحدثه:

"بيني وبينكَ ملح الخديعة أيها الذئب، بيني وبينك وجع حامض كطعم الخسارات، وبيننا شوك السؤال. منذ الليلة الأولى في المعتقل الصحراوي البعيد والتي أطبقتُ فيها جفنيّ لينداح الأسْود مجللاً حتى ذكرياتي، كان "جوحكَ" يعبر قضبان النافذة التي بدت كجرح غائر في الجبين، كان "جوحك" أيها الموجوع كغيمة طردتها الأشجار يمشي على غشاء القلب ككاهن مزمّل بالبياض

وبحزن النايات حينما تصير الحقيقة سمّاً يسري في الوريد. كان ذلك الجوح يمشي على غشاء القلب بخطوات متتالية بينما تسحّ في مكان قصيّ من القلب دمعات مالحة والأماكن القصية في القلب مخابئ للوجع، مثلما هي مخابئ للمسرات. عندما مسحتُ المعتقل بنظرة أخيرة عبر نافذة العربة العسكرية وهي تركض نحو المدينة، كنت أصخي السمع لأنين الرياح التي جاءت سادية، أتبينك عبر ذلك الأنين. أخرجت رأسي من بين قضبان النافذة ورحت "أعوي" فكان صوتي والرياح تحمله كاستغاثة المسافر حينما يستغيث بالذكريات. بقيت أعوي ولم يأتني جوحك ماشياً على غشاء القلب كما كان يحدث عبر العشرين عام التي أهدتني حزناً حامضاً. ارتميت على مقعد خشبي مسجى في العربة العسكرية كجثة باردة وغفوت بعد أن أطبقتُ جفنيّ وإذا بصوت جوحك يأتيني كصوت امرأة ترثي فقيدها الذي سرقته يد الموت من حضن الحياة. ها أنت هنا مرة ثانية في "نيبو" وجهاً لوجه ووجعاً لوجع وكأنك تسحب اللحظة من خيالها إلى حقل الواقع. هل تعرف يا رفيق هذه الليلة أن الواقع ما هو إلا وهم نثبط به وجع الخديعة؟

ها أنت هنا مرة ثانية، بيني وبينكَ فحوى الخديعة وبيننا هذه النار التي تجعل هذا الملاذ يصير مفارقة غريبة في خضم جنون الطبيعة. أتيتُ إلى هنا بعد أن رأى القلبُ وجه الحقيقة القاسي. أكلت البلاد على جثتي تفاح الغواية وشربت زنجبيل الخسارات. دسّت

الحبيبة يدها في الصدر حيث القلب الذي انتزعته وبقيت مرة تسد فوهة الوريد بإبهامها، ومرة تتركه ينزف كسماء تسيل نايات حزينة".

كانت عيناه لا تكفان عن التحديق بي وأنا أراقبه إلى أن اكتشفت أنني عارٍ من ملابسي التي تركتها لتجف، لمستها بأطراف أصابعي، وجدتها قد جفت قليلاً فلبستها. كان صوت أنفاسه واضحاً كالحقيقة حتى أنني أكاد رغم إيقاع العاصفة المتطرف أسمع نبضات قلبه. سكبت كأساً من الشاي وأشعلت سيجارة ورحت أفكر بشأن هذا الذئب الذي يشارك آدمياً ملاذاً واحداً وهما المتنافران دوماً، الآدمي يخاف الذئب، والذئب يخاف الآدمي وكلاهما في لحظات معينة يصيران وحوشاً ضارية. إن ما حدث في تلك اللحظة أكثر من نزعة إنسانية، ربما علي أن أقول أكثر من نزعة حيوانية احتراماً لنزعته وانتمائه لأننا تشاركنا في مكان واحد وهواء واحد، وسلام واحد ووجع واحد.

* * *

انضم الثلجُ إلى جنود الطبيعة الليليين الذين قرأوا في تلك الليلة صك الشتاء. ثمة عراك كان يحدث بين المطر والثلج، يذوب الثاني بسطوة الأول ليحمم بدن الكائنات. ارتميت قرب حفرة النار أجسر المسافة بيني وبين البرد. شعر الذئب يلامس شعر رأسي. أنفاسه التي بدت هادئة تمر قرب أذني. نبضات قلبه مسموعة أكثر من ذي قبل وهو يراقب الصمت الذي تؤنسه

النار في ملاذ شهد كل تلك الوحشة في ليلة، ربما هي في الأصل منام عابر كأي حدث سريع يأتي ليمضي. كان نيبو يشهق بلذعة الجنون التي يمنحها المطر عندما رحت أتناول شيئاً من طعام وضعتُ نصفاً منه أمام الذئب.

- كُلْ يا ذيب.

رمقني الذئب بكبرياء ولم يُبدِ ردة فعلٍ لحديثي فأردفت:

- كل يا ذيب، نحن أصدقاء وشركاء في هذا المكان الذي يجمعنا وسط جنون الطبيعة التي أغرقت الكائنات مطراً وبروقاً ورعوداً في هذه الليلة. لم أشأ أن أناديك بغير اسمك، أنت طريد هذه الليلة الدهماء، وأنا طريد حب شج قلبي نصفين كما يشج شهاب بطن السماء. حب بلاد عضت يد قلبي وحب امرأة قلدتني عقداً خرزاته، هي التناقضات بعينها.

تردد الذئب في إقباله على الطعام لكن جوعاً دفعه ليقترب منه ويلتقطه بأسنانه ليلتهمه كله. كنا نراقب وجوه بعضنا ونحن نتناول وجبتنا في تلك الليلة التي كانت الأرض فيها تتناول وجبتها من الماء وتحك جبينها بالبروق. رحت أحدثه وهو يقعي قرب حفرة النار، يسرح بصره عبر البوابة المطلّة على هطل المطر وتساقط الثلج:

(لم يعد هذا الزمن زمنك يا ذيب، ولم يعد زمناً لي أيضا! من أي صحراء أتيت؟ ومن أي زمن؟ كأنك خرجت للتو من (لامية العرب) التي ما زال صوت "الشنفرى" يصدح بها على مر

الصحارى التي تصير عنواناً للبلاد العربية، كأنك هربت للتو من تلك القصيدة التي صارت بياناً للحرية والأنفة والكبرياء والسمو، تلك القصيدة التي حَكَت عن حجم القهر والظلم والحرمان. أراك قادماً من صحراء تلك القصيدة المترعة بالحياة والفلسفة حينما تغدو الحياة ذاتها سهام مصوبة نحو الروح. يا ذيب، تركت ورائي عالماً مترعاً بالتناقضات لم أستطع الصمود بوجهه وبوجه غياب افتعلته امرأة رأيت بها حياة أخرى تنفض غبار سنين مرت كحصى في بلعوم مصاب بالعطش. قل لي، هل أحببت؟ هل رأيت الصحراء الممتدة مد الظن في البصر أوسع مما هي عليه؟ وهل جربت الغياب؟ الغياب الذي يجعلك ترى كل شيء ضيقاً كخرم إبرة؟ إن هذا ما يحدث لي، كل منا يجيء من معتقله إلى منفاه دون خليلة حتى ونحن نعيش اللحظة الحقيقية في الوطن.)

كان صامتاً ينظر إلي بعينين هادئتين، لذا اقتربت من النار ووضعت الحاسوب في حجري وعدت للكتابة.

سعاد - 5

كنت مستلق في سريري حينما أتاني اتصال سعاد الهاتفي تنبئني أنها قادمة إلى جبل نيبو. بدلت ملابسي بسرعة وانطلقت مسرعاً نحو رأس الشارع الذي يذهب نحو الجبل. كان لها وجه طفلة مبتهجة حينما هبطت نافذة سيارتها تطلب مني أن أصعد. انقشعت الغيوم ذلك الصباح الذي توجهنا فيه نحو الجبل فبدا المدى صافياً إلا من بضعة طيور ترخي أبدانها في الهواء الطري، آنذاك صعدت السيارة الطريق اللولبية فهبت نسمة هواء راحت تعبث بشعرها الطويل فتناثرت خصلات منه على وجهي وهو مضمخ بعطرها الذي يجعلني أحس بوجودها وسط ملايين من البشر. لحظتها شهقتُ بعمق كما لو أننا نلتقي للحظة الأولى. كان الجبل في ذلك الصباح يخلو من زائريه ورواده فتلاشت الأصوات إلا أصوات عصافير الدوري التي أتت زقزقاتها من بين أشجار السرو متقاطعة مع نقرات حذائها في إيقاع لحظة لا يمكن أن تتكرر مرتين.

ونحن نمشي عبر الممر المحاط بأشجار السرو نحو الكنيسة، ولدت حبات عرق خفيفة لاحتكاك باطن كف يدي بكف يدها وثمة اشتهاء صارخ تفجر جواي وكأنني لم أمض ليلة في بحر جسدها، ليلة مضت دون أن أرتو منه كما يمكن لماء أن يبدد قامة العطش. قرب السلسلة الحجرية التي انتصبت أمام بوابة الكنيسة وأمام

الصليب المعدني الضخم، وقفنا نستقبل الهواء الذي يجيء من فلسطين ماراً بالبحر الميت الذي بدا والنهر يركض نحوه كجرح في صدر التراب. ثمة موسيقى كنت أحسها تأتي من جسد المدى تمنح اللحظة مزاجاً أثيرياً وتعترف بها. من وراء الجبال، أطلت ملامح فلسطين طرية كأنها أجساد أطفال يلعبون مع الصباح ويدحرجون الشمس في الوادي. أشعلتُ سيجارتين، ناولتها واحدة فسحبت نفساً عميقاً ثم راحت بصوت منخفض تغني:

(يومه مويلي الهوا يما مويليه).

بقيت تردد هذا المقطع فرددته معها بنفس وتيرة الصوت، بينما دمعات تتدحرج على خديها اللذين لاحا لي أكثر حمرة مما عهدتهما. قالت وأنا أجفف تلك الدمعات برؤوس أناملي:

– قاس هو الإحساس الذي يذكرك دوماً مهما امتلكت من هبات هذه الحياة بأنك مجرد كائن مصاب بالخيبة، إحساسك بأنك بعيد عن بلاد هي لك لكنك ممنوع من أن تلامس حتى حجارتها.

كانت في تلك اللحظة تعيد غناء ذلك المقطع وتنفث دخان السيجارة في الهواء ونحن نعبر الممر الذي يأخذنا خارج الكنيسة التي استدار حولها جدار من حجارة المكان ذاته. وقفت قرب شجرة زيتون حفلت بنقوش لأسماء عشاق زاروا المكان وأخرجت قلماً من حقيبتها ونقشت أول حرف من اسمي متقاطعاً مع أول حرف من اسمها. عندما تمازج الحرفان شعرت بأن قدراً واضحاً وضعنا في طريق لن تكون سهلة على الرغم من شموس البهجة

التي تسطع في سماء قلبينا. قلت وهي تراقب طائراً صعد من الوادي السحيق واعتلى جبين الهواء:
- الشجر يمكنه أن يحتفظ بالذكريات حتى وإن استأصلوه وصّيروه مقعداً أو طاولة أو خزانة، الشّجر وفيّ للذاكرة يا خالد.
كانت تغني بفرح والعربة تهبط الطريق إلى الطرف الآخر من الجبل حيث اعتدت أن أمضي ساعات هناك أقشر برتقال الوقت في شرفة السّهو. ركنتُ السيارة وكان الجبل في ذلك الصباح قد لبس شال الاخضرار فافترشنا عشباً فاح عبقه في الهواء الطري الذي تحالف مع رغبتي بالاحتفاء بها كما يمكن لرجل يود أن يبني حياة جديدة تدهن سواد سنين قاسية ببياض أزلي. جمعت بضعة أعواد من الحطب وحشرتها بين ثلاثة حجارة ارتكز عليها إبريق الشاي الذي ما إن وصل ماؤه إلى درجة الغليان حتى فاحت رائحة الزعتر البري. أخذت تحوم حول النار كفراشة تدور حول الضوء ثم تفرد ذراعيها للريح كطائر يتأهب للطيران للمرة الأولى والريح تطاير خصلات شعرها التي تناثرت كسنابل قمح في هواء البيدر ثم ارتمت على صدري وهي تردد وأنفاسها تعلو وتهبط:
- كم أنا سعيدة.
راحت تشرب الشاي كأنه نبيذ معتق يُحدث لها دوخاناً لذيذاً وفي حديثها تختزل من تكوينها آثار المدن البعيدة التي نهشت روحها وهي تعاملها كآلة عليها أن تعمل ليلا نهارا لتكون الحسبة في آخر اليوم كم دولاراً جنت وكم صفقة تجارية عقدت. كنتُ

في تلك اللحظة مستمعاً جيداً لأنني أدركت حاجتها الملحة لاستعادة ذاتها التي سُرقت على مرأى منها وهي تقول:

(حينما تركت عمان، كنت في ذلك الوقت أداوي الجرح بالملح فقد خرجت من قصة حب فاشلة وذهبت نحو زواج تقليدي وصفقة مربحة اخترتها بنفسي. لقد اخترت سجني بنفسي يا خالد، قرعت والدته الباب وتحدثت لساعات مع والدتي ثم غادرت لتضعني والدتي أمام تفاصيل ذلك الرجل التي لا تتعدى حدود هالته أكثر من كونه رجل أعمال تحسب زيادة ثروته بالدقيقة. لم أره في البدء إذ بقيت أمه تكرر الزيارات لبيتنا وهي تمهد الطريق أمام ولدها الذي سمع عني من بنات الجيران. في أول الأمر رفضت توسلات أمي التي كانت ترى أن ذلك الرجل يمتلك مفاتيح السعادة لأي امرأة ترغب بالزواج فقد ولد في حينا وغادره مع عائلته قبل أن يعي الأشياء من حوله. هناك صنعت عائلته ثروة كبيرة وأصبح من ذلك النوع من رجال الأعمال الذين لا يتوقف الطموح لديهم بنمو ثروتهم. في تلك الأيام لم أكن أرغب بأي شكل من أشكال الارتباط. في البدء رفضت لكنني فيما بعد رحت أنحني عند رأس والدتي وهي منهمكة في حياكة ثوب يهمها أن تقتل الوقت عبره أكثر مما يهمها الثوب ذاته:

– أنا موافقة يمَه.

فهرعت للهاتف تتحدث لوالدة رجل لا أعرفه حتى هذه اللحظة وهو يتنقل بين أحضان عشيقاته واحدة تلو أخرى ولا يتوانى عن

كيل الجراح لي مرة تلو أخرى. تماماً كأنه اشترى ذلك الكيس المحشو بالقطن يتدرب على لكمه كل يوم ليشتد ساعده فتكمن في تصرفاته، تلك أغرب تناقضاته التي أهلكتني حد الموت. في زياراتنا العائلية يبدو رجلاً رقيقاً في غاية اللطف مع النساء اللائي يحسدنني عليه وأنا أخفي وراء جدار كرامتي صورة بشعة لرجل لا تربطني به سوى حاجة أولادي لأب يبقى قريباً منهم.)

توقفت عن حديثها فجأة وراحت ترتجف وقد تلبستها ملامح الارتباك ثم عاودت الحديث وهي تدخن بنهم:

(الشيء الوحيد الذي راح يلح علي هي الرغبة في مغادرة البلاد، كنت أريد أن أتخلص من كل شيء، الذكريات، الروائح، الأصوات، الشوارع، الطرقات، الليالي، الأمسيات، حتى أحلامي وأمنياتي كنت أرغب بأن أستل مسدساً ما وأقتلها دون رحمة وأختار سجني بيدي. عندما وافقت على الزواج به وكنت قد أتقنت ذلك الدور أمام عائلتي بأنني سعيدة بما يحدث. رأيته في البدء ذلك الرجل الذي يتعلق بي بصورة غريبة كأنه يعرفني منذ أمد بعيد. كان يعاملني كما يعامل أمير أميرة. في فترة الخطوبة القصيرة قبل الزواج يصطحبني كل ليلة إلى أماكن لم أعهدها من قبل ويقدمني إلى أصدقائه وصديقاته في مجتمع لم أكن معتادة عليه وأنا أطل من نافذة الطائرة التي أقلتني من عمان كطفلة تُسحب من حضن أمها، بدت لي الذكريات كغيوم ترافق الطائرة. حلمي بحزب يحقق لي صوتاً عالياً يمكنه أن يجابه الخراب، اللحظات

التي أمضيتها مع أصدقاء الحلم، عملي في الصحيفة، حيث ألوذ بالكلمات لأعبر عن ذاتي المشروخة منذ أمد بعيد لأرسم لها عالماً مهما كان خيالياً يُمكِّنني أن أعيش حتى ولو بابتسامة مزورة. أمي التي كنت أحس بأنني أراها للمرة الأخيرة ولن أعود إلا لأتقبل العزاء بموتها، لذلك كنت أدرك عبر سنين الغربة أن امرأة مثلي اقتلعت كنبتة من تربة بلادها ستغدو مجرد فكرة في الهواء دون رجل يصير لها وطناً يعوضها عن وطنها، الذي سرق على مرأى من عالم لا يحتفي إلا بلغة المال فقط.

عبر تلك السنين الموجعة مع ذلك الرجل، أدركت أن حياتي صارت رهناً لأطفال علي أن أعمل ليلاً نهاراً لأكون وطناً لهم ورهناً لمؤسسة الزواج التي لم تمنحني سوى قوانين غير نافذة إلا علي كامرأة مستنزفة باسم الواجب والمسؤولية فأحظى بالقيد. إنها قيود كلما كبرنا، اكتشفنا زيفها واكتشفنا كم خسرنا أمام حياة كان علينا أن نعيشها كما ينبغي لرحالة ما إن تطأ قدمه بلاداً حتى يحن إلى بلاد أخرى. إنها تلك الحالة التي نحس حيالها بالحرية وعدم الالتزام لأي شيء مثلما يصيبك بالفرح، يصيبك أيضاً بالكدر. في الليلة الأولى وفي السرير معه، لم يكن بمقدوري أن أكون تلك المرأة التي تحتفي بليلة تحلم بها أي فتاة وتبدي مزيداً من الحب والشهوة. كنت باردة جداً إلى درجة كنت فيها مجرد جسد يرتمي فوقه رجل ظل يأكل منه حتى شبع. عندما عبر بوابة الحمام وراح يرشق جسده بزخات الماء الساخن ويردد أغنية

بانتشاء المنتصر، بقيت أراقب الدم الذي كان يسيل من بين فخذي دون أي إحساس لعروس تحتفي بليلتها الأولى والمشاهد في مخيلتي تختلط ببعضها البعض، رجل ذلك الصباح الماطر الذي كنت اعتقدت وأنا أحتمي به من المطر أنني عثرت على فردوسي. مشهد لجاريّ السعيدين وهما يتضاجعان، مشهد للحي وهو يزخر بالضجيج. نمت في تلك الليلة وأنا أعي أنه علي أن أتقن تمثيل دور المرأة السعيدة مع زوجها لسنين طويلة حتى تستمر الحياة لأن الذي يوجعنا من الداخل يبقى عصياً على أن يحس به أحد ينظر إلينا فحسب دون أن يتساءل ما الذي يحدث لنا بالضبط. مع مرور الأيام التي كنت أبتكر فيها لحظات تجعله سعيداً، بدأت أستشعر كم أنا خاسرة فمن السهل أن نداري الحقيقة عن الناس، لكن من الصعب مداراتها عن أنفسنا، خصوصاً في تلك الأوقات التي نضع فيها رؤوسنا على الوسادة ونصبح فيها قادرين على التفكير وتأمل كل شيء. أصبحت مجرد شيء يقتنيه، شيء يعرضه أمام أصدقائه، لم يعد يبالي بكينونتي كأنثى أقسمت أن تخلص له طوال الوقت. نساء كثيرات في حياته، إهانات كثيرة في حياتي. لقد تجلت شخصيته المتسلطة في أبشع صورها، حيث وصلت إلى ذلك النوع من الضرب الذي يترك جراحاً غائرة في الروح أكثر مما يتركه في الجسد.

عشرون عاماً مضت أنجبت عبرها أولاداً وبناتاً بت بعدها غير متأكدة من أنني أرغب في ممارسة الجنس إذ لم يعد لتلك

العلاقات التي يمكنها أن تأخذ الروح فينا إلى مدارات للتحليق، ذلك القدر الكبير من الأهمية بالنسبة لي، حيث أنني أصبحت أشبع شهوتي بمفردي أكثر مما أشبعها هو كزوج لي في زمن سابق. نحن نعيش في بيت واحد ولا نعيش في ذلك البيت الذي لا يمكن أن يشيده إلا زوجان سعيدان. كنت عندما أغمض عينيّ يمكنني أن أبتكر أيّ رجل أريده، إنها تلك المساحة الوحيدة بلا رقابة، المساحة الوحيدة التي يمكنني عبرها أن أفعل ما أريد. قليلاً من سمرة البشرة التي من شأنها أن تنهر تلك الخلايا المعنية بالشبق، شعر أسود وثقيل يتماوج قرب أذنيه، شارب حليق أعلى شفتين شهيتين لقبلة، عينان تشبهان رصيفاً ليس فيه سوى أشجار هادئة وموسيقى بيانو خفيفة تجيء من مكان خفي، قامة متوسطة بكتفين معتدلين، بلا كرش متهدل، يدان دافئتان. كثير من الجنون في صوته حينما يتحدث بلهفة، جنون في مشيته، في رغبته العارمة باحتضاني، في بريق عينيه وهو يدنو مني، زخة عطر رجولي حارق يبتكر اللهفة، لهاث، تمارين في الغواية، اقتراب تدريجي، عناق طويل، جرأة في طلب اللذة شهيق، شهيق، شهيق. حينها أصرخ باللذة ثم أشهق بدمعة مالحة وأنام وقد رتبتُ ملابس القهر قرب وسادتي.

أمضيت بسبب نظرته الغريبة والعجيبة لي أوقاتاً طويلة وحيدة وقاسية عبرها كنت أتألم وأكابد حلمي بالحياة. كنت من وقت لآخر لا أشعر أنني امرأة متزوجة فقد أصبحت بعد خمس عشرة سنة مضت بقسوة مشمئزة منه لأقصى حد يمكن أن تذهب إليه

امرأة، عرفت منذ ليلتها الأولى أنها مجرد عقار يمتلكه تاجر، إذ لا أجد حرجاً في القول أنني خلال الفترة الماضية لم يرتعش جسدي في حضن زوجي، لهذا اخترت أن أكون عازبة، الأمر الذي أتاح لي قضاء أجمل فترة من حياتي التي رغم وحدتي فيها كنت منكبّة على القراءة وعلى عمل كان يأتي على أوقاتي كلها، حيث ساعدتني تلك الطريقة في الحياة على حصد مزيد من استقلاليتي ومواهبي بحيث بت لا أعتبر تلك الفترة كفاصل زمني، بل هذا ما كنت بحاجة إليه في الماضي. كان صعباً للغاية العثور على أحد يعجبني، يجذبني ويحترمني في الوقت الذي لا يمارس ضغطاً علي. عندما عرفتك، أدركت أن ثمة متسع لوطن يمكنه أن يستوعبني بكل شروخي وتناقضاتي، أشعر بأنني كاملة وسعيدة وحرة في كل ما أحس أو أفكر به، الغضب، الحماقات، القلق، الأفكار العامة، اللذة وردود الفعل على مواقف مسلم بها. نحن شيء واحد يا خالد، وما حدث لنا هو ذات المصير. أنت رحلت إلى معتقلك، وأنا رحلت إلى بلاد لا تفهم سوى لغة المال، وها نحن نعاني زمن المعتقل الإضافي. كل منا كان معتقلاً. أنت أمضيت عشرين عاماً في معتقل في أقاصي الصحراء، وأنا أمضيت عشرين عاماً في بلاد كسجن كبير لا تحتفي بإنسانيتي.)

بعد أن انتهت من حديثها هوت في حضني كما يهوي نجم في سماء ليلة صيفية وكان الجبل أخضرَ كقلبها الذي منحني لهجته فصار فراشنا على مرأى من البحر ومن فلسطين.

الجبل - 3

كأن جدران الملاذ اشتهت عظامي، شعرت بها تتحرك نحوي فجثوت على ركبتي قرب الذئب وهو يستسلم لكسله، أصرخ بوجهه وأنا أراوح ما بين شعور بالخوف، وشعور بالاختناق:

– ألست أيها الذئب سليل البراري والبراري وطن الرعد والبرق والمطر والريح والعواصف؟ وطن الوحشة والغربة والقسوة والبرد والهجير؟ وطن الصراخ والجوح والصعلكة؟ وطن السؤال والإجابات؟ البراري تلك الأوطان التي بسببها شكل الإنسان أسئلته الأولى وصاغ لها الإجابات. قم أيها الذئب، النار لن تنطفئ في حفرتها هذه ولن تنطفئ في صدورنا. سنتركها هنا تربي لغتها كما ينبغي للغة النار أن تربي اشتعالها. هيا يا صديقي خذ بيدي إلى حيث كنت تجوح قبل أن تلوذ بي وبملاذي. تعال أيها الهارب من صحارى الصحارى. أنا أنت، وأنت أنا.

كأنه استفاق من إغفاءة طويلة، ارتعش فجأة ووقف على قدميه مرة واحدة ثم انتفض فلاح تحت ألسنة النار التي كانت تتراقص كبدائيين حول شهوة النار في الخشب بفعل هبات الرياح التي أصبحت تتدفق من وراء الجبال وهي تنتصب وراء البحر الميت بقوة نحو الملاذ حاملة على متنها جسد الماء الذي عمّد نيبو في تلك الليلة بطقوس الماء الكونية. اقتربت منه وقد غشت وجهي ملامح ذئبية أنجزها إحساس غريزي يجيء من صحارى

تقبع داخلي منذ أمد بعيد، صحارى مليئة بالوحشة والانكسار الخفي.

منحت صوتي، ملامحي وامتداد الأعصاب في جسدي كل ما يمكن للذئاب أن تفعله وبدوره بادلني لغته التي جاءت من طبيعة على جبينها لغة القسوة والهجير، تلك اللغة التي كنت أحس بها، تماماً كإحساسنا بأغنية لا نفهم كلماتها ولغتها، لكنها تغور إلى تجاويف النفس وتخلق صرخة تنم عن دهشة متطرفة. كان الرعد والبرق والمطر ثلاثة يتكاتفون في تلك اللحظة على خلق رثم يستهدف الجبل فبدا مشوباً بعناصر الوحشة، الرعب، الخوف، الفرح، الخصب، النماء، الوحدة، الدهشة والنغم. اقتربت بوجهي أكثر فأكثر من وجه الذئب وقد عادت إليه ملامحه التي عهدتها سليلة صحارٍ تعترف بلغة الطرائد والسمو والبطش والأنفة تعترف بكل تلك التناقضات مرة واحدة ورحت أتقمص لغته ثم أرخي العنان للغتي الآدمية لتهوي عبر سماء لغته كشهاب شبق يشق بطن المدى:

- منذ أن وطئت قدماي تراب الجبل في هذه الليلة التي تختلف عن كل ليالي عمري الذي فقد بوصلته منذ نبضه الأول وأنت تعوي وتجوح أيها القادم من مقامات البطش تتقدمها مخالبك التي حفرت بها تهمتك الأولى على أجساد طرائدك.

قم لنعتلي رأس الجبل، تعال لنركض في الشعاب والوديان، تعال نتسلق درج الريح، ثمة مسافات لا تنتظر.

كأن الريح طوع يدي وخطواتي. كنت أركض، أركض غير آبهٍ بالمسافة وهي تجري نحو رأس الجبل، مسافة تلبستها الطريق المليئة بالحجارة والشوك الحولي والأعشاب الغضة التي تسبب الانزلاقات. كان الذئب يعب المسافة بيديه، وقدميه كأنه سفينة تمخر عباب الماء وكانت الدنيا مطر ورعود وبروق ومني تنسلّ سنون لطخ المعتقل بها جدراني الداخلية كما تلطخ ألسنة النار جدران الكهوف. تفاصيل كثيرة كنت أحس بها تتناثر مني وأنا أعدو مثل ذلك الذئب الذي كلما اشتدت خطواته، تشتد خطواتي. هبطنا إلى الوادي الذي يهدر بسيل ماء يجرف معه أغصان الأشجار والحجارة والحصى. رمى الذئب ببدنه في الماء دون تلكؤ فتبعته كأن قامة الخوف قد جز عنقها سيفُ المسافات. أخذت أعوم بمعية الذئب فصرنا شيئاً واحداً. كان الماء يأخذنا باتجاه الأسفل، حيث يركض الماء إلى وادٍ سحيق. نحو الضفة الأخرى للوادي، قفز الذئب سريعاً وتبعته بوثبة سريعة. راح يعب خطاه وتبعته أنا بخطاي نحو صخرة ضخمة اعتلت واستقرت على رأس الجبل. كانت المسافة كأنها الريح بلا جهات والتفاصيل تتناثر مني كصوف على قميص تأخذه قوة الرياح. على رأس الصخرة الضخمة التي استقرت على رأس الجبل، وقف الذئب رافعاً رأسه نحو السماء وأنا رفعت رأسي نحو المدى الغربي الذي أثثه العتم، المطر، البرق، الرعد، أضواء فلسطين وعيناك يا سعاد. كان الجوح والعواء وسط جنون الطبيعة التي منحت كل مؤونتها، إذ

ركض جوح الذئب في المدى متخللاً حبات المطر الغزيرة، كهرباء البروق وهدير الرعد كمن يسرد سيرته. وكنت بدوري أسرد سيرتي فاغراً فمي ومطلقاً آهة كادت تعلو عواء الذئب.
بينما صور كثيرة ومشاهد وأصوات كانت تختلط ببعضها في مخيلتي طوال اللحظات التي بقينا فيها نشيّع أصواتنا للسماء.

***

عندما عدنا للملاذ وأقعينا قرب النار نطرد البرد الذي ألم بنا، لم يقبل الذئب على رغيف الخبز المحمص على جمر النار وعلى وجبة الخضار والجبن والشاي كما فعل في المرة السابقة. من حقيبتي أخرجت علبة لحم بعد فتحتها وفاحت رائحتها، تبدلت ملامح الذئب، فراح يفتعل أصواتاً دلت على شهوته الأبدية لِللَّحم وضعتها أمامه كاملة وأنا أدرك كم يستحق ذلك الرفيق أكثر مما كنت أمتلك في تلك الليلة. راح يلتهم اللحم إلى أن أتى عليه كله ثم زحف قليلاً باتجاه النار. مد يديه أماماً وأرخى برأسه عليها وغفى نصف إغفاءة.

سعاد - 6

قبل أن تغادر سعاد عمان بيومين كتبت لي:

(مشتاقة أن تكون قربي، إلى جانبي تحديداً، رأسك على صدري. بحاجة لك، أنا بحاجة لك. هل تدرك إحساس الشخص المليء بالعطش وقد مضى عليه أسابيع في الصحراء بلا ماء، يفتش عنه بكل نهم يريد أن يشرب وأن يرتوي؟ هل لك أن تتخيل كيف ستكون حالته عندما يجد الماء؟ هل لك أن تتخيل؟ هذا أنا يا حبيبي. أحبك، أريدك وأعشقك. أنا كل هذه الأشياء، تعال أرجوك!)

كانت تلك الكلمات قد أتت في رسالة قصيرة على هاتفي النقال وأنا أعود من عملي بعد يوم شاق في صحراء بينها وبين الشمس صداقة أزلية لا تموت. ثيابي لا تسمح لي إلا أن أبقى متجها إلى صنبور الماء لأتخلص من العرق والأتربة والتعب الذي يشوش حتى رؤيتي أثناء المسير في طريق مزدحمة جداً. بعد أن فرغت من قراءة تلك الرسالة، قُرع هاتفي وجاءني صوتها يمتلئ باشتياق جعلني أركن سيارتي على جانب الطريق:

- أهلاً حبيبتي.

جاءت ضحكتها التي عهدتها مزيجاً من الفرح والدلال والرصانة:

- صوتك يأخذني مني؟

تبدلت نبرة صوتها فصارت أكثر أنوثة ما كان يمكنني مقاومتها:

- تعال لنتماهى إذن.

قالت ذلك وأنا أراقب هيئتي التي لم أتخيل أنها تصلح لهكذا لقاء فقلت وأنا أبتكر صحواً يأخذني من سطوتها المعتادة:

- لا. في هذا الوقت، هيئتي لا تسمح لي.

تسلل صوتها الناعم عبر سماعة الهاتف يستحثني:

- وهل يحتفي الحب بهذه التفاصيل يا حبيبي. أريدك كما أنت هكذا.

شيء ما داخلي صرخ فرحاً، كأن ألعاب نارية فجأة لعلعت في سماء معتمة.

عند باب البيت، كنتُ أُلملم بعضي كأنني استحلت إلى شظايا مبعثرة دون أن يخطر ببالي أن تلك الليلة ستشهد اللقاء الأخير. امتدت يدي إلى جرس الباب الذي أنَّ أنيناً لذيذاً في الداخل عندما تناهت إلى مسامعي إيقاعات صوت نقرات حذائها على أرضية البيت. ثمة سحابة من العطر سبقت وجهها والباب ينفتح أمامي كما اللحظة التي يطل فيها طفل على الحياة. الابتسامة التي تعربشت وجهها في تلك اللحظة عصية على النسيان، تلك الابتسامة التي أتت خليطاً من الدهشة والحب والارتباك. بعد برهة من الصمت، امتدت يدها وسحبتني للداخل. بعد أن أغلقت الباب، غبنا في عناق طويل كاد يجعل جسدينا يتلاحمان دون فكاك ونحن نحوش الكلمات التي أتت من جهة الشوق غزيرة بالحب. مرة أخرى، أخذتني من يدي جهة صنبور الماء في

الحمام تخلع عني ملابسي كما لو أنني طفل عاد من لعب في أزقة الحارة لساعات طويلة، تغمر جسدي بالماء والصابون وأنا أعيش لحظة تتقاطع مع لحظة ضجت في مخيلتي وأنا أقف في المعتقل قبالة الجدار أمسك بالريشة والأصباغ بيدي، أنوي رسم صورة لوجه على غرار الوجه الذي رسمه عبدالغفار. عندما ارتميت في حضن الصوفة، كنت أستعطف قوة خرافية لكي تعيد ترتيب الأشياء جوّاي. جلست ملتصقة بي:

- حبيبي سأغادر بعد غد. غداً لن أتمكن من لقائك.

- لكنك قلت أنك ستمكثين أكثر.

أرخت رأسها على كتفي وبدا صوتها حزيناً:

- هنالك بعض العقبات في العمل، لهذا السبب سأعود.

لامست وجهي بأصابعها وقالت بصوت متهدج:

- لا تقلق حبيبي ربما أعود في الشهور القليلة القادمة.

وضعت رأسها على ساقي وسحبت جسدها إلى الأمام بحيث استلقت في الصوفة. قالت وهي تقضم إظفر إصبعها:

- خالد، ماذا لو أتت إليك تلك المرأة التي حدثتني عنها؟ أقصد خطيبتك يوم كنت طالباً في الجامعة واعترفت لك بأنها خانتك. هل ستسامحها؟

قالت ذلك ثم نهضت وقد وضعت يدها على فمي:

- أرجوك،لا تقل شيئاً، هو مجرد سؤال خطر ببالي. كنت أريد فقط أن أعرف إلى مدى يمكن أن يسامح الشرقي.

ما أن جلست على طرف الصوفة حتى انحسر ثوبها عن فخذيها وقد وضعت ساقاً على ساق فبدا الأبيض متناغماً مع الأزرق كأنما كونشيرتو يسرد سيرة المدى الذي طفقت به غيمة ناصعة. بضع قطرات نبيذ تعلقت بشفتيها فرحتُ أطوي المسافة بيني وبينها كأنني أطوي مسافة من زمن الغياب. عندما لثمت فمها انداحت قطرات النبيذ في مهوى العطش، حينها كانت تشهق كقصيدة فرغ شاعرها من كتابتها وشيعها للبروق، كانت تشهق والنفس يصير واحداً واحداً لا غير. صار السحاب الخفيف وسادة الشهيق، بينما خطواتنا تتقاطع ببعضها ونحن نتجه إلى السرير.

* * *

عند طرف نافذة الشرفة التي تطلّ على "عَمّان" وقد أشعلت الكهرباء هشيم العتمة في ذلك المساء، وقفتْ تلفُّ جسدها الذي حاور في تلك الليلة العطش في جسدي كما لا يمكنني أن أحلم، تلفه بملاءة السرير البيضاء التي انحسرت عن ظهرها وفخذيها وهي تدخن بهدوء سجائر المالبورو الخفيف. بقيت أراقبها بصمت وكأنني أريد للذاكرة أن تتأثث بما يعينها أوقات الغياب. امتدت يدها وهي ما تزال تقف قرب النافذة حيث عبثت نسمة هواء بستارتها التي تهتز إلى علبة السجائر على طاولة حفلت بحاجياتها وأشعلت سيجارة ثانية فشهقت دخان التبغ وزفرته بعمق، حينها قالت وصوتها يتخذ نبرة ألفتها عليها حينما ترغب بالبوح:

- أتعلم يا خالد وأنا أراقب عمان هذه اللحظة؟ أحلم بأن أتحرر حتى من عقد عمل يستعبدني، أحلم بأن يكون الواقع هيناً وأن يكون خوفي الذي يتشكل حيال الأشياء خوفاً طبيعياً مثل خوف أي امرأة في أيامها السلسة وأن أمحو من بالي أن أعيش في بلاد لا تعترف سوى بالساعات التي أبدو فيها كآلة ما إن تتوقف عن العمل حتى تستبدل بغيرها، بلاد ناشفة، أحلم بذلك المكان الذي مارست فيه حياة ما زالت تروق لي وتجعلني أمام نفسي واضحة تماماً، هو الشوق للمكان والزمان، الشوق الذي يحسه واحدنا، ليس لأنه ضروري بل لأن غيابه يمس الغلالة الشفيفة التي تحيط بالروح.

اقتربتُ منها، وأنا ما أزال عارياً إلا من غيمة فرح كانت تخفق في سماء البال. احتضنتها وطوّقت يديّ حول عنقها ثم سحبت نفساً عميقاً من سيجارتها عبر يدها التي امتدت إلى فمي وهي بأناملها الأخرى تتحسس شفتيّ، حينها قالت وصوتها اعترته تلك الحشرجة الأنثوية التي من شأنها أن تشرع ستائر نافذة القلب:

- عندما أرسلت لي ما كتبته عني وعنكَ، أقصد ذلك النص الذي جاء مترعاً بتفاصيل تخصني وتخصك، اشتهائي، نزواتي، خيباتي، خساراتي، أحلامي، حتى أحلامي السرية، شعرت أن عالمي الخاص انهار مرة واحدة وما عدت أملكه، أقصد ذلك العالم الذي نتجول عبره ونحن نضع رؤوسنا على الوسادة قبل

النوم، ونحن على يقين بأن لا أحد يعلم بتفاصيله إلا نحن.
شهقت نفساً عميقاً من السيجارة ثم قالت وأصابع يدها تغور في شعري الذي لاح لي كثاً وهو ينعكس على زجاج النافذة:
- لكن يا حبيبي هذا لا يسبب لي أي وجع يمكنك أن تتخيله، أتعلم لماذا؟ لأنك بت ملاذي الوحيد، فهل من المنطقي أن نلوذ بشيء ونبقى مجرد كائنات غامضة حيال عالم هذا الملاذ؟
استدارت بحركة مفاجئة، سقطت الملاءة فبدا جسدها كاملاً ونضراً كأنه خلق للتو. أمسكت بيدي وسرنا بضع خطوات نحو السرير فقلت ونحن نجلس:
- أؤمن الآن أن ما يحدث بيننا ليس مجرد شيء وليد الصدفة.
كلماتك التي عرفتني بك، كانت منذ البدء قد خلقت بي إحساساً إن فقدته الأنثى، ستبدأ تحس بضربات يد الموت على باب تكوينها. إنه الإحساس الذي يأتي مزيجاً من الحب والاشتهاء. قبل أن أعرفك اعتقدت أن ذلك الإحساس في أيامه الأخيرة وأنني هالكة لا محالة، لذلك قلت لك "أنت رائع يا رجل" وأنت تنتشلني دون أن تعي من واد لا يؤدي إلا إلى الفناء فقد أحببتك واشتهيتك في لحظة أقبع فيها وراء حاسوبي، أتجول في العالم الافتراضي كأي امرأة يغيب زوجها لأحضان امرأة أخرى بعدما أدرك أنها ما عادت تصلح إلا للطهو وتنظيف البيت، لذلك أمسكت بهاتفي بعدما حصلت على رقم هاتفك المدرج في معلومات صفحتك وهاتفتك. كان قلبي مع كل رنة جرس

على جهة الاستقبال في هاتفك يهوي من مسافة شاهقة ثم يرتفع، حينها جاء صوتك: (ألو، ألو، ألو)

شعرت لحظتها بشيء علق بحنجرتي، منعني من الكلام فأقفلت الهاتف وعدت لكلماتك التي كتبتها في صفحتك في الفيس بوك. حجم الحب الذي تفاعل في جسدي كان أكبر من أن أقمعه، لذلك بعد عدد من الأحاديث الإلكترونية بيني وبينك، أصبحت مصابة بحب وتوق لك جعلاني مريضة وطريحة الفراش، فهل كان ثمة خيار واحد للحفاظ على عالمي الخاص، عالمي الخاص الذي بدأ يتشظى عبر تلك اللقاءات الحميمة التي تحدث بيني وبينك عن بعد.

توقفتْ عن الكلام وراحت تراقبني بصمت ثم اقتربت مني ولامست بجبينها جبيني وهمست بحنو:

- خالد، أنت رائع يا حبيبي. تذكر هذه العبارة مثل أشياء كثيرة سوف تذكرك بي.

- كأنني لن أراك مرة ثانية!

- بل سنلتقي.

* * *

كانت آخر كلماتها عبر الهاتف قبيل الفجر عوالم محملة بالأسى:

- غداً يا حبيبي سأغادر عند الرابعة عصراً.

في المطار كانت تجلس في حضن الكرسي صامتة لا تفعل شيئاً، ساهمة عبر زجاج البوابة العريضة التي تطل على شارع يعجّ

بالقادمين والمغادرين، لم تلاحظ عبوري البوابة مصاباً بالعجلة بسبب إحساس خفي أنبأني بأنني لن أراها مرة ثانية. ثمة موسيقى كانت تجيء من ضجيج قاعة المطار الكبرى، موسيقى اختاروها لتهدهد قامة الحزن التي تتلبس كل مغادر وهو ينتظر ذلك الوقت الذي يعلن فيه صوت أنثوي عن حلول وقت إقلاع الطائرة. اقتربت فأدركت أنها شاردة، لم تنتبه لوجودي إلا عندما ناديتها بصوت خفيض لاهث:

- سعاد.

ارتفع وجهها الذي كان متعباً بعض الشيء. تبدلت ملامحه عندما اكتشفت وجودي وقد بدا لها مفاجئاً: (خالد!).

كأن شيئاً منحني اليقين بأنني لن أراها مجدداً، كنت استثمر كل ثانية لأؤثث الذاكرة بتفاصيلها التي جعلت مني كائناً يعرف ما معنى أن تكون حراً وأنت تكابد زمن سجنك الداخلي وكانت هي بدورها تفعل ما كنت أفعله، كأن عينيها أنامل تتحسس وجهي وهي تمسحه بنظرة فيها من الأسى ما يمكنه أن يتوازى مع الشوق. الصمت بيننا لحظتها لم يكن صمتاً عادياً، بل كان صمتاً مليئاً بضجيج خلقته الرغبة بالتشبث بحياة مهما خذلتنا إلا أننا نواجه خذلانها بالأمل. هي امرأة تشبهني في أشياء كثيرة وتختلف عني بأشياء كثيرة أيضاً لم يكن بمقدوري أن أكتشفها بعد أن اشتعل القلب بها حباً طالما تلمست حاجتي له وأنا أعيش زمن المعتقل الداخلي وزمن اللايقين، في وقت تضيع به المسلمات

وتذوب به الحقائق تحت كم هائل من مساحيق الإخفاء.

كأن ضجيج القاعة الكبرى قد تلاشى مرة واحدة وساد بيننا صمت يشبه صمت المرايا في بيت فارغ إلا من أثاث أخرس فراح يخضبه صوت عزف على آلة "فيولين" بكل شجن تمنح اللحظة ميزتها الحزينة فرأيتنا نتذكر تاريخاً بيني وبينها ابتدأ بكلمتين جاءتا عبر عالم ما زلت أقول بأنه عالم افتراضي نرتهن له لنلهو بأحلامنا التي ستبقى حبيسة الصفحات الإلكترونية، تاريخاً ابتدأ بكلمتين وها هو ينتهي بصمت مليء بضجيج الأسى. امتدت يدي ليدها فدبت بها ارتعاشة خفيفة تقاطعت بخيال دمعات تراقصت في عينيها الحزينتين. يداها باردتان كأنهما قطعتا جليد. ثمة كلمات كانت تود أن تعبر الفم، لكن شيئاً ما كان يصدها احتفاء بصمت يمكنه أن يقول كل شيء بلا كلمات، لكنها راحت تكسر سطوة الصمت وهي تغالب كلمات كانت ترتجف في فمها، كأنها تريد الاعتراف بشيء تخافين نتائج الاعتراف به:

- خالد، هنالك خطايا نفعلها، ما إن نرى فداحتها حتى نكتشف غرابة إنسانيتنا. عليك أن تسامحني يا حبيبي. أعرف أنه ليس من السهل أن أعتذر عن خطيئة سببت لك اعتقالاً استمر لعشرين عاماً بكلمة واحدة، بل أن كل الكلام لا يمكنه أن يفعل ذلك. اسمي سحابة وليس سعاد.

ما أن سمعت ذلك الاسم حتى عادت ذاكرة إلى الوراء بسرعة خاطفة، فبعد أن رأيت في زمن الجامعة خطيبتي بحضن صديقي،

لا أتذكر أنني تحدثت لامرأة منذ تلك الحادثة، حتى أن ذاكرتي امتنعت عن أن تحتفظ بأي صورة لأنثى، لكن حادثة غريبة حدثت لي كادت أن تغير مجرى الأحداث وأنا أعود ذات يوم للبيت الذي كنت أسكنه في "عَمان"، إذ فوجئت برسالة ملقاة عند عتبة الباب، بعد أن قرأتها دلت على أن تلك الفتاة تعرفني جيداً، فتاة في الحزب نفسه الذي كنت أنتمي له. توقع الرسالة باسم (رفيقتك سحابة). ثمة حب من طراز مختلف لمسته خلال تلك الرسالة يشي بقلب امرأة تخبئ في قلبها صورة لي تبينت ملامحها عبر كلمات لا يمكن أن تقال إلا من قبل امرأة تحب بصدق لم يستطع قلبي أن يراه في ذلك الوقت بسبب ما حدث. ما أن فرغت من قراءة الرسالة حتى مزقتها ورميتها في سلة المهملات ونسيت الأمر، لكن الرسائل توالت وأصبحت روتينا يومياً لَم يغيّر من موقفي نحو النساء شيئاً، لكن قراءة تلك الرسائل باتت عادة يومية منحتني شيئاً من التسلية ولم تخلق بي أدنى درجات الفضول لمعرفة صاحبة تلك الرسائل. في رسالة تلت رسائل كثيرة لها، راحت تلك الفتاة تكتب لي بما يشبه التوضيح وهي ترى تجاهلي لرسائلها:

"أعرف أنك قد تستغرب من شكل هذا التواصل بك. فتاة تضع لك الرسائل عند بوابة البيت ثم تمضي، فتاة تعرفك ولا تعرفها ثم تضعك في حيرة من أمرك بأن تعمد إلى هكذا طريقة في زمن ما عاد الحب فيه يحتمل كل تلك المراوغات. أعلم أن على التواصل

أن يكون صريحاً مباشراً، لكن لا أدري ما حل بي. لم يكن بيننا حديث ما. نحن لم نلتق وجهاً لوجه ولو حتى مرة واحدة. كنت أراقبك من بعيد، أشعر بأن بي رغبة ما لأبقى أستمع لك وأنت تتحدث. لا أدري هل رأيتني أم لم ترني. كنت عندما أقرأ لك شيئاً في صحيفة الحزب وأعلم أنك كنت توقع باسم رمزي. ثمة عذوبة كانت تنبض في كلماتك حتى وأنت تتحدث في شأن سياسي، ثمة شيء راح يسحبني نحو الاستماع لك عن بعد وأنت تشترك في الحوارات التي تحدث في لقاءات الحزب، ثمة إحساس راح يتفجر في داخلي دونما قدرة لي على إسكاته وأنا أقرأ كلماتك. ذات يوم قرأت لك نصاً أدبياً لعدة مرات. كلما أعدت قراءته لامستني رعشة أضاءت روحي وهي تسحبني نحوك بكل جنون المرأة حينما تعشق رجلاً ليس لها. يوماً إثر يوم وأنا أراقبك من بعيد كأنني بت لا أمتلك القدرة على اقتحام عالم الرجال من جديد، رحت أستعيدني، تلك الأنثى التي ظلت طوال عمرها تحلم بالحب. كنت قد تركت شعري ينسدل على كتفيّ وبتُّ ارتدي فساتين بألوان زاهية وأضمخ جسدي بالعطر ولم آبه باستغراب من هم حولي بسبب كل ذلك التحول المفاجئ، لكنني كنت منقوصة من تلك الجرأة في اقتحام عالمك".

كانت رسائل تضج بحب لم يكن بمقدوري أن أفتح له ذراعي القلب لأنني كنت خارجاً للتو من مشهد خيانة عاطفية شوهني من الداخل بكل قسوة. مشهدٌ، أغمي عليّ بسببه لأسبوع كامل،

صحوت بعده مصابا بالخرس لا أتكلم. بقيت تلك الرسائل تأتي في كل يوم دون أي إحساس حقيقي يجعلني أحتفي بتلك الفرصة التي يمكنها أن تمنح عتمة روحي شمساً ساطعة فكتبت رسالة قاسية لم تكن موجهة لها في تلك اللحظة، بقدر ما كانت موجهة لخطيبتي التي فعلت بي ما فعلت. كانت رسالة قاسية جداً كأنها تهديد بأن على صاحبتها أن تكف عن مراسلتي فتوقفت الرسائل ولم أعد أفتش مكان هذه الأخيرة بحثاً عن رسالة جديدة فنسيت، لكن ما هي إلا أسابيع معدودة حتى جاءتني رسالة أخرى كانت مؤلمة لدرجةٍ لم أستطع أن أقرأها مرة ثانية:

"أنا لست تلك المرأة التي خانتك فكرهت بسببها النساء يا خالد. كتبتُ لك رسائل تحت سياط مكابدات الليل التي تؤكد بأنني بت مغرمة بك إلى درجة لم أعد أطيق فيها وهن جرأتي تلك. وفي اليوم التالي أضعها لك قرب الباب، فكلما كتبت رسالة ورحت لأضع واحدة أخرى في مكانها ولا أجد جواباً منك، أحس بأن شيئاً ما في داخلي يتهشم فأزداد إصراراً على ما أنا فيه، كأنني أرفض تلك الأصوات التي تأتيني من داخلي وتذكرني بما حدث لي ذات يوم إلى أن جاء ذلك الصباح الذي ما أن وضعت فيه الرسالة لك قرب باب بيتك حتى وجدت رسالة منك في نفس المكان. عندما حملتها وحشرتها في حقيبتي كنت كمن يحمل الأمل في يده ويهرب به بعيداً خوفاً عليه.

في المقهى فتحت الرسالة التي كانت تمنحني الوجع جرعة كاملة وأنت تقول فيها:

"يا أنتِ، يا حواء التي تطاردني مثل ذبابة، كفي عن ملاحقتي أيتها الشمطاء التي مهما تزينت وعلت وجهها المساحيق إلا أنها ستبقى تلك القميئة التي لا تستحق الحياة. أعرفك جيداً، فناموسك لا يناسبني. عودي أدراجك واكسري مرآتك التي تخدعك".

كأن سقف المقهى يا خالد قد استحال إلى كائن متحرك رأيته قد هبط عليّ مرة واحدة ورأيتني أتطاير من ذاتي شظاياً ومزقاً. داهمتني حالة من الاختناق وكأنني حينها رحت أتأهب لتلك الحالة من الصمت التي عصفت بي ذات يوم. عند باب المقهى كان صديقك "رداد" للتو قد عبر إلى الداخل بمعية امرأة ما أن جلست، حتى لحق بي يستفسر عما أصابني وكان بادياً على وجهي. أعطيته الورقة ورحلت بعد أن قلت له:

- انظر ماذا كتب لي صديقك خالد.

عندما قرأ الورقة بعجالة، قال لي وأنا أهبط درج المقهى:

- لابد أنك تعرفين لماذا كتب لك خالد بهذه الطريقة. خالد لا يعرفك. لقد أخبرتك أنه بحاجة لوقت حتى يتخلص مما أصابه جراء تجربة صادقة.

إن الوجع الذي احتلني بعد رسالتك يا خالد، يفوق وجعك جراء خيانة تلك المرأة لك."

مرّ أسبوع بقيت عبره أكابد سياط الندم على ما قلته في رسالتي تلك بحق امرأة أحبتني بصدق، وما إن قررت أن أستعين برداد ليتدبر لي وسيلة للقاء صاحبة الرسائل تلك حتى اعتقلت في مساء ذلك اليوم.

* * *

من بوابة مخصصة لطاقم طائرة أخرى غير الطائرة التي كانت ستستقلها سعاد، خرج رداد متقدماً نحونا بخطوات حزينة، منفصلاً عن زملائه. ما أن اقترب منا حتى أمد يده وصافح سعاد:

- كيف حالك يا سحابة.

ثم صافحني وأنا أراقب وجهيهما متفاجئاً، أفتش عن إجابة لما يحدث. قال رداد بصوت مرتجف وهو يشيح ببصره عني:

- هنالك أحداث في حياتنا علينا أن ننساها كأنها لم تحدث يا خالد. كل ما فعلته أنني رأيت أملاً بينكما سوف يبث في جسديكما الحياة.

جلست سعاد في الكرسي وراحت تنشج بمرارة. من ردهة المطار نادى الصوت الأنثوي مكرراً نداءه الأخير معلناً أن الطائرة على وشك الإقلاع فغادر رداد متعجلاً وهو ينضم لطاقم الطائرة التي سوف تيمم شطر باريس ثم ما هي إلا لحظات حتى نادى الصوت الأنثوي على ركاب الطائرة التي أخذت سعاد مني دونما عودة فنهضت من مقعدها وبقيت أنا جالساً فاقداً قدرتي على الوقوف. انسحبت على مهل، تماماً مثل يدي التي كانت تنسل

من حضن يدها شيئاً فشيئاً وهي تودع زمناً من حب عليه أن يحيي ليموت العتم في دمي ودمها، بينما صوت الدكتور ويلسون يهمس في دواخلي: (يحدث يا خالد أن تحب الضحية قاتلها).

وهي تعبر بوابة المسافرين التي ابتلعتها باتجاه الطائرة وابتلعت عمراً من الحلم بالحياة، نادت بصوت مختنق: (وداعاً يا خالد.)

لوحت بيدي، بينما ذاكرتي تستعيد ذخيرتها من الصور وهي تفتش صورة قديمة لها: (وداعاً يا سحابة).

خارج المطار بينما بوتشيللي يئن بصوته الحزين عبر مسجلة السيارة التي ركنتها على جانب الطريق المخضب بشفق الغروب المشظى، أنّت الطائرة أنيناً موجعاً وهي تصعد درج السماء، معلنة مصيراً موجعاً.

كابوس

في أسفل الصفحة وحينما فرغت من الكتابة، وضعت كلمة تمت، منهياً التخلص مما بي عبر الكلمات. تنهدت عميقاً وكأني استرحت من مسير مسافات طويلة. هجمت دفقة برد على الملاذ مرة واحدة فسحبتُ البطانية على كتفيّ ورميت بضعة أعواد من الحطب لكي يأخذ الذئب المسترخي نصيبه من الدفء. ما أن ارتفعت ألسنة النار حتى بدت على ملامحه علامات التوجس والحذر ثم عاد مسترخياً. أشعلت سيجارة ورحت أرتشف من كأس الشاي أراقب الوادي الذي غابت ملامحه بفعل الليل والعاصفة التي كانت على وشك أن تقتلع حتى الصخور الضخمة الجاثمة على بدن الجبل. كان الذئب يراقبني بعينين تشيران إلى أسئلة داخله. أخذ النعاس يتسلل إلي فأغمضت عينيّ.

في المنام رأيتني أتجول في باحة المعتقل وحيداً، الباحة تخلو من النزلاء. ثمة غيمة سوداء هجمت على المكان فخيل لي أن ليلاً حلَّ تلك اللحظة في غير أوانه، وما هي إلا لحظات حتى أمطرت الغيمة حصى، ركضت نحو العنبر ويدي تمسح جروحاً طفقت برأسي ووجهي. كان العنبر خالياً، لكن ثمة صوت كان يأتي من الداخل، تحديداً من جهة سريري الذي كان قريباً من النافذة الموصدة بقضبان معدنية. رائحة عطرك التي بقيت منذ تلك الليلة التي أدركت فيها معنى أن تكون في السرير مع امرأة تحبها

حدّ الثمالة ثم تدرك فيما بعد معنى أن يبقى العطر حارساً لِطَيف حبيبة غابت دون عودة.

عندما اقتربت من السرير، رأيت سعاد عارية في أحضان المحقق الذي توعدني بالكوابيس. كانت تعتليه وهو ممدد على ظهره وتتأوه باللذة، بينما المحقق يمد لي لسانه. حين اقتربت منها، صارت خطواتي ثقيلة وقدماي مكبلتان بسلاسل معدنية أسقطتني أرضاً وأنا أتوسل:

- أرجوك يا سعاد؛ لا، لا، لا.

ولكنها كانت تطلق آهات اللذة التي راح صوتها يشج سقف العنبر. ما أن انتبها لي حتى أخذاني إلى طاولة وكرسي معدنيين في غرفة معدنية. الطاولة في منتصف غرفة معتمة إلا من إضاءة دائرية تكشف عدداً من الجنود يتحلقون حول طاولتي وهم يرتدون ملابس معدنية صدئة. أمامي على الطاولة صحن وملعقة من معدن صدئ أيضاً. تقدم أحد الجنود وهو يحمل قدراً معدنياً تتصاعد منه أبخرة سوداء، مدّ يده في القدر ثم راح يخرج قضباناً صدئة يتصاعد منها بخار أسود ويضعها في الطبق الذي أمامي. تراجع إلى الوراء قليلاً ثم قال بصوت معدني:

- كل.

نظرت إلى الطبق ثم إليه وإلى باقي الجنود. أتت منه صرخة بقي صداها يتردد في أرجاء الغرفة:

- كُل.

أصبت برعاش هستيري وأنا أقول:
- هذه قضبان، قضبان قد تخنقني وأنا أريد أن أعيش، أريد أن أعيش.
جاء صوت الجنود بوتيرة واحدة كأنه صوت جوقة:
- كُل.
امتدت يدي إلى الطبق ثم وقفت مرة واحدة وأنا أردد بصوت هستيري:
- لا، لا، لا.
تقدم أضخمهم ولف ذراعه المعدنية حول عنقي، وبأصابعه المعدنية فتح فمي وراح يدس القضبان واحداً تلو الآخر والجنود يرددون:
- كُل.
من كوّة معدنية في الجدار، رأيتكِ تعبرين عارية، بينما كلماتي تعبر من بين القضبان في فمي مشظاة تستغيث بك:
- سعاد، سعاد، سعاد.
وقفت قرب الطاولة تدسين القضيب المعدني الصدئ في حلقي وأنت تصرخين:
- كُل، كُل، كُل.
كان كابوساً مزعجاً، صحوت منه مرتجفاً فرأيت ضياء الشمس وهي تشرق من وراء سلسلة الجبال وقد تناثرت شرق جبل نيبو يعلن بداية نهار جديد. أمضيت دقائق أحاول استيعاب وجودي

في ذلك الملاذ الصخري، كأن الليلة التي مضت لم تحدث لي.
لا أصوات تتلقفها مسامعي سوى صوت زقزقة عصافير الدوري، إذ أدركت أن المطر الذي ظل في تلك الليلة يجيء عبر جنون الطبيعة، كأنه احتجاج على شيء ما، أكثر مما هو أنشودة للخصب والنماء قد توقف عن الهطل، كما توقفت الرعود والبروق عن هديرها وزعيقها فساد المكان ذلك الصمت الآسر وهو يشبه صمت جوقة موسيقية يجيء عند الانتقال من مقطوعة إلى أخرى عبر مسافة زمنية موسيقية يتخللها أنين آلة "فيولين".
بضع جمرات تبقت في حفرة النار التي أكلت كماً هائلاً من أغصان الأشجار وجذوعها في ليلة رحت أشك أنها حدثت لي في الأصل وأنا أتمطى في ملاذي الذي بدا كومضة نهنهة في صدر عتيق. بدت المسجلة الصغيرة التي بقيت تنطق بصوت بوتشيللي في ليلة مظلمة جعلتني قبالة نفسي كأني إزاء مرآة بحجم المجرة، غافية في مكانها، حيث استراح ذلك الملاك الضرير من غناء منح اللحظات رهاماً شتائياً عبر مطر صفع بدن الأرض بصخبه المجنون بكل ضراوة.
سكبت كأس شاي وأشعلت سيجارة ورحت أتأمل الليلة التي رأيتها كطاولة تشريح استلقى عليها عمري كله. تفقدت خانة الرسائل في الحاسوب وكانت فارغة من أي حرف في صفحتي في الفيس بوك الذي غبت عنه لشهور، كتبت:
"عندما نحب فإننا نخرج على سلطة السجن الذي أتت صرخة

الخروج من الرحم بسببه لتصبح حياتنا بكاملها خروجاً على أي سلطة تهدد فكرة الحياة. نحب، نحتج، نتظاهر، نكتب، نخطئ ونصيب حتى لا نصبح فرائس لحقيقة أن الحياة سجن كبير فالوجع الحقيقي ليس خسارتنا لحبيبة تمنحك فضاء يتجاوز الفضاء، الوجع الحقيقي هو أن نبقى نراقب الشمعة من بعيد ونحن نهش طيور العتمة من حولنا دون نتيجة تفضي إلى النور، تماماً مثل رافض يكتفي بمراقبة متظاهرين يهطبون للشارع ويندون بتنامي سلطة القهر. حين نشذب الشجرة فإننا نحب، حينما نقف قبالة أنفسنا عراة إلا من مجابهة الحقيقة فإننا نحب، حينما نرفع أصواتنا ونقول لا فإننا نحب، حينما نحلم بأن يضع آدمي رأسه على صدر ذئب فإننا نحب، حينما يخسر الواحد منا حب امرأة ويبقى قلبه يشيعها بحب كمن يحرس طفلاً في طريق معتمة فإننا نحب. نحن نحلم حتى لو راحت الطريق تقودنا خلسة نحو المقصلة".

نهضت من مكاني وجمعت حاجياتي ثم حشرتها في حقيبتي التي تعربشت ظهري كولد متعجل للرحيل. عندما عبرت بوابة الملاذ أهم بمغادرته، هجم علي بياض الثلج الذي كان في تلك الليلة يصارع المطر ليعلم الكائنات لغته البيضاء فأطلت من ورائه ملامح اخضرار عشب امتزج بذهب الشمس الصباحية وهي تنعكس من صفحة البياض على عينيّ مرة واحدة. وقفت على مفترق طرق، واحدة تأخذني حيث تقف "مادبا" وأخرى تهبط إلى الوديان والشعاب التي تجاور البحر الميت وثالثة تركض نحو

الجنوب، حيث الصحراء التي تمتد مدّ الظن في البصر. من الأفق الشرقي، صعدت طائرة درج الهواء وهي تئن أنين الرحيل، بقيت أتتبعها باهتمام حتى تلاشت في الأفق الصباحي الذي خلا من الغيوم كما لو أن ليلة ماطرة مجنونة لم تحدث البارحة.

عندما تأهبت للرحيل، رأيت الذئب يتفرس وجهي بحزن تقاطع مع حزن مماثل داخلي ولاذ بصمت وراءه صخب واضح لأعانقه، جثوت على ركبتي اللتين غارتا في الثلج فتسللت البرودة إلى جسدي مرة أخرى. بدت يداي في تلك اللحظة تحتضنان الهواء وأنا أهم باحتضان الذئب ففركت عينيّ بباطن كفيّ متفاجئاً بعدم وجود أي ذئب. حينها درت حول نفسي ثم التفت إلى الملاذ الذي رأيته قد خلا من أي شيء.

وأنا أهم بالرحيل ثمة إشارة صوتية ضجت من الحاسوب الذي لم أكن قد أغلقته بعد، دلت على أن هنالك رسالة جديدة عليّ أن أقرأها.

فرحت بلهفة شديدة أنقر زر المؤشر، لكن الشاشة اختفت معلنة نفاد الكهرباء فاستحالت إلى سواد خالص.

انتهت